

الوجه العارى للمرأة العربية

نوال السعداوى

الوجه العَاري للمَرأة العَربية

د. نوال السعداوى

الإهـــــداء

إلى ابنتي وأبنـائي شـباب العـالم العربـي ومن بينهم ابنتي ((منى)) وابني ((عاطف)) على أمل أن يكون المستقبل أكثـر صـدقاً ووعيـا مـن الماضي أو الحاضر.

الفـ ـهرس

الأفكار الأساسية التي تضمنها هذا البحث

١ ـ أن الثقافة الإسلامية أو العربية ليست هي الثقافة الوحيدة التي حولت المرأة إلى سلعة أو عبـدة ولكـن الثقافـة الغربية والمسيحية أيضا فعلت ذلك بل إن قهرها للمرأة كان أشد وأفدح.

٢ ـ اضطهاد المرأة لا يرجع إلـى الشـرق أو الغـرب أو الإسلام أو الأديان الأخرى. ولكنه يرجع أساسـا إلـى النظم الأبوية في المجتمع البشري كله.

٣ ـ تتضمن الأديان الكبرى في العالم مبادئ متشـابهة مـن حيث تبعية المرأة للرجل وتمتع الإله بصفات ذكوريـة وتثبيت القيم الطبقية وسلطة الذكر في البيت والمجتمع.

٤ ـ ليس عقل المرأة دون عقل الرجل كما يعتقد الكثيـرون، والتاريخ يدلنا على أن المرأة سبقت الرجل في التفكير بعقلها وهي التي بدأت المعرفة في تـاريخ البشـرية، وكانت الآلهة الأولى للمعرفة امرأة هي إزيـس ومـن قبلها كانت حواء.

٥ ـ الإسلام والمسيحية مراحل تقدميـة وتطوريـة بالنسـبة لتطور – المجتمع البشري في كثير من النواحي إلا أن القيود زادت على المرأة.

٦ ـ الإسلام أعطى المرأة حقوقًا جديدة وسلب منهـا حقوقًـا قديمة، وحظيت المرأة في حياة الرسول محمد بحقـوق تسلب منها اليوم في معظم البلاد العربية.

٧ ـ في تراثنا العربي والإسلامي إيجابيات يجب البحث عنها وإظهارها وتقويتها، أما السـلبيات فيجـب علينـا أن نتركها بشجاعة وفهم: وتعتمد قضية تحريـر المـرأة العربية على الجمع بـين إيجابيـات التـراث القـديم وإيجابيات الفكر المستحدث.

٨ ـ المرأة التي صورها الأدب العربي القـديم أو الحـديث ليست هي المرأة العربية الحقيقية.

٩ ـ لن يحرر النساء إلا النساء أنفسهن، وبعد أن يصبحن قوة سياسية لها قدرتها على الفعل واتخاذ القرارات الكبرى، وهذا لن يتم إلا من خلال قوة نسائية منظمـة واعيـة لحقوقها وأهدافها.

١٠- التاريخ يدلنا على أن الثورات الاشتراكية وحروب التحرير تسرع بعملية تحرير المرأة في الشرق أو الغرب، وقد ساهمت حرب التحرير الجزائرية في كسر كثير من قيود المرأة بالجزائر، وكذلك تسهم حرب التحرير الفلسطينية في تحرير المرأة الفلسطينية مما يربط بين قضية تحرير الشعب ككل وقضية تحرير نسائه.

السؤال الحائر بغير جواب

كنت في السادسة من عمري. نائمة فـي سـريري الدافئ أحلم أحلام الطفولة الوردية حينما أحسست بتلك اليـد الباردة الخشنة الكبيرة ذات الأظافر القذرة السـوداء، تمتـد وتمسكني، ويد أخرى مشابهة لليد السابقة خشنة وكبيرة تسد فمي وتطبق عليه بكل قوة لتمنعني من الصراخ، وحملـوني إلى الحمام، لا أدري كم كان عددهم، ولا أذكر مـاذا كـان شكل وجوههم، وما إذا كانوا رجالا أم نساء، فقـد أصـبحت الدنيا أمام عيني مغلفة بضباب أسود ولعلهم أيضا وضـعوا فوق عيني غطاء، كل ما أدركته في ذلك الوقت تلك القبضة الحديدية التي أمسكت رأسي وذراعي وساقي حتى أصـبحت عاجزة عن المقاومة والحركة وملمس بلاط الحمـام البـارد تحت جسدي العاري، وأصوات مجهولة وهمهمات يتخللهـا صوت اصطكاك شيء معدني ذكرنـي باصـطكاك سـكين الجزار حين كان يسنه أمامنا قبل ذبح خروف العيد.

وتجمد الدم في عروقـي، ظننـت أن عـددا مـن اللصوص سرقوني من سريري ويتأهبون لـذبحي، وكنـت اسمع كثيرا من هذه القصص من جدتي الريفية العجوز.

وأرهفت أذني لصوت الاصطكاك المعدني، ومـا إن توقف حتى توقف قلبي بين ضلوعي، وأحسست وأنا مكتومة الأنفاس ومغلقة العينين أن ذلك الشيء يقترب مني، لا يقترب من عنقي، وإنما يقترب من بطني من مكان بـين فخـذي.. وأدركت في تلك اللحظة أن فخذي قد فتحا عن آخرهما، وأن كل فخذ شدت بعيدا عن الأخرى بأصابع حديديـة لا تلـين، وكأنما السكين أو الموسي الحادة تسقط على عنقي بالضـبط، أحسست بالشيء المعدني يسقط بحدة وقوة ويقطع مـن بـين فخذي جزءا من جسدي.

صرخت من الألم رغم الكمامة فوق فمي، فالألم لـم يكن ألما، وإنما هي نار سرت في جسدي كله، وبركة حمراء من دمي تحوطني فوق بلاط الحمام.

لم أعرف ما الذي قطعوه مني، ولم أحاول أن أسـأل كنت أبكي وأنادي على أمي لتنقذني، وكم كانت صدمتي حين وجدتها هي بلحمها ودمها واقفة مع هؤلاء الغرباء تتحـدث معهم وتبتسم لهم وكأنهم لم يذبحوا ابنتها منذ لحظات.

وحملوني إلى السرير ورأيتهم يمسكون أختي التـي كانت تصغرني بعامين بالطريقة نفسها فصرخت وأنا أقـول

لهم: لا، لا، ورأيت وجه أختي مـن بـين أيـديهم الخشـنة الكبيرة.

كان شاحبا أبيض كوجوه الموتى، والتقـت عينـاي بعينها في لحظة سريعة قبل أن يأخذوها إلى الحمام، وكأنمـا أدركنا المأساة في تلك اللحظة، مأساة أننا خلقنـا مـن ذلـك الجنس، جنس الإناث، الذي يحدد مصيرنا البائس ويسوقنا بيد حديدية باردة إلى حيث يستأصل من جسدنا بعض الأجزاء.

لم تكن أسرتي من الأسر المصرية غير المتعلمـة، كان أبي متعلما تعليما عاليا بل كان مراقبا على التعليم فـي محافظة المنوفية في تلك السنة [1]، وكانت أمي قد تعلمت في مدرسة فرنسية قبل أن يزوجها أبوها الذي كان مديرا للقرعة العسكرية في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد كانت تلـك العـادة المعروفة بختان البنت (أو الطهارة) منتشرة، ولم تكن تفلت منها أي بنت سواء في الريف أو المدن، وقد سألت زميلاتي في المدرسة (بعد أن شفيت وعدت إلى المدرسة) فإذا بهن جميعا قد تمت لهن عملية الختان سواء من كانت منهن مـن أسرة عالية أو متوسطة أو فوق المتوسطة.

---

(١) سنة ١٩٣٩، ومحافظة المنوفية إحدى محافظات الوجه البحري بمصر.

أما في الريف والأسر الفقيرة غير المتعلمـة، فقـد علمت من بنات قريتي ((كفـر طلحـة)) أنهـن جميعـا مختونات، ولا تزال هذه العادة شائعة في الريف حتى اليوم، بل أن كثيرا من الأسر في المدن ما زالوا يؤمنون بها، إلا أن التعليم وازدياد الوعي قد ساعد بعض الآباء والأمهات علـى الإحجام عن إجرائها لبناتهم.

وقد ظلت حادثة الختـان تراودنـي فـي أحلامـي كالكابوس، ولم أكن أعرف بالضبط ما الذي ينتظرنـي فـي المستقبل، وما إذا كان هناك من حوادث أخرى تخبئهـا لـي أمي أو أبي أو جدتي أو المجتمع من حولي الـذي أشـعرني منذ فتحت عيني على الحياة أنني بنت، وإن كلمة ((بنت)) حين ينطقها أحد فهو لا يبتسم.

وبعد أن كبرت وأصبحت طبيبـة ١٩٥٥ لـم تفقـد ذاكرتي الحادث المؤلم الذي أفسد طفولتي والذي حرمني في شبابي وزواجي من حياة جنسية ونفسـية مكتملـة، وظـل كابوس من هذا النوع يراودني في الأحـلام، خاصـة وأنـا طبيبة ناشئة أعمل بالريف، حين كانوا يحملون البنت الطفلـة لإسعافها وهي تنزف دما بسبب الختان، وكم من بنات أطفال

نزفن حتى الموت بسبب هذه العـادة البشـعة، أو تعرضـن للالتهابات الحـادة أو المزمنـة بسـبب تلـوث الجـرح أو لتعرضهن للمشاكل النفسية أو الجنسية فيما بعد.

وساقتني ظروف عملي إلى أن أفحص بعض النساء السودانيات، وكم كانت دهشتي حين رأيت أن البنت السودانية تتعرض لعملية ختان أبشع من تلك التي تحدث في مصـر، أنهم في مصر يقطعون البظر فقط والشفاه الأربعة الداخلية ثم يخيطون الجرح ويغلقون فتحة المهبل تمامـا إلا مـن ثقـب صغير لمرور دم الحيض، وعند الزواج تفتح الفتاة بالموسي أو المشرط حتى يمكن لعضو الزوج أن يدخل في المهبل، أما المرأة السودانية المطلقة فإنهم يغلقونها مرة أخرى حتـى لا يمكنها ممارسة الجنس، فإذا تزوجـت مـرة ثانيـة عـادوا وفتحوها بالموسي أو المشرط.

كم كنت أشعر بالغضب والثورة يتجمعان في صدري وأنا أفحص هؤلاء النساء أو أسمع ما يقولـون عـن ختـان البنات السودانيات. وكم بلغ بي الغضب حين سـافرت إلـى السودان ١٩٦٩ وعلمت أن هذه العادة السيئة لا تزال تمارس في الريف والحضر.

رغم أنني كنت طبيبة وأنظر إلى نفسي كامرأة متعلمة إلا أنني لم أعرف في ذلك الوقت لماذا يفعلون تلك الأفعال البشعة بالبنات! كثيرا ما سألت نفسي السؤال.. لماذا؟ لكني لم أعرف الجواب، وكثيرا ما لاح لي السؤال وأنا طفلة صغيرة، لماذا؟ فعلوا ذلك بي وبأخواتي البنات؟.

لماذا يميزون أخي علي في الطعام والملابس وهدايا العيد والحرية في الخروج من البيت؟ لماذا يضحك أخي بصوت عال، ويحرك ساقيه بحرية، ويجري ويلعب كما يشاء، أما أنا فبنت، والبنت يجب ألا تحملق في عيون الناس بل تخفض عينيها حين تنظر إلى أحد، وإذا ضحكت تضحك بصوت لا يسمعه أحد أو تبتسم فقط، وإذا لعبت فيجب ألا تحرك ساقيها بحرية وإنما تمشي بأدب، والبنت عليها أن تنظف البيت وتساعد في الطبخ وتذاكر أيضا إذا كانت في المدرسة أما الولد فليس عليه إلا أن يذاكر فقط.

ولأن أسرتي كانت متعلمة وترسل بناتها إلى المدارس للتعلم فلم تكن التفرقة بين البنات والأولاد شديدة كما كانت في الأسر الأخرى، وكم كنت أشفق على البنات من أقاربي حين كنت أرى الواحدة منهن تترك المدرسة

فيزوجوها إلى رجل عجـوز لديـه قطعـة أرض، أو أرى الواحدة منهن وهي تضرب أو تهان مـن أخيهـا الأصـغر لمجرد أنها لم تسمع أوامره.

وكان أخي يحاول فرض سيطرته علي لكن أبي كان رجلا واسع الأفق وكان يحـاول أن يسـاوي بـين البنـات والأبناء. وكانت أمي تقول لنا أحيانا إن البنت مساوية للولـد لكني كنت أحس أن هذه المساواة ليست كاملة فـي أحيـان كثيرة.

وكنت أثور دائما حين أشعر بهذه التفرقة الواضحة، وأسأل أمي وأبي لماذا يحظى أخي بامتيازات لا تعطى لـي مع أنني في المدرسة؟ ولم تكن أمي وأبي يجدان جوابا عـن سؤالي سوى: كده، [1] وأرد وأقول: كده ليه؟ ويجيئني الرد: هو كده، (هو الأمر كذلك).

وأبالغ في العناد فأسأل مرة أخرى: هو كـده ليـه؟ (لماذا هو الأمر كذلك) وحينما تضيق أمي أو أبي بسؤالي الملح يقولان: هو ذكر وأنت بنت.

---

(١) الكلمة العامية المصرية لكلمة كذلك وتعني أن الأمر كذلك، أمر واقع لا يتغير.

وكأنما كانا يتصوران أن هذه الإجابة كافية لإسكاتي أو اقتناعي، لكنها كانت على العكس من ذلك تزيد تسـاؤلي حدة فأقول: وما الفرق بين البنت والصبي؟، (لمـاذا الأمـر كذلك).

وهنا قد تتدخل جدتي العجوز إذا كانت قد جاءت في زيارة لنا وشهدت ذلك الحوار الذي كانـت تسـميه دائمـا خروجا على الأدب، وتنهرني بحدة قائلة: لم أر في حيـاتي بنت لها مثل لسانك الطويل، طبعا أنت لست مثـل أخيـك، أخوك ذكر، ليتك ولدت ولد مثله.

ولم يستطع أحد في البيت أن يرد على سـؤالي ردا مقنعا وظل السؤال حائرا في رأسي، يتردد من حين إلى حين كلما وقع شيء جديد يؤكد لي أن الذكر يعامل في كل مكـان أذهب إليه على أنه الجنس الأعلى من الجنس المؤنث.

وحينما ذهبت إلى المدرسة لاحظت إنهم يكتبون اسم أبي فوق كراساتي وكتبي ولا يكتبون اسم أمي، وسألت أمي عن السبب فقالت لي: كده، أما أبي فقـال لـي إن الأطفـال ينسبون إلى الأب فقط، وحينما سألته لماذا قال: كده.

واستطعت أن أسأله مرة أخرى: لماذا كده؟.

وأدركت من وجه أبي أنه لا يعرف الإجابـة، ولـم أسأل أبي مرة أخرى حتى حدث بيني وبينه جدال من نـوع أخر بعد أن دخلت رأسي معلومات جديدة.

الآلهة الأنثى والمعرفة

((من حق الناس أن يطلبوا من الآلهة الخير والطعام و الأمن والستر، أما الفلاسفة والعلماء والفنانون فيطلبون من الآلهة المعرفة، وأول هذه المعرفة ،معرفـة حقيقـة الآلهـة أنفسهم، والفرق بين إنسان وإنسان هو المعرفة، بـل الفـرق بين إله وإله هو المعرفة أيضا)).

أظن أنني قرأت هذه العبارة وأنا طفلة صغيرة فـي أحد الكتب القديمة، ولعلها من كلمات الفيلسـوف اليونـاني بلوتارخوس (Plutarchos) في كتاب عن الآلهة المصرية القديمة" أوزوريس" ورغم مرور السنين الطويلة فمـا زلـت أذكر هذه العبارة وأذكر أيضا أن ((هوميروس)) قـال إن الإله زيوس كان أفضل من الآلهة أوزيس لأنه كـان أعظـم منها في المعرفة، أما الآلهة إزيس فقد كانـت أكثـر الآلـة معرفة بل إن اسمها ((إزيـس)) يعنـي لغويـا المعرفـة والحكمة، ويدل ((هيكل إزيس)) على إدراك الحقيقة فهـو

يسمى ((إيزيون)) ليدل على أننا سوف ندرك الحقيقـة إذا دخلنا ((زونة)) [1] الآلهة أو بيت الآلهة إزيس.

وقد أكد لنا كل من كتب عن الآلهة ((إزيـس)) أن عابدها الحقيقي لم يكن هو الكاهن الـذي يرتـدي الأثـواب المقدسة وتتدلى لحيته فوق ذقنه، ولكنه هو الذي يبحث عـن الحقيقة والمعرفة بلا كلال أو ملال.

ومن يقرأ قصة إزيس وأوزوريس يـر أن إزيـس كانت تقوم دائما بالفعل والعمل والخلق، بل إنها كانت تعيـد خلق وبناء ما قد يهدمه الرجال من أمثال ((توفـون)). إن ((توفون)) كان يرمز إلى كل ما هو غير نافع وغير عاقل وغير مرتب.

وكل ما هو مرتب ونافع من عمل إزيس، هذا العمل الذي كان يأخذ شكل ((أوزوريس)) فأوزوريس لم يكن إلا الصورة أو الشكل الذي يتجسد به عمل إزيس.

وقد انتصرت إزيس بعقلها ومعرفتها علـى الداهيـة توفون الذي مزق جسد أوزوريس إربا إربا، وأكـل سـمك النيل عضوه الذكري، لكن إزيس استطاعت أن تجمع أعضاء

---

(١) الزونة هو معبد الأوثان الذي يزين. الإفصاح في فقه اللغة ص ٦٩٧ .

أوزوريس وتعيد خلقه، بل وتعيد خلق عضوه الذكري وتضع له عضوا ذكريا آخر مكان العضو المفقود.

وتدل أسطورة ((إزيس)) بوضوح على أن المـرأة القديمة كانت هي الخالقة والفاعلة أما الرجل فقد كان المفعول به أو الذي ينتج عن فعل المرأة وحركتها السريعة. إن كلمة ((إزيس)) تعني لغويا تعنـي العقـل والمعرفـة والحركـة السريعة، أما أوزوريس فلا يعني إلا ((التقى)) أو الشـيء المقدس. فقد خلقت إزيس أوزوريس، وهو لم يكن إلا إحدى نتائجها، لأنها أنتجت أيضا ((هورس)) ابنهـا أوجدتـه أو ولدته، بل إن ((إزيس)) هي في منحت الحركة والمعرفـة ((لزيوس)) الإله الأكبر الذي قال الرجال عنه إنه هو الذي ولد ((إزيس)) و ((أثينا)) من رأسه.

ويقول يودكسوس إن قـدماء المصـريين صـوروا ((زيوس)) على أنه كان عاجزا عن السير والحركـة، لأن ساقيه كانتا ملصقتين، وقد ظل في عزلة شديدة بسبب عجزه عن الحركة بسبب خزيه أيضا من شكل ساقيه الملتصـقتين،

لكن ((إزيس)) هي التي شقت ساقيه، وبفضل إزيس أصـبح في إمكانه السير والحركة [1].

والمعنى الواضح في هذه الأسطورة أن إزيس هـي التي منحت الحياة والحركة والمعرفة لزيـوس وأوزوريـس وهورس.

لكن الرجال الذين فسروا هذه الأسطورة لم يـدركوا هذه الحقيقة، أو أنهم أدركوها ثم حوروها وغيروها بحيـث يصبح الإله الرجل هو الأصل وهو الخالق، وتصبح المـرأة أحد مخلوقاته، فهو يلدها من رأسه كما روي عن زيوس، أو هو يلدها من ضلعه كما روي عن آدم.

ولا تختلف أسطورة آدم وحواء كثير عن أسـطورة إزيس وزيوس، اللهم إلا أن أسطورة آدم وحواء جاءت فـي الكتب السماوية المقدسة فاكتسبت بذلك قدسية تبعد الكثيـرين عن مناقشتها مناقشة عقلية موضوعية.

وقد سلبت حواء قدرتها علـى المعرفـة والحركـة والخلق رغم أن من يعيد قراءة الأسطورة في أصـلها الأول

---

(١) إزيس وأزوريس، ترجمها عن اليونانية حسن صبحي البكري، الألف كتاب ٢٣٥، دار القلم، القاهرة، ص٩٣.

في التوراة يرى بوضوح كيف كانت حـواء هـي صـاحبة المعرفة والعقل والذكاء وأن آدم لم يكن إلا إحـدى وسـائلها لتحقيق هذه المعرفة وتجسيد هذا الخلق.

وتقول الأسطورة كما جاءت في التوراة إن آدم أطاع حواء وأكل من شجرة المعرفة التـي أكلـت منهـا حـواء، فاكتسب المعرفة التي سبق أن اكتسبتها حواء، لكـن الـرب خشي أن تزيد معرفة حواء وآدم فتمتد يدهما بعـد شـجرة المعرفة إلى شجرة الحياة فيعيشان إلى الأبد مثـل الآلهـة، وخشي الرب أن تنافسه حواء وآدم في الألوهية فطردهما من الجنة إلى الأرض حيث يعيشان ثم يموتان كالبشـر ولـيس كالآلهة.

((قال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ مـن شـجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد، فطـرد الإنسـان وأقـام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف تنقلب لحراسة طريق شجرة الحياة)) [1].

---

(١) التوراة ، التكوين ، الإصحاح الثالث، الآية ٢٢ – ٢٤.

رغم وضوح ور المرأة القديمة أو الآلهة القديمة من حيث المعرفة والعقل والخلق فإن هـذه الأسـاطير فسـرت تفسيرا عكسيا، وأصبح الرجل هو الآلهة، وهو الخالق وهـو الذي ولد المرأة وليست هي التي ولدته.

واستولى الرجل الذكر على العرش والقوة والأصالة وألصق بالمرأة تهمة الضعف والسلبية والتبعية.

في حين أن المرأة لم تكن تابعة للرجل، بـل إن آدم هو الذي كان تابعا لحواء، وكانت إزيس أكثر قوة من أكثـر الرجال قوة وطغيانـا وهـو ((توفـون)) فقـد انتصـر ((توفون)) الداهية السياسي الشرير على أخيه أوزوريـس الطيب الخير المسالم، لكن ((إزيس)) هي التي انتصـرت على ((توفون)) وحاربته بنفس سلاحه وذلك بأن اشـترت الشيطان وأغرته بمالها.

كانت المرأة أعرق من الرجل معرفة وقدرة، كانـت المرأة أقوى بعقلها وذكائها من الشيطان وكانت تنتصر دائما بمعرفتها وحكمتها على الشياطين والآلهة معا فقد انتصـرت حواء على الإله وجعلت آدم يطيعها هي ولا يطيع الإله.

أما الرجل فقد كان دائما يسير وراء المرأة، مسترشدا بعقلها وذكائها وحكمتها، وقد يكون نصيبه الحركة والحيـاة والمعرفة كما حدث لزيوس وأوزوريس وآدم، وقـد يكـون نصيبه الهلاك كما حدث لتوفون وغيره من الشياطين.

لكن الرجل لم يكن أبدا موضوعيا في تفسيره لهـذه الأساطير القديمة التي تدلنا على المكانة العالية التـي كانـت تحتلها المرأة في عهود ما قبل التاريخ ومـا قبـل الأديـان السماوية.

وهناك من يقولون إن الرجل استطاع في فترة ما قبل التاريخ أن يحارب المرأة ويقهرها بقوة السلاح، ويسلب منها منصبها الإلهي، ويسلب أيضا عقلها وقدرتها علـى الخلـق وينسبها لنفسه.

وفي أسطورة إزيس يروى أن ابنها ((هـورس)) بتر رأسها وأطاح بالتاج الملكي أو الألوهي من فوق رأسـها لأنها أطلقت سراح ((توفون)) وعفت عنه حينما جاء إليها مقيدا بالسلاسل والأغلال.

وقد بترت التوراة أيضا رأس المرأة، وجعلتها جسدا بغير رأس، وزوجها هو رأسها، وتبع ذلك تلك الأقوال التـي

تشيد بأن المرأة بغير عقل أو ناقصة العقل في حـين إنهـا كانت في الأصل هي صاحبة العقل والمعرفة، والرجـل لـم يكن إلا تابعا ومطيعا لما تقوله.

ولكن كم تغير التاريخ، وكم استطاع الرجل أن يفسر تلك الأساطير بحيث تتفق مع مصالحه الأبوية الطبقية بنشوء الأسرة الأبوية ومجتمع العبيد.

ولم يستطع أحد أن يرد على سؤالي: لمـاذا اختفـت الآلهة الأنثى من تاريخ الإنسان، ولم يعد إلا الإله الذكر فـي الأديان السماوية الحديثة؟.

وقد ظللت لسنين طويلة في طفولتي وصباي أفكر في حقيقة الله، وكنت أسمع من بعض من حولي أن التفكير فـي حقيقة الله أمر مكروه، أو على الأقـل غيـر مسـتحب، ولا يشجعه أحد لكني كنت لا أزال أذكر عبارة ((بلوتارخوس)) (Plutarchos) أن من حق الإنسان أن يطلـب المعرفـة، وأول هذه المعرفة هي معرفة حقيقة الآلهة. وكنت أقرأ دائما أن ما من شيء يمتلكه الإنسان أقدس مـن المقـدرة علـى التفكير. وحينما كانوا يتهمونني بأنني أنتهك المقدسات حـين أفكر في حقيقة الله أقول لهم إنه ما من شيء يمتلكه الإنسان.

أقدس من المقدرة على التفكير والمعرفة، وأول هذه المعرفة هي معرفة حقيقة الآلهة.

وقد قرأت في الأساطير المصرية واليونانية القديمـة أن القدماء قالوا إن التمساح [1] صورة الله، لأنـه الحيـوان الوحيد الذي لا لسان له، ولأن العقـل الإلهـي (أو الكلمـة الإلهية) لا تحتاج إلى صوت، وقالوا أيضا إن زيوس كـان ((أطرش)) أي بغير أذنين، إذ لا يليق بسـلطان الأشـياء وربها جميعا أن ينصت لأحد.

وقالوا أيضا إن ساقيه كانتا ملتصقتين وكان عـاجزا عن السير ويزحف كالتمساح وأن ((إزيس)) هي التي شقت ساقيه.

ومن هذه القراءات كنت أجد أن كثيرا من الرجـال يعطون أنفسهم الحق في التفكير فـي حقيقـة الله، فلمـاذا لا أعطي نفسي هذا الحق؟ ألست إنسانًا؟ أليس أقدس ما يمتلكـه الإنسان هو القدرة على التفكير؟

---

(1) plotaschos ( ) ، بلوتـارخوس، إزيـس وأوزوريـس ترجمها عن اليونانية حسن صبحي البكري، الألـف كتـاب ١٣٥، دار القلم ، القاهرة ، ص ١٠٨.

المرأة قبل أن يلدها آدم

ما زلت أذكر ذلك الحوار القديم الذي حـدث بينـي وبين أبي عن حقيقة الله، ولماذا عاقبني مدرس الـدين لمـا اعترضت عليه حين قال لي إن الله ذكر وليس أنثـى، ومـا زلت أذكر محاولاتي اليائسة لأعرف لماذا نسب الإثم والشر إلى حواء مع أنها هي التي كانت صاحبة المعرفة وهي التي قادت آدم إلى شجرة المعرفة، ولولا معرفة حواء مـا جئنـا نحن وما جاءت البشرية كلها.

ولا شك أن قصة آدم وحواء بكل ما فيها من رموز قابلة للتفسيرات المختلفة تصور مرحلة من مراحل التطـور الإنساني في اكتساب المعرفة التي حصـل عليهـا الإنسـان بالتدريج، وارتباط هذه المعرفة بالجنس والمرأة. وقـد كـان الأجدر بالمفكرين والفلاسفة الرجال لو كانوا متحررين مـن النظرة الأبوية الذكرية المتسلطة، وأن يدركوا أن اكتساب آدم لمعرفة الخير والشر بأكله من الشجرة لم يكن ((سـقوطا)) وإنما كان ارتفاعا بالعقل وبالمعرفة عن مصاف الحيوانـات، وإن حواء لم تكن سبب ((السقوط)) وإنمـا كانـت سـبب

((الارتفاع)) وإن ((الجنس)) لم يكن سبب ((المـوت))
ولكنه كان سبب ((الحياة)) واستمرار البشرية، ومن هنـا
يمكن أن تتغير النظرة إلى كل من المرأة والجنس، فترتفـع
مكانة المرأة ويتخلص الجنس من فكـرة التـأثيم والخطيئـة
والذنب الذي ألصق به.

إلا أن الرجال أنكروا التاريخ، وطمسوا كثيـرا مـن
الحقائق عن المرأة، وفرضوا على النسـاء وضـعا أدنـى،
وجعلوا هذا الفرض مقدسا، ودينا لا يناقشه أحـد، وقانونـا
يعاقب بالقتل أو بالحبس كـل مـن حـاول التفكيـر فيـه
بموضوعية. وبرغم أن العلم موضوعي وحيادي إذا قـورن
بالدين، إلا أن كثيرا من الرجال حتى اليوم ينكـرون العلـم،
ويصلون بين العلم والدين. وتجد الرجل منهم يؤمن بنظريـة
التطور الدارونية التي تقول بأن الإنسان ولد من إحدى إناث
القرود، وتجده في الوقت نفسه يؤمن بأن آدم هو الذي ولـد
حواء من ضلعه.

وما زال كثير من الناس وبالـذات فـي مجتمعاتنـا
العربية يتصورون أن حواء هي أول امرأة ظهـرت فـوق
سطح الأرض، وينسى هؤلاء أن المرأة ظهرت فوق الأرض

قبل ظهور الأديان السماوية الثلاثة بنحو مليـون سـنة، وإن حواء لم تظهر أول ما ظهرت إلا منذ أربعة آلاف سنة تقريبا وقد ظهرت بظهور التوراة فحسب.

ولكن كم ينسى هؤلاء التاريخ، أو علـى الأقـل لا يحاولون قراءته والبحث عن ماضيهم وحقيقتهم الأصلية.

إن تاريخ الإنسان الأول الذي تطور عبـر ملايـين السنين من فصيلة معينة من القرود يحتوي على حقائق هامة تكشف عن أن الإنسان الذكر والأنثى كليهما صارع الطبيعة والبيئة المتقلبة ليعيش ويستمر، وإن الأنثى صارعت بمثل ما صارع الذكر من أجل البقاء، وأن كليهما صارعا معا جنبـا إلى جنب ضد كوارث الطبيعة وضد وحشية أسـود الغابـة ونمورها، ولم يكن لديهما من سلاح أمام كـل تلـك القـوى الأقوى منها إلا أن يتطور عقلهما وذكاؤهما بحيث ينتصران بالعقل والذكاء على أقوى وحوش الغابة جسدا وعلى أعظـم كوارث الطبيعة فتكا.

بعد أن تخلص الرجل والمرأة البدائيان من الخطـر المحدق بوجودهما فوق الأرض، وبعد أن تطور عقلهما أكثر وأكثر لسد حاجتهما المتزايدة إلى الطعام والنسـل والأمـن،

استقرت بهما الأمور أكثر فأكثر، واستمر تعاونهما معا مـن أجل الحفاظ على حياتهما واستمرار النوع أي البشرية.

وكان تعاونهما متساويا بل إن المرأة حظيت بمكانـة أكثر لأن مساهمتها في استمرار البشرية كان أكبر لأنها هي التي كانت تلد الأطفال، لم يكن الرجل البـدائي يفهـم بعـد أسرار الحمل والولادة. وتصور أن قدرة المرأة على الولادة إنما هي قدرة على خلق الحياة، وأصبحت المرأة في نظـره هي خالقة الحياة فعبدها على إنها آلهة الحياة ومجد جسـمها وأعضاءها الجنسية.

لقد ظهر الإنسان فوق سطح الأرض قبـل ظهـور الأديان السماوية بملايين السنين، هذه الأديان التي لم تظهـر إلا منذ أربعة آلاف سنة على الأكثر، والتي لا يمثل عمرهـا بالنسبة لعمر الإنسان شيئا يذكر، وقد عثـر علـى جمـاجم بشرية عمرها أكثر من ٢٠ مليون سنة وهناك من العلمـاء من يقول إنه هناك ما يثبت أن عمر البشرية قد يصـل إلـى ١٢٠ مليون سنة.

وتقول المصادر التاريخية إن أقدم التماثيل صـورت المرأة البدائية أكثر مما صورت الرجل، وهناك رسوم عثـر

عليها في كهف ((لاسيل)) في فرنسا تصور المرأة الراقدة في كبرياء وعظمة كالآلهة والرجل راكع رافع يديه نحوهـا، وفي بعض الكهوف بأسبانيا cogul عثر على نقوش لنسـاء كاملات أما الذكر فقد رسم على شكل عضو التناسل، وعثـر على مثل هذه النقوش في بقاع مختلفة من العالم في الصـين وفي الهند.

وكلنا يعرف عن حضارتنا المصرية القديمة منذ أكثر من خمسة آلاف سنة وقبل ظهور الأديـان المسـاوية هـذه الحضارة التي عرفت من آثار قدماء المصريين الموجـودة حتى اليوم ومن كتاباتهم على ورق البردي ومـن تمـاثيلهم ونقوشهم الباقية حتى اليوم.

وكان اخناتون المصري (١٣٧٢ ق. م) هـو أول من بدأ شريعة توحيدية، واتخذ معبودا واحدا هو الإله ((رع حاراختي)) الذي تألق في الأفق بمظهره ((شو)) النـور، ويكمن في قرص الشمس [١]. وقد تأثر موسى نبـي اليهـود بأفكار اخناتون ونقل عنه الكثير مما هو ثابت من تشابه فـي

([١]) مصر الفرعونية، جان يويوت، ترجمة سعد زهـران ، الألف كتاب (وزارة التعليم العالي. بالقاهرة) ١٩٦٦، ص ١٢٩.

كتابات اخناتون وبعض الآيات التـي وردت فـي التـوراة (العهد القديم). وقد نقلت المسيحية عن اليهودية، كما نقـل الإسلام عنهما معا بحكم تطور المجتمع.

والآلهة عند قدماء المصريين لم تكن ذكـورا فقـط ولكنها كانت آلهة من الإناث ومن الذكور، وعرفت مصر في تلك الفترات عهودا حظيت فيها المرأة المصرية بمكانة عالية في الدنيا والدين وعلى حد سواء.

وليس المجال هنا للإفاضة في تاريخ المرأة القديمـة أو آلة الأنثى، إذ إن التركيز مطلوب على المرأة في حياتهـا الحاضرة في ظل الدين الإسلامي وفي المجتمع العربـي إلا أنه لا يمكن أن نتعرض للحاضر دون أن نلقي بعض الضوء على الماضي.

ولا يمكن أن نعرف الأسباب الحقيقية لتدني مكانـة المرأة في الأديان السماوية دون أن نعـرف وضـعها فـي المجتمع قبل هذه الأديان.

ومن الخطأ أن نتعرض للمرأة في الدين الإسـلامي بمعزل عن الأديـان الأخـرى السـماوية وهـي اليهوديـة والمسيحية، إذ إن الإسلام أخذ عنهما وتأثر بهما إلـى حـد

كبير، كما أننا لا يمكن أن نتعـرض للمـرأة فـي الأديـان السماوية بمعزل عن الأديان غير السماوية السابقة هنا، حيث إن المجتمع البشري كائن متصل الحلقات والمراحل، وكـل مرحلة تؤثر في المرحلة التي بعدها،ولا يمكن لنا أن نعـرف مثلا الأسباب التي جعلت القيم الدينية والأخلاقية المفروضـة على المرأة تختلف عن القيم الدينية والأخلاقيـة المفروضـة على الرجل في مرحلـة تاريخيـة معينـة، إلا إذا عرفنـا الظروف الاجتماعية والاقتصادية في هـذه المرحلـة وفـي المراحل السابقة لها، ولماذا تعامل الدين مع المرأة على نحو مختلف عن الرجال.

وكلمة ((الدين)) تعني الجزاء والطاعـة والقهـر والغلبة، والديان القهار والقاضي والحاكم والجازي الـذي لا يضيع عملا بل يجزى بالخير وبالشر، ويشتق مـن الأصـل الثلاثي نفسه كلمة الدين أي religion في اللغات الأوروبية مأخوذة من اللاتينية religio وهذه من ligare وتعني الربط والقيد، وقد اشتقت منها أيضا كلمة obligation أي الالتزام والدين، وخلاصة القول إن اصطلاح الدين religion سواء في اللغة العربية أو في الأوروبية يعني من الناحية اللغويـة

القيد والقهر وإحساس المرء بوجود قـوة غالبـة مسـيطرة عليه[1].

وقد نشأت فكرة الدين عند الإنسان قبـل أن تعـرف الأديان السماوية، خلق الإنسان البدائي فكرة وجود آلهـة، أو قوى غامضة فوق طاقة البشر تؤثر في حياة الإنسان، وتيسر له الخير أو المطر أو الـزرع، أو تسـبب لـه العواصـف والمرض والموت. وتدل المصادر التاريخية على أن الآلهـة القديمة كانت أنثى، وفي تاريخ مصر الفرعونية القديمة مـا يدل على وجود آلهة من الإناث ومن الذكور. ومن الإلهـات المصريات القديمـة ((ماعـت)) كانـت ربـة الحقيقـة، ((ونايــت)) ((إلهــة الحــرب وإلهــة الفيضــان))، ((وإيزيس)) و ((سخمت)) و ((حتحور)) وغيرهن.

وكان ارتفاع مكانة المرأة إلى حد حصـولها علـى منصب الألوهية مرتبطا بارتفاع مكانتها في المجتمـع قبـل نشوء الأسرة الأبوية والملكية الخاصة ونشوء الطبقات.

---

(١) ثروت الأسيوطي، نظام الأسرة بين الاقتصاد والـدين ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٦،ص ١٨.

قبل بدء انتساب الطفل إلى الأب كان الأطفال ينسبون إلى أمهم لأنها هي التي تلـدهم، وعـرف ذلـك المجتمـع بالمجتمع الأمومي [(١)].

وعرفت الحضارة المصـرية القديمـة انتسـاب الابـن الشرعي لأمه، وكان نظام التوريث في بعض العهود يأتي عـن طريق الإناث [(٢)] فلم يكن الابن الذي يرث وإنما كبرى البنـات. وقد ورد عند المؤرخ الإغريقي ((هيرودوت)) أن شعب الليفيين كانوا ينسبون الولد لأمه،وجاء عن المؤرخ الروماني ((تاسيت)) أن قبائل الجرمان كانوا يعطون الأهمية للأخت، وكانـت بعـض القبائل عند عرب الجاهلية قبل الإسلام ينسبون الطفـل لأمـه [(٣)] وهناك بعض القبائل حتى اليوم في آسيا وإفريقيا ممـن ينسـبون الأطفال إلى أمهاتهم.

---

(١) انظر فـي شـرح النظـام الأمـوي أعمـال بكـوفين (١٨٦١)، موري ودافي (١٩٢٣)، إدوارد ويسـترمارك (١٩٢٥) فرديك انجلز، ومورجان وبريفولت.

(٢) انظر وليم نظير، المرأة في تاريخ مصـر القـديم، دار القلم، ١٩٦٥، ص ٤٣.

(٣) جواد على، تاريخ العرب قبل الإسـلام، ج ٥، القسـم الديني مطبوعات المجمع العلمـي العراقـي ١٩٥٥، ص ٢٥٨ ومـا بعدها.

ومن المعروف في تاريخ البشرية إن مكانة المـرأة العالية في المجتمع والدين كانت مرتبطة بنسب أطفالها إليها. وقد حظيت المرأة في المجتمعات الأموية بمكانة اجتماعيـة عالية، وكذلك حظيت بمنصب الألوهية أيضا ولم يحتكر هذا المنصب الآلهة الذكور كما حدث بعد نشوء النظام الأبـوي وانتساب الأطفال إلى الأب بدلا من الأم.

وفي المجتمع الأموي كانت النساء مـن الإلهـات، وكان الملوك الرجال يقدمون قربانـا للآلهـة، وقـد اثبـت ((فريزر)) إن الملك (من نيجيريا) كان مجرد مخصـب للملكة، إذ لا بد للملكة من الحمل حتى تعطي الأرض ثمارها وبعد أن ينهي الرجال (الذين اعتبروا ممثلين للإلـه القمـر على وجه الأرض) مهمتهم التناسلية تقوم النسـاء بقـتلهم. وكان ((الحيثيون)) ينثرون دم الملك المقتول فـوق أرض الحقول، أما جسده فتأكله الجنيات اللاتي هن وصيفات الملكة بع أن يرتدين أقنعة من رؤوس الكلاب أو الخنـازير. ومـع التحول من المجتمع الأموي إلى المجتمع الأبوي سلب الملك سلطة الملكة، وأصبح يرتدي ملابس نسائية ويضـع أثـداء

صناعية ليأخذ دور الملكة، وأصبح هناك نائب للملك يقتـل بدلا منه، ثم استبدلت الحيوانات بنائب الملك [1].

وتعد النظم القانونية المتعلقة بالمنسب أو الأسـرة مـرآة تعكس الأوضاع الاقتصادية في أي مجمع، وقد اعتمدت الحيـاة الاقتصادية في العهود الأولى للبشرية على قطف الثمار وقطـع البذور وعلى التقاط السحالي والجرذان وصيد بعض الحيوانـات. وكانت هذه الحياة الاقتصادية تضطر الرجال والنساء إلى الترحال المستمر بحثا عن القوت والصيد، ولم يكن في وسع أحد أن يملك شيئًا أو يحفظ شيئا مع هذا التنقل المسـتمر، وبغيـاب الملكيـة الخاصة لم ينقسم المجمع إلى حكام ومحكومين بل كـان الجميـع رجالا ونساء سواسية أعضاء الجماعة، كذلك لم يعرف شيئًا عن مبدأ تقسيم العمل بين الرجال أو النساء أو بين فرد وفـرد، فهـو مجتمع بلا طبقات وبلا سادة وعبيد [2].

([1]) انظر: ارنست فينشر، الاشـتراكية والفـن، دار القلـم بيروت – لبنان. (ترجمة أسعد حليم) ١٩٧٣، ص ٦١.

([2]) اقرأ عن جماعات البوشمن والجماعـات الاسـترالية ، فريزر، شابيرا، سبنسر وجيلين، توماس دايموند. لبنورنـو (الملكيـة نشأتها وتطورها لندن ١٨٩٢).

وبدراسة حياة جماعات البوشمن اتضـح أن المـرأة كانت تشترك مع الرجل في التقاط الطعام. وكانت حرة فـي علاقتها الزوجية به، والمرأة التي ترغب في علاقة جديـدة تستطيع أن تهجر رجلها الأول وتتزوج بالرجل الثاني. وفي الجماعات الاسترالية أيضا تساوت المرأة والرجل من الناحية الاقتصادية فكلاهما يعمل من أجل الرزق، لذلك تتبع بعـض القبائل النظام الأمومي فينسب الولد إلى أمه ويلتحق بـبطن الأم [1].

وفي قبيلة Dieri أدى التساوي بين الرجل والمـرأة اقتصاديا إلى التساوي جنسيا وأخلاقيا فقد كان من حق الرجل أن يتخذ لنفسه زوجة رئيسة و زوجات احتياطيات، وكان من حق المرأة أيضا أن تتخذ لنفسها زوجا رئيسا و عـددا مـن الأزواج الاحتياطيين (سميت هذه الحالة pirrauru) [2].

---

(1) مثل قبيلة الديري Dien انظر نورنكـوت وتومـاس . تنظيمات القرابة والزواج الجماعي في استراليا.

(2) راجع الأعمال لينورنو. وجـورس، وروبـرس لـوي (المدخل إلى الإنثروبولوجيا الحضارية نيويورك ١٩٤٧).

ويرجح ((ليتورنو)) أن تكون المرأة هي مكتشـفة الزراعة البدائية لخبرتها الطويلة في التقاط الثمار والجـذور في فترات الالتقاط ومجتمع الصيد. وقد تولت المرأة الزراعة أول الأمر ونشأ عن ذلك ارتفاع مكانتها الاقتصـادية ومـا ارتبط بها من ارتفاع مكانتها الاجتماعية، ونسـب أطفالهـا إليها، ولهذا ساد النظام الأمومي في أولـى فتـرات نشـوء الزراعة.

وفي هذا المجتمع الزراعي البدائي شعر ت المـرأة بأهميتها العظيمة في الاقتصاد الاجتماعي واحتلـت مكانتهـا بالتساوي مع الرجل في التنظيمات السياسية، وكانـت لهـا الصدارة في نظام الزواج والأسرة. لبطون أمومية، وينحـدر النسب عن طريق الأم ويتبع فما بينها نظـام الـزواج مـن الخارج Exogamy ونظرا لصدارة المـرأة مـن الناحيـة الاقتصادية فإن الرجل ينتقل إلى بيت زوجته ويعمـل فـي حقلها فهو عنصر جديد يضم إلى القوى العاملة فـي الـبطن وكانت الحاجة إلى الأيدي العاملة تفسر أيضا ظهور التبنـي بين تلك القبائل فلكل بطن أن تتبنى من تشـاء مـن أسـرى

الحرب، تدمجه فيها ليعمل في حقلهـا [1] وتظهـر الأهميـة الاقتصادية للمرأة في قدرتها على الانفصال عـن زوجهـا برغبتها المنفردة، ويخرج الرجل من بيت زوجته ويعود إلى ذويه، على حين يبقى الأولاد مع أمهم، وكانت المرأة تتساوى والرجل في قيادة التنظيمات السياسية وإمامة الشعائر الدينية، ولم تكن الشعائر الدينية تفرق بين الرجل والمـرأة فـي أي شيء [2].

إلا أنه بعد أن استقر الإنسان بسبب الزراعـة فـي الأرض، بدأ يشعر بحقه في البقاء فيها هو وأولاده من بعده، ونشأت مع الزمن فكرة الملكية الخاصة للأرض وحلت محل الملكية الجماعية للبطن [3] وتولد عن الملكية الفردية أن نزع الرجل النسب من الأم ليورث أولاده فقط، وانقسم المجتمـع إلى طبقات اجتماعية تبعا لمقدار الثروة التي يمتلكها الفرد.

([1]) راجع لويس مرجان ، فريزر، وجروس وغيرهم.

([2]) انظر ثروت الأسيوطي، نظام الأسـرة بـين الاقتصـاد والدين، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٦٦، ص ١١٠.

([3]) ليتورنــو، الملكيــة ص ٤٩، ٣٦٦، ٣٦٧ ، ثــروت الأسيوطي ، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، دار النهضـة العربيـة بالقاهرة ١٩٦٦، ص ١١٢.

وهناك نظريات متعددة عن الأسباب التـي جعلـت الرجل هو الذي يسيطر على المرأة وليس العكس، إحدى هذه النظريات تعتمد على أن المرأة البدائيـة انشـغلت بـولادة الأطفال في تلك الفترات التي تطلبت زيادة كبيرة في النسـل والتناسل لتعويض الوفيات العالية ولتوفير مزيد من الأيـدي العاملة في الزراعة الناشئة.

وبازدياد الملكية الفردية وصل التمييز الطبقي إلـى مجتمع السادة والعبيد [1]، وقد صاحب هذا انحدار في قيمـة المرأة في المجتمع والأسرة، وسيطر الرجل عليها سـيطرة اقتصادية واجتماعية ودينية، وفقدت المرأة مكانتها القديمة في الدين وفي إمامة الشعائر الدينية، واحتكر الرجل الدين لنفسه فقط، وأصبحت الآلهة ذكورا فقط، وانخفضت مكانة المـرأة في الأديان وأصـبح الأب رأس الأسـرة pater Familias وزعيمها الديني المشرف على الطقوس الدينية فيها، ورسخت مع الأسرة الأبوية ((عبادة الأسلاف)) تدعيما لمركز الأب

---

(١) فردريك انجلز أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة.

[1]، فارتفع الأب بعد وفاته إلى مصاف الآلهة بينما هبطـت المرأة إلى مستوى الماشية، يملك الرجل عليها حـق الحيـاة والموت، وهي وأطفاله في مستوى عبيده وأملاكه وأرضه.

جزر أمومية في محيط أبوي

وبدراسة تاريخ بعض القبائل الإفريقيـة يتضـح أن الانتقال من النظام الأمومي إلى الأبوي قد حـدث تـدريجيا ومر بمراحل غير منتظمة مثلما حدث فـي تـاريخ مصـر القديم، ولا تزال قبيلة ((الاشانتي)) على ساحل العاج مـن أوضح الأمثلة على مجتمعات سيادة الأم في مرحلة الانتقال، إذ تنقسم القبيلة إلى بطون توتمية تتبع نظـام الـزواج مـن الخارج وينحدر النسب عن طريق الأم، وتتمتع المرأة بمكانة بارزة. والنفوذ الأكبر في القبيلة بيد امرأة هـي ((الملكـة الوالدة)) لكن هذا المجتمع يتحول تدريجيا من مجتمع سيادة المرأة إلى مجتمع سيادة الرجل، ويرتبط ذلك بامتلاك الرجل

---

(١) جروسي، وعلى بدوي أبحاث في تاريخ الشرائع، مجلـة القانون والاقتصاد ١٩٣١، ص ٧٣١، ٧٤٦ ثروت الأسيوطي، نظـام الأسرة في الدين والاقتصاد ص ١١٥.

الأرض واكتسابه السلطة على أولاده وتغير في نظام الزواج والنسب بحيث تصبح السيادة للرجل [١].

وهناك قبائل في إفريقيا تقف على الحدود الفاصـلة بين النظامين الأمومي والأبوي، منها قبيلة الياكو yako في جنوب شرق نيجيريا، والثانية قبيلة النيارو nyaro في جبال النوبة بمديرية الكردفان، في هاتين القبيلتين تعمل المرأة مع الرجل جنبا إلى جنب في الحقل وتشارك في إنتاج الطعـام، لذلك ينسب الطفل إلى بطن الأم وبطن الأب معا [٢].

غير أن الرجل بدأ ينتـزع مـن المـرأة سـيادتها، وأجبرها على السكن في بيته بعد الزواج، واسـتأثر بملكيـة الإنتاج وهي الأرض وفرض انتقالها من بعده إلى أولاده، كل ذلك بينما يرث أولاد الأخت المنقولات مثل الماشية كما هـو الشأن في البطون الأمومية ((إن هاتين القبيلتين تقفان مثـل

([١]) ر. س. راتري، الأشانتي، أكسـفورد ١٩٢٣، ارنسـت جروس، أشكال الأسرة وأشكال الاقتصـاد ١٨٩٦، جـيمس جـورج فريزر، التوتمية والزواج من الخارج لندن ١٩١٠، ر. س. راتـري، قانون الاشانتي ودستورهم، لندن ١٩٥٦.

([٢]) ثروت الأسيوطي، نظام الأسرة بين الاقتصاد والـدين، القاهرة ١٩٦٦ ص ١١٦.

الصخرة العالية في نهر الزمان، تكسرت خلفها أمواج سيادة المرأة، وبدأ منها تيار حكمها الرجل [1].

وفي جنوب الهند لا تزال هناك بعض المناطق التي تتبع النظام الأمومي، كما في ولاية ((كيرالا)) حيث ترتفع مكانة المرأة وتنسب الأطفال إليها. كما أن هناك قبائل يمكن أن تمثل مرحلة الانتقال من النظام الأمـومي إلـى النظـام الأبوي، وفيها يتضح كيف يستولى الرجل على مكية الإنتاج وكيف يستولى على الدين ويحتكر لنفسه الآلهـة والطقـوس الدينية، وبعد أن كانت المرأة تشارك في إقامة أمامه الشعائر الدينية إذا بها تحاط بالمخدرات والمحرمات، وتمنع لا مـن إمامة الشعائر الدينية فقط وإنما تمنع حتى من دخول المعابد.

وبدراسة الحياة في بعض هذه القبائـل وجـدت أن الأطفال ينسبون إلى الأم لأن الأم تتزوج بأكثر من رجـل،

---

(1) ثروت الأسيوطي، نظام الأسرة بين الاقتصاد والـدين، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٦، ص ١١٦، ١١٧. راجع المراجع الأخرى في الهوامش عن هاتين القبيلتين (داريـل فـورد، الانحـدار المزدوج لدي قبيلة باكو، س. ف نادل ، الانحدار المزدوج في تـلال النوبة).

وإن الأب مجهول في حالات كثيرة. وبالرغم من أن الأم هي عائل الأسرة وهي التي تعمل وتنفق على الأزواج والأطفال إلا أن زعماء القبيلة قد وضعوا تقاليد وقوانين معينـة قـالوا عنها إنها جاءت من الإله شيئا وتنص على أن الرجـل هـو الحاكم وهو الذي يصدر القرارات ويـوزع الـرزق علـى الناس. وباسم هذه القوانين استولى الرجال على الأجور التي تكسبها النساء ونصب الرجل نفسه حاكمـا علـى الأسـرة، وأصبحت النساء مجرد عاملات يعملن تحت سيطرة الرجال وبدأ بعض الرجال بهذه السـلطة ينسـبون الأطفـال إلـيهم ويفرضون على المرأة زوجا واحدا حتـى تصـبح الأبـوة معروفة.

وتعتبر هذه القبائل مرحلة متوسطة (بين بعض بقايا المجتمع الأمومي في ((كيرالا)) جنوب الهند وبين المجتمع الأبوي السائد في الولايات شمال الهنـد) وتمثـل مرحلـة الانتقال من المجتمع القديم الذي سـادت فيـه المـرأة إلـى المجتمع الحديث الذي ساد فيه الرجل. وقد اتضح أن الرجل لم يستطع أن ينزع من المـرأة سـيادتها إلا عـن طريـق الاقتصاد والسيطرة على الملكية والإنتاج، وكذلك السـيطرة

على الدين عن طريق ادعاء قوانين إلهية جاءت من الآلهـة، وباحتكار الآلهة ومعابدهم للـذكور،وتحريم دخولهـا علـى النساء. وظهر أن الرجال لم يحتكـروا الاقتصـاد والآلهـة والمعابد إلا حينما شعروا بقوة المرأة في الحياة الدنيا. فالمرأة كانت تملك القدرة على خلق الحياة والولادة وهم لا يملكـون هذه القدرة. ويبدو أنا المرأة البدائية كانت أقوى من الرجـل في نواح أخرى غير الخلق والولادة. فقد لاحظت أن النسـاء الهنديات في هذه القبائل أشد وأكثر صلابة من الرجـال وإن يد المرأة غليظة مشققة قوية كيد الفلاح المصـري أمـا يـد الرجل فقد رأيتها ناعمة بضة.

المرأة المصرية القديمة

وفي التاريخ المصري القديم تبدو مرحلة الانتقال من المجتمع الأمومي إلـى المجتمـع الأبـوي واضـحة، لأن الحضارة المصرية القديمة هـي أولـى الحضـارات التـي عرفت، وعرف عنها المؤرخون الكثير، وقد اكتشف علمـاء التاريخ أن المرأة المصرية القديمة بعد أن كانت ترسم علـى الجدران بحجم زوجها تماما دليل التساوي في المكانة والقدر، أصبحت ترسم بحجم أصغر من زوجها ومعنى ذلـك أنهـا

أصبحت أقل قدرا من زوجها، وقد بدا ذلك الانخفـاض فـي مكانة المرأة مع بدء ملكية الأرض وعصر الأسرة السـابعة حتى الأسرة العاشرة (٢٤٢٠ إلى ٢١٤٠ ق. م) واسـتمر وضعها منخفضا في عصر الدولة الوسـطى فـي الأسـرة الحادية عشرة حتى الأسرة الثالثة عشرة وعصر الهكسوس، بسبب تفشي العبودية والظلم والإقطاع، ولم تسترد شيئًا مـن مكانتها الضائعة إلا في عصر الدولة الحديثـة (١٥٨٠ ق. م) بعد ثورة النساء والعبيد والشعب المصري القديم كله ضد المستعمرين والإقطاع [١]، واستردت المرأة المصرية القديمة كثيرا من مكانتها الأولى في تلك الفتـرة وعرفنـا الملكـات الشهيرات من الأسرة الثامنة عشرة كالملكة نفرتيتي، والملكة حتشبسوت ذات الشخصية القوية التي حكمت مصر اثنتـين وعشرين سنة (من ١٥٠٤ إلى ١٤٨٣ ق. م) وقد ظهرت تماثيلها على شكل أبي الهول لها رأس إنسان وجسـد أسـد رمزا لقوة العقل والجسد معا، وكان عصر حتشبسوت يتميز بالازدهار والتعمير، وأثبتت كفاءتها حاكمة وملكة لكنها بعـد

---

(١) وليم نظير، المرأة في تاريخ مصر القـديم، دار القلـم، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٨.

أن ماتت خلفها تحتمس الثالث وأمر بتدمير تماثيلها وتشـويه رسومها ونقوشها.

أما مكانة المرأة المصرية القديمة فقـد تجلـت فـي الدولة القديمة قبل الملكية والإقطاع، وكانت المرأة الفرعونية تعمل في المصانع بالغزل والنسيج وصنع السجاجيد وتعمـل بالتجارة في الأسواق وتشارك زوجها أعمال الصيد، وكانت الزوجة ترسم على المقبرة حتى الأسرتين الثالثـة والرابعـة (٢٧٨٠ ق. م) بحجم زوجها كدليل علـى المسـاواة فـي الشـرف والمكانـة والحقـوق والواجبـات. وفـي تمثـال ((باهجم)) (في معبد الكرنك) تتقـدم الزوجـة زوجهـا، وهناك نصب تذكاري خاص بالسيدة ((بيسيشت)) في عصر الدولة القديمة يبين أنها كانت مديرة للأطباء، وقد حوكم أحد الأزواج لأنه سب زوجته بالجلد مائة جلدة، وبحرمانـه مـن نصيبه من المال الذي كسبه بالاشتراك معها إذا عـاد إلـى سبها [1].

وكان للمرأة المصرية القديمة حظ كبير من الثقافـة. ويحكى عن موظف اسمه (خنوم ردي) كان أمينا لمكتبـة

---

(1) المصدر السابق ص ٢٠.

سيدة عظيمة تدعى (نفروكابيث) ويقول إن هذه السيدة قـد عينتني في دندرة مشرفا على خزائن الكتب الخاصة بأمـه، وكانت تحب العلوم والفنون [1].

ومارست المرأة المصرية القديمة الرياضة والسباحة والأعمال البهلوانية كالرجال سواء بسواء، وكانـت النسـاء كالرجال يشربن الخمور في الحفـلات بـل ويسـرفن فـي الشراب ويقرعن كؤوسهن مع الرجـال، وتقـول إحـداهن: ناولني ثمانية عشر قدحا من النبيذ إني أريد أن أشرب حتـى أنتشي، إن داخلي مثل القش.

ويعتقد بعض علمـاء الآثـار مثـل (ارمـان) و (موريه) و (برستد) أن الطفل كان ينسـب إلـى أمـه، ومارست المرأة كل الأعمال، كانت حامية وحاكمـة وملكـة وكاهنة وإلهة.

ولم تعرف المرأة المصرية القديمة الحجاب ولم يكن هناك فصل بين الجنسين، وكان الزوج والزوجة متسـاويين في كل شيء في الدولة القديمـة حتـى الأسـرتين الثالثـة

([1]) المصدر السابق ص ٦٨.

والرابعة. وعندما سيطر النظام الإقطاعي [1] على الحكم في عهد الأسرة الخامسة فرض الرجل نظامه الأبـوي ليـورث أبناءه، وبدأ مع النظام الأبوي تعدد الزوجات ثم نظام التسري (المحظيات) وظهر الأطفال غير الشـرعيين وانخفضـت مكانة المرأة.

وقد حدثت أول ثورة اشتراكية في التاريخ البشري ضـد الإقطاع سنة (٢٤٢٠ ق. م) في عهد الأسرة السـابعة، وهـي الثورة التي عرفت باسم ثورة ((منف)) ضد الإقطاع والملوك، وقد حرق المصريون والمصريات القصر الملكي نفسه، ونـادوا بتكافؤ الفرص، ونادوا باحتقار الملكية، لكن بعـض المـؤرخين صوروا الأزمة على إنها مجرد تغيير الأيـدي القابضـة علـى الثروات، وكتب بعضهم يقول: إن أولئك الـذين لـم يكـن فـي مقدورهم أن يأمروا بصنع صندل لأقدامهم قد استولوا على الكنوز [2].

---

(١) عادل أحمد سركيس، دار الكتـاب العرفـي، القـاهرة ١٩٦٧، ومصر الفرعونية تأليف جان يويوت، ترجمة سعد زهـران، الألف كتاب (بإشراف الإدارة العامة الثقافية بوزارة التعليم العـالي) ١٩٦٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٦.

وقد عاد الإقطاع مرة أخرى، وثار الشعب المصري مرة ثانية سـنة (٢١٦٠ ق. م) ضـد الإقطـاعيين مـن الفراعنة. وجاءت الأسرة العاشـرة ونظـام ((الـرودو)). وقضى على نظام التسري، واختفت ظاهرة الأطفـال غيـر الشرعيين لانتساب الأطفال إلى أمهاتهم ثم عاد الإقطاع فـي عهد الإقطاع الثاني عـام (١٠٩٤ ق. م) حـين اسـتولى ((حرحورز)) الكاهن الأعظم على السلطنة، وعـاد نظـام التسري، وأصبح للرجل وحده حق الطلاق وحق الكهنوتية.

وفي عهد الملك بوكخوريس من الأسرة المالكـة ٢٤ بعد القضاء على الإقطاع عام ٦٦٣ ق. م تحرر الأبناء مـن سلطنة الأب واستردت المرأة حقوقها وتحرر الـزواج مـن سلطنة الكهنة فلم يعد الزواج ذا قدسية دينية، وقد اتضح أنـه مع نظام الأبوي يصبح للأب سلطة دينية وكهنوتية، ويفرض على الزواج قوانين دينية، ومع النظام الأبوي أيضا وجد أنه لا بد من وجود نظام التسري (المحظيات) وتعدد الزوجات مع فرض القيود على المرأة دينيا واجتماعيا وجنسيا.

مولد الازدواجية الأخلاقية

كان المالك البدائي يحتاج للعبيد والأجراء كي يشتغلوا في أرضه التي يملكها والتي أصبحت تزداد بازدياد الملكيـة والجشع والإقطاع، وتطلبت الحياة الاقتصادية الجديدة التـي بنيت عليها قيم اجتماعية ودينية يستهدف الحفاظ عليها نسـلا كثير العدد لزراعة الأرض وإقامة الصـلوات علـى أرواح الموتى من الذكور. واقتضى ذك تعدد الزوجات الذي يـؤدي أيضا إلى زيادة ثروة الرجل حيث تقـوم المـرأة بالأعمـال اليدوية كافة في الحقل وفي البيت بلا أجر، فهي أجيـر بـلا أجر، يعمل مهضوم الحق ويرحب بوجود أجـراء آخـرين يشاركونه العمل ويخففون عنه الظلم والعبء.

وتعدد الزوجات يشبع رغبات الرجل الجنسية، وكان لا بد من تدعيم هذا الحق للرجال عن طريق الـدين ليخـدم بقدسية أغراض الرجل الاقتصادية والجنسية معا، على حين اقتضى النظام الأبوي ونسب الأطفال إلى الرجل أن يفـرض على المرأة زوجا واحدا. وكان لا بد من تدعيم ذلك الفرض على النساء عن طريق الدين أيضا ليخدم بقدسـية امـتلاك الرجل للمرأة اقتصاديا وجنسيا في آن واحد.

ولأن فرض زوج واحد على المرأة لم يكـن يشـبع حاجاتها الجنسية، بالإضافة إلى أن هذا الزوج لم يكـن لهـا وحدها وإنما كانت تشترك معها فيه نساء أخريات، فقد أصبح نصيب المرأة من الجنس ضئيلا جدا لا يزيد عن جزء مـن رجل، وهو أمر كان يتعارض بطبيعة الحال مع إشباع رغبة المرأة البدائية القوية.

وقد قاومت المرأة بالضرورة هـذه القيـد لتمـارس حياتها الطبيعية، وقد قام الرجل بالطبع مقاومة المرأة بقوانين أشد صرامة، ومنها القتل للخيانة الزوجية، ومنهـا الحـبس، ومنها تجربة الماء المر الذي كان يفرضه الكهنة على المرأة المتهمة بخيانة زوجها فإذا لم يتورم بطنها بتناولها هذا السـم تصبح بريئة وإذا تورم بطنها فهي مذنبة وتصبح عارا علـى أهلها. ومنها وسائل اختبار العذرية وعلامة البكارة، وأقلهـا بلا شك هي ((الغيرة)) تلك العاطفة التي ألبسـها الرجـل الحديث ثوب النبل والحب، وتغنى بها الأدباء والشعراء فـي الشرق والغرب، ولم تكن غيرة ((عطيل)) الشهيرة في أدب شكسبير وقتله ((لديزديمونا)) إلا إفـراغ لتلـك الشـحنة

العاطفية الجامحة التي تتوارثها الرجال منـذ بـدأت الملكيـة الفردية.

لقد فرضت على النساء العفة والإخلاص الزوجـي بكافة القوانين السماوية والأرضية الممكنة حتى لا يتسـرب إلى الرجل المالك أي شك في اشتراك طفل غريب مع أطفاله في ميراث أمواله.

وبرغم كثرة القوانين المقدسة والإلهيـة والوضـعية الصارمة في هذا المجال وبرغم كثرة التجارب والفحـوص للتأكد من الإخلاص والعذرية، فإن ((الشك)) في إخـلاص المرأة ظل ملازما للرجل منذ العهود البدائية حتى عصـرنا الحديث، مما يدل على أنه ((شـك)) فـي موضـعه ولـه مبرراته المنطقية المقنعة.

وهذا يفسر لنا سبب تلك الازدواجية الأخلاقية التـي هي إحدى السمات المميزة لمعظم المجتمعات والتـي نبعـت منذ العهود البدائية الأولى حين استولى الرجل على المـرأة اقتصاديا وجنسيا، وما نتج عن ذلك من انحـدار فـي قيمـة المرأة في الدين وفي المجتمع وفي البيت أيضا، وبلغ انحدار

المرأة مداه عند قدماء الرومان إذ أصبحت المرأة في قبضـة الرجل [1].

وتوالت عهود الظلام بالنسبة للمرأة، تحولت فيها من قائدة للمجتمع ينحدر منها النسب إلى جارية أجيـرة حبيسـة تباع وتشترى، إما بيعها واضحا في سوق الرقيق والعبيـد، وإما بيعا مقنعا بعقد الزواج، ولم تعد المرأة تـزوج نفسـها وإنما أصبح أبوها أو ولي أمرها من الرجال يزوجهـا بمـن يشاء نظير المال، بالضبط كما يتصرف الأب الروماني فـي ((الفاميليا)) [2].

وقد بلغ من سيطرة الرجل على المرأة في القـانون الروماني أن الأب لم يكن له حق بيع ابنته كالرقيق فحسـب

([1]) فوشيل دي كولانج، المدينة العتيقـة، طبعـة هاشـيت، باريس ١٩٤٨، ص ٩٥.

([2]) ثروت الأسيوطي ، نظـام الأسـرة بـين الاقتصـاد ، ص ١١٩.

ولكنه كان يملك حق قتلها أيضا، وبعد الزواج يحل الـزوج محل الأب والسيطرة على المرأة وامتلاكها بحكم القانون [1].

تحرير العبيد لم يحرر المرأة

استمدت الأديان السماوية مبادئها الخاصة بالمرأة من الأنظمة الأبوية الطبقيـة القائمـة علـى الأسـياد والعبيـد والجواري، وتعتبر رسالات الأنبياء موسى وعيسى ومحمـد ثورة على تلك الأنظمة العبودية، ورغم اختلاف ثـورة كـل منهم حسب ظروف مجتمعه الاقتصادية والاجتماعية إلا إنهم كانوا جميعا ضد الظلم والعبودية بصورة عامة، ولهذا نالـت المرأة من هذه الثورات بعض الأنصاف وخاصة في الفترات الأولى لهذه الثورات، ولكن وضع المرأة ظل أقل من الرجل في الأديان الثلاثة، وعلى الأخص في الديانة اليهودية.

وكان البيت العبري هو الأسرة الأبوية حيث سـلطة الأب المطلقة المعروفة لدي فاميليا قدماء الرومان، ويتكـون بيت بني إسرائيل من الرجل وعدد من الزوجات والسراري

---

(1) انظر: V- Givavd Droit Romanin, ١٨٩ et Suiv.
Et v. Glats : La Solidavite de lafamille en Grece. P. ٣١et Suiv.

(الإماء) والأولاد من الزوجـات و السـراري وزوجـات الأولاد والأحفاد بالإضافة إلى العبيد [١]. ويرأس هذا البيـت الأب ويسمى ((روش)) أي رأسـا [٢] ويتمتـع بسـلطات قضائية مطلقة [٣]. ويختار وريثـه فـي حريـة تامـة [٤]. ويستطيع التصرف في أبنائه كما يشاء فله أن يبيع ابنته لمن يرغب في شرائها [٥]. بل يملك علـى أولاده حـق لمـوت والحياة، يقتلهم إذا شاء [٦]. أو يقدمهم قربانا للرب [٧]. وقـد خضع إسحاق لأبيه إبـراهيم حـين أراد أن يذبحـه للإلـه ((يهوه)) ويمتد هذا الحق إلى من يعيش في كنفه، فلـه أن يحرق زوجة ابنه المتوفى إذا زنت [٨]. والمرأة فـي البيـت

---

(١) ليفي الأسرة ص ٧٩، دي فـو، نظـم العهـد القـديم ج ١ ص ٣٩.

(٢) أخبار الأيام الأولى الإصحاح ٧ الآية ٧.

(٣) سفر التكوين الإصحاح ٣٨ الآية ٢٤.

(٤) سفر التكوين الإصحاح ٤٨ الآية ١٤ وما بعدها.

(٥) سفر التكوين الإصحاح ٢٢ الآية ٣٧ وما بعدها.

(٦) سفر التكوين الإصحاح ٤٢ الآية ٣٧.

(٧) سفر التكوين الإصحاح ٢٢ الآية ١٠.

(٨) سفر التكوين الإصحاح ٣٨ الآية ٢٤.

الإسرائيلي كانت جزءا من الفاميليا Farnilia الرومانيـة أي جزءا من التركة المكونة من العبيد والأموال، وهـذا البيـت يشمل المرأة والأمة والثور والحمار والأشياء الأخرى [١].

والرجل يسمى بعل المرأة أي سيدها [٢] وهي تخاطبه بعبارة سيدي [٣] والفرحة بمولد الابن أكبر منها عنـد مولـد البنت [٤].

وبرغم القيود على المرأة فقد كـان الرجـل متعـدد الزوجات يمارس الجنس مع زوجاته وإمائه بل وبناته أحيانا، فقد اضطجعت ابنتا ((لوط)) مع أبيهما نفسه وحملتـا منـه [٥]. كما أن يعقوب جمع بين الأختين [٦]، وكان الرجل يطلق المرأة في أي وقت يشاء. وتذكر التوراة ((إبراهيم)) حـين طرد سريته ((هاجرا)) المصرية وابنهـا ((إسـماعيل))

---

(١) سفر التكوين الإصحاح ٢٠ الآية ١٧.

(٢) سفر الخروج الإصحاح ٢١ الآية ٣.

(٣) سفر التكوين الإصحاح ١٨ الآية ١٢.

(٤) سفر التكوين الإصحاح ٣٥ الآية ١٧.

(٥) سفر التكوين الإصحاح ٩ الآية ٣٠- ٣٨.

(٦) سفر التكوين الإصحاح ٢٩ الآية ١٥ وما بعدها.

أعطاهما قدرا من الخبز وقربة ماء، فمضيا إلـى سـبيلهما وتاها في الصحراء [1].

وقد انتشر تعدد الزوجات عند بني إسرائيل، خاصـة بين أغنياء الرجال وعلى قمتهم الملـوك: تـزوج ((داود)) نساء كثيرات بالإضافة إلى الإماء السراري [2].

واقترن ((رحبعام)) بثماني عشرة امرأة وسـتين سرية ولدن له ثمانية وعشرين ابنا وستين ابنة [3]، وتـزوج. ((ابيا)) أربع عشرة امرأة وأنجب اثنين وعشرين ابنا وست عشرة بنتا [4]، ((أما سليمان)) فقد تفوق على هؤلاء جميعـا وتزوج ٧٠٠ امرأة عدا ٣٠٠ من السراري [5]. وقـد بـدأ

([1]) سفر التكوين الإصحاح ٢١ الآية ١٤.

([2]) صموئيل الأول الإصحاح ١٨ الآية ٢٧، والإصحاح ٢٥ والآية ٣٩، ٤٣، صموئيل الثاني. الإصحاح ٣ الآية ٤،٣ والإصـحاح ٥ الآية ١٣.

([3]) أخبار الأيام الثاني الإصحاح ١١ الآية ٢١.

([4]) أخبار الأيام الثاني الإصحاح ١٣ الآية ٢١.

([5]) الملوك الأول الإصحاح ١١ والآية ٣.

سليمان حياته بجريمة قتل هي اغتياله لأخيه الأكبـر حـين نافسه في ميراث أبيهما من الحريم [1].

وفي مقابل هذه الحرية الجنسية التـي يتمتـع بهـا الرجال كانت القيود مفروضة على المرأة ومنهـا العذريـة. وكان الرجل يشترط أن يتزوج فتاته عذراء، فإن لـم تثبـت عذريتها طلقها، إلا إنه عندما عـم الفسـاد وبـدأت موجـة الإصلاح في أواخر القرن السابع ق. م قيدت حرية الرجـل في الطلاق، وحرم عليه الطرق في حالتين هما:-

أولا: إذا ادعى الرجل أن زوجته ليست بكرا، أخـذ أبوها وأمها علامة بكارتها وبسطا الثوب أمام شيوخ المدينة، وتولى هؤلاء تأديب الزوج وتغريمه مائة من الفضة تعطـى للوالد لأن ((الزوج)) أشاع اسما رديا عـن عـذراء مـن إسرائيل فتكون له زوجة ويمتنع عليـه أن يطلقهـا ((كـل أيامه)) [2].

(1) الملوك الأول الإصحاح ٢ والآيات من ١٣ – ٢٥.

(2) سفر التثنية الإصحاح ٢٢ الآية ١٣ إلى الآية ١٩.

ثانيا: إذا كانت الفتاة عذراء وعاشرها الرجل قبل الزواج، يلتزم بأن يسلم أباها خمسين من الفضة وأن يتزوجها وألا يطلقها ((كل أيامه)) [1].

أما الزوجة التي طلقها زوجها فتزوجت برجل آخر ثم طلقها هذا الآخر أو مات فإنه ممنوع على زوجها الأول أن يردها إليه ((بعد أن تنجست)) [2].

وكانت العبودية تسود المجتمع والنظام الأبوي يسيطر على الأسرة، والكهنة الرجال يمنحون أنفسهم سلطات اجتماعية، وشاعت في ذلك الوقت تجربة الماء المر للمرأة المتهمة بالزنا.

وقد اختلفت نظرة المجتمع إلى موضوع الزنا باختلاف مراحل التطور الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها البشرية. كانت القبائل البدائية والمجتمعات الأمومية تبيح الحرية الجنسية للرجال والنساء على قدم المساواة، لكن مع ظهور الملكية الفردية وازدياد غريزة التملك ونشوء النظام الأبوي أصبح الرجل يطالب زوجته بالإخلاص له بعد

([1]) سفر التثنية الإصحاح ٢٢ الآية ٢٨ – ٢٩.

([2]) سفر التثنية الإصحاح ٢٤ الآية ١ – ٤.

الزواج بحيث لا يقربها رجل غيره، وأصبح يطالبها بالعفـة والعذرية قبل الزواج، وقد دأبت المجتمعـات الأبويـة فـي عهودها الأولى على وضع حلول لمشكلة الزنا تستوحيها من نظمها التسلطية وتتفق مع طغيان الرجل.

ومن هؤلاء رجال بني إسرائيل، الذين قضوا علـى المرأة الزانية بالإعدام إما ((حرقا))مثلما حال ((يهـوذا)) مع زوجة ابنه ((ثامار))، وإما ((رجما)) وهي القاعـدة التي وردت في سفر التثنية [١]. أما الرجل فيعاشر الزوجات والسراري والإماء ويزني كما يشاء وبغيـر عقـاب . وقـد أعطى القانون الروماني للرجل حق الحياة والموت علـى المرأة الزانية.

وقد ظهر الإسلام أيضا في مجتمع أبوي قائم علـى الملكية الفردية ونظام الطبقات والأسياد والعبيد، فأصـبحت السلطة في الإسلام للرجل رأس الأسرة، والحاكم والخليفـة والإمام والوالي والقاضي والشاهد وهي كلها مناصب تخص الرجل وحده. وورث الإسلام عن اليهودية العقاب بالرجم في

---

(١) سفر التكوين الإصحاح ٣٨ الآية ٢٤، وسـفر التثنيـة الإصحاح ٢٢ الآية ٢١.

مسألة الزنا وقد رجمت نساء بالحجارة حتى الموت في عهد النبي محمد وفي عهود الإسلام الأولى. وينص الإسلام على أن يرجم الزاني والزانية لكن إباحة تعدد العلاقات الجنسـية مع الجواري والإماء من ملك اليمين جعلت الرجال المسلمين في غير حاجة إلى الزنا، وبالذات هؤلاء السادة الذين يملكون المال أو الإبل مما يجعلهم قادرين على تغيير زوجاتهم مـن حين إلى حين كلما لاحت لهم امرأة أكثر حسنًا وأكثر شبابا، وما يجعلهم قادرين على شراء الجواري والإماء في سـوق الرقيق، وما الذي كان يمكن أن يجبر الرجل العربي المسـلم في ذلك الوقت على الزنا إذا كان فـي مقـدوره أن يطلـق زوجته في أي لحظة ويتزوج أي عدد غيرها من الناس بـل ويجمع معها زوجات أخريات يصل عددهن إلى أربعة بـل ويجمع معها من الجواري والإماء ما يستطيع أن يشتري وما تستطيع يمينه أن تملك؟ وعلى هذا لم تكن قوانين الزنـا إلا من أجل عقاب النساء وحدهن لأنهن بارتكاب الزنا يخـرجن عن النظام الأبوي الذي حدد للمرأة زوجا واحدا فـي ظـل الأسرة وكذلك أيضا عقاب الرجال الفقـراء مـن الأجـراء والعبيد الذين يعجزون عن الزواج ودفع المهر للعـروس أو

يعجزون عن تغيير زوجاتهم واقتناء عدد من الزوجـات، أو يعجزون عن شراء الجواري والإماء من سوق العبيد الـذي كان شائعا في تلك العهود.

وتختلف المسيحية عن اليهودية والإسلام فـي أنهـا كانت أكثر تعقيدا لحرية الرجال الجنسية. وقد بـدأ المسـيح بنفسه إذ حرم على نفسه الجنس والزواج، ولم تعرف الجنس والزواج أيضا أمه مريم العذراء وقد قال المسـيح: ((وقـد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى في قلبه))[١].

وكان الرجال قبل المسيحية يتبعون الشريعة اليهودية التي تمنح حق الطلاق دون إبداء الأسباب. فلما ظهر المسيح ذهب إليه بعض القوم يسألونه الرأي فيما تذهب شريعتهم من إباحة الطلاق. وقد جاء في انجيـل متـى – وجـاء إليـه الفريسيون ليجربوه قائلين له هل يحل للرجل أن يطلق امرأته

([١]) انجيل متى، ٢٧٥ – ٢٨.

لكل سبب، فأجاب وقال إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنـا وتزوج بأخرى يزني، والذي تزوج بمطلقة يزني [1].

ولم يتبع المسيح اليهودية في مسألة رجـم الزانيـة بالحجارة، وقبل توبتها ورفض رجمهـا بالحجـارة، ومنـع الفريسيين من ذلك بقولته الشهيرة ((من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر)).

وقد ظهرت العقيدة المسيحية في ظل الإمبراطوريـة الرومانية دولة السادة والعبيد، ودولة النظام الأبـوي حيـث يملك الرجل المرأة كما يملك أبقاره وله عليها حـق الحيـاة والموت، وكذلك له على عبيده حق الحيـاة والمـوت. أمـا الرجال من الأسياد والحكام فقد كان لهـم حـق الاسـتماع بالجمال والجنس والملذات في الدنيا والآخـرة، وفقـد كـان الرجل من هؤلاء بعد وفاته يرتفع إلى مصاف الآلهة.

ولقد كان المسيح زعيما لثورة العبيد والفقراء، وقـد حارب أثرياء اليهود من قومه الذين تعـاونوا مـع السـلطة الرومانية، وحارب الأسياد من الرومان، وقاد العبيد والفقراء

([1]) انجيل متى الإصـحاح ١٩ والآيـة ٣ والإصـحاح ٥ والآية ٣٢.

في ثورة فكرية ضد هؤلاء جميعا بكل ما كانوا يمثلونه فـي ذلك الوقت من فساد أخلاقي أو استغلال اقتصادي.

وهذا هو السبب في أن المسيحية في فجرهـا الأول أعلت الجانب الأخلاقي الروحاني وحاربت ملـذات الحيـاة الجنسية التي تتضمن الجنس أيضا. ولأن العبيـد ونسـاءهم كانوا هم وحدهم ضحايا حرية الرجال الرومان الجنسية فقـد جاء تحريم الزنا على الرجل مثل المرأة مصـلحة لهـؤلاء العبيد والفقراء الذين وجدوا في تعاليم المسيح إنقاذا لهم مـن سطوة الأسياد والأثرياء. وأدت روحانيات المسيحية إلى منع تعدد الزوجات والارتياب فـي الزيجـات المتعاقبـة. إلا أن المسيحية فيما بعد أباحت للرجل نظام ((التسري)). وبرغم تقييد حرية الرجال الجنسية في ظل المسيحية بصفة عامة إلا أن المرأة ظلت أقل من الرجل مكانة بسبب النظـام الأبـوي السائد في ذلك الوقت والذي اشتد قوة بنشوء النظام الإقطاعي في المراحل الأخيرة من الإمبراطوريـة الرومانيـة، وقـد اتجهت الكنيسة في ظل الإقطاع إلى الابتعـاد عـن تعـاليم المسيح الأولى، ارتبط رجـال الكنيسـة والكهنـة بالسـلطة وامتلاك الأرض، وأصبحت التقاليد الدينية تشـيد بالطبقيـة

والإقطاع وخاصة في العصور الوسـطى المظلمة،وأصـبح الرب هو الإقطاعي صاحب الأرض، ربما أن هذا الرب قـد عين الكهنة ممثلين له على الأرض فإنهم أصـحاب الأرض من غير جدال. وباشتداد النظام الإقطـاعي الأبـوي اشـتد انحدار قيمة لامرأة واشتد اضطهادها واتهامها بأنهـا خليفـة الشيطان وسبب الكوارث، وحكمها الرجـل داخـل البيـت وخارجه بقوانين صارمة تصل أحيانا إلى حد القتل والحـرق لأتفه الأسباب أو لأسباب يختلقها الأسياد.

وبرغم أن المسيحية في أولهـا كانـت ضـد تعـدد الزوجات إلا أن نشوء الإقطاع وما صاحبه من رغبـة فـي زيادة النسل لتوفير مزيد من الأيدي العالمة لدى رب الأسرة الأبوية كذلك لتعويض نسب الوفيات العالية قد سـاعد علـى إباحة تعدد الزوجات.

إلا أن الوحدانية في الزواج ظلت مفروضـة علـى المرأة وحدها، وظل الإخلاص الزوجي مفروضا عليها حتى لا ينهار النظام الأبوي والأسرة الأبوية، وظلت الأفكار التي تمجد العذرية والعذراء، وأعطوا مريم العذراء لقـب آلهـة

السماء والأرض وهو لقب الآلهة الأنثى القديمة قبل ظهـور اليهودية.

وأصبحت المرأة في المسـيحية، كمـا كانـت فـي اليهودية من قبيل، كبش الفداء الذي يقع بين فكي الصـراع الضاري بين الروح والجسد أو بين الخير والشر، وقالوا إن الله خلق الرجل صورة منه، وأن الله روح، أما المرأة فهـي الجسد والجنس.

وكان ترترليان Tortullian أحد آباء الكنيسة قد قال إن النص في التوراة الداعي إلى أن تغطي المـرأة رأسـها يرجع إلى أن حواء هي المسئولة عن الآثم كله، ولهذا يجـب أن تغطي رأسها احتقارا لهذا الرأس المدنس الآثم. ويخاطب ترترليان حواء في هذا الصدد قائلا: ((أنت الباب الذي يقود إلى الشيطان، أنت التي فتحت الطريق إلـى تلـك الشـجرة المحرمة، أول من عصى أمر الله أنت التي أغريتـه، حـين عجز الشيطان عن أن يغريه، أنت حطمت بسهولة صـورة الرجل الإلهية، أنت سبب الموت، وبسببك أيضا يموت ابـن الله))[1].

---

(١) Tertuttiaan. a lulfu Fem. ١. ١.

وقد ترددت هذه الأفكار عن المـرأة علـى ألسـنة المفكرين والكتاب العرب أمثال المعـري وابـن الفـارض والحلاج والسهروردي والعقاد وغيرهم حتى قرننا العشرين.

ومن هؤلاء أيضا زكي مبارك الذي قال:

((المرأة تملك أصول الشهوات، وهي باب الـدمار والخذلان، والمرأة هي الجحيم، هي البلاء يصـبه الله علـى رؤوس العباد، هي الشقاء المعجل، والكـرب الـذي يسـبق الموت، والمرأة في جميع أحوالها مصدر فساد ولها مـداخل إلى الفتنة يعجز عنها إبليس))[١].

وقد ظهر الإسلام بعد المسيحية، وكان محمـد، فـي أسفاره التجارية خارج الحجاز يلتقي بقوم يـرددون أمامـه آيات من التوراة والإنجيل وكان أول حياته راعيـا فقيـرا، والمجتمع العربي في ذلك الوقت كان قائمـا علـى السـادة والعبيد، وبدأت ثورة محمد في أولها ضد لهذه النظام الطبقي العبودي ودافع في أحاديثه عـن الفقـراء والنسـاء، إلا أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية في ذلك الوقت كانت قائمة

---

(١) مصطفى النهيري، المثقفون والأنثى في الحضـارة، دار الكتاب بالدار البيضاء، ١٩٧٥ ص ١٤٧.

على سيطرة الرجل في معظم القبائل العربيـة ((باسـتثناء بعض القبائل الأمومية)) ولهذا استمرت هذه القيم الأبوية في الإسلام، كما أن المجتمع العربي الإسلامي كان في حاجة إلى زيادة نسله ليزداد قوة في مواجهة الأعداء. ومن أجل بنـاء الدولة الإسلامية ولكثرة أعداد أسيرات الحروب والجـواري فقد أباح الإسلام تعدد الزوجات في تلـك الفتـرات الأولـى وأعطى الرجال حرية جنسية واسعة مـن حيـث الاتصـال بالجواري والإماء، وما ملكت يمينهم، وهي حرية لـم يكـن ليتمتع بها من الناحية العملية إلا الرجال من طبقـة التجـار والأثرياء القادرين على نفقات الزواج بـأكثر مـن واحـدة والقادرين على شراء العبيد والجواري من النساء.

وقد كان المجتمع العربي في عصر الجاهليـة يقـوم على الرق والعبيد وكانت أسيرات الحـرب يعتبـرن كمـا اعتبرهن الإسلام فيما بعد ملكا لليمين، وقد أبـاح الإسـلام للرجل أن يعاشر الرقيقات جنسيا دون أن يسمى ذلك زواجا بل سماه ((تسريا)). والرجل ليس ملزما على الإطلاق بأن يعترف بالولد الذي تلده إحدى جواريـه، وإذا اعتـرف بـه يصبح الولد حرا وتصبح الأم حرة بعد وفاة سيدها.

ولا شك أن العبيد والجواري قد حظـوا فـي ظـل الإسلام بحقوق لم تكن لهم قبل الإسلام. وقد حارب الإسـلام الرق والظلم والفساد والبغاء وشرب الخمر ولعب الميسـر. والربا، إلا أن الرجل ظل في الإسلام و السيد وهـو القـوام على المرأة، والزواج في الإسلام ظل أشبه ما يكـون بعقـد تمليك، يملك الزوج زوجته بحكـم الصـداق ((المهـر)) والإنفاق، وواجب الزوجة الطاعة ومن حق الرج المسـلم أن يطلق زوجته لأي سبب يراه هو، وله حق تعدد الزوجات.

وهكذا ظلت المرأة العربيـة المسـلمة جـزءا مـن ممتلكات الرجل وما زالت معظم البلاد العربية بما فيها مصر تحكم على نسائها بهذه القوانين الجائرة فـي الـزواج حتـى اليوم.

ويكتب أحد الكتاب العرب الذين اشتهروا في أدبنـا المعاصر وهو عباس محمود العقاد مشيدا بهذا النظام الأبوي القبلي ويؤكد وضع المرأة كجزء من ممتلكات الرجل حـين يقول: لأن ((المتعة)) من ضرورات الحيـاة بـين أهـل

البادية، ولا مناص من الاشتهار بمناعة الزوجة بين الأعداء والنظراء وأول زوجة يحميها الرجل هي المرأة [1].

منابع إيجابية للمرأة العربية

سبقت المرأة العربية المرأة الأوروبية والأمريكية في مقاومة النظام الطبقي الأبوي. إن المرأة الأمريكية لم تفطـن إلا هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين إلـى أن اللغـة السائدة هي لغة الرجل، وإن كلمة ((رجل)) تعني الإنسـان أو البشرية جمعاء، وإن صيغة المذكر تشمل الرجال والنساء معا، وتحاول اليوم بعض حركات تحرير المرأة في أمريكـا وأوروبا تغيير اللغة.

أما المرأة العربية فقد فعلت ذلك منذ أربعـة عشـر قرنا، فقد كانت صيغة المذكر هي التي تطلق على الرجـال والنساء في القرآن، فاعترضت على ذلك النسـاء العربيـات قائلات: ((أسلمنا كما أسلمتم وفعلنا ما فعلتم فتذكرون فـي القرآن ولا نذكر؟)) وكان الناس يسمون المسلمين فأنزل الله

(1) عباس العقاد، جميل بثينة، ص ١٨.

فـي القـرآن ((إن المسـلمين والمسـلمات والمـؤمنين والمؤمنات))[1].

وكنت أندهش كلما قرأت في تـاريخ العـرب قبـل الإسلام وفي المراحل الأولى للإسلام عن تلك الشخصـيات النسائية المتعددة اللائي برزن في المجتمع، وعـن الأهميـة الكبيرة التي نالتها نساء العرب سـواء فـي الأدب والثقافـة والفنون أو الحـب والجـنس أو فـي الحيـاة الاجتماعيـة والاقتصادية، بل منهن من برزن في السياسـة والحـروب والقتال سواء قبل الإسلام أو بعده وفي حياة محمـد رسـول المسلمين نفسه.

ويحفل تاريخ العرب بأسماء هؤلاء النساء ومنهن نسيبة بنت كعب التي حاربت جنب محمد بالسيف في معركة ((أُحد)) ولم تكف عن القتال حتى جرحت ثلاثة عشر جرحا، وقال عنهـا محمد: إن مقامها خير من الرجال[2]. ومنهن أيضا أم سليم بنـت

([1]) انظر محمد بن سعد، الجـزء ٨، ص ١٤٥، والقـرآن سورة الأحزاب الآية ٣٥.

([2]) محمد بن سعد ، الطبقات الكبرى، ح ٨، دار التحريـر، القاهرة، ١٩٧٠ ص ٣٥٢.

ملحان التي حزمت الخنجر على وسطها وهي حامل وحاربت مع محمد وقومه من المسلمين. أما النساء اللائي اشتركن في الحروب ضد محمد والمسلمين فمنهن ((هند بنت ربيعة)) وزوجة أبـي سفيان التي ارتدت الحديد والزرد في معركة ((أحد)) ووضعت قناع الحرب وشهرت السيف تطعن بـه الصـدور [1]. وكانـت ((هند)) امرأة عربية تملك حريتها وإرادتها، وقد قالت لأبيها:

((أنا امرأة قد ملكت أمري فـلا تزوجنـي رجـلا تعرضه علي، فقال لها أبوها ذلك اك)) [2].

وكانت ((هند)) قوية الحجة سريعة الرد حتى على محمد رسول المسلمين وحين جاءت إليه مع النساء ليبـايعن على الإسلام أخذ النبي يتلو عليهن مبادئ الدين الجديد وحين قال لهن: ((ولا تقتلن أولادكن)) ردت عليه ((هند)) قائلة ((أنت قتلتهم)) [3]. وكانت تعني بـذلك أن ((محمـدا)) ورجاله قتلوا الكثيرين في غزوة ((بدر)) التي انتصر فيها المسلمون على أهل قريش وقتل فيها ضمن من قتل أبو هند،

([1]) عبد الرحمن الشرقاوي، محمد رسول الحريـة، كتـاب الهلال، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢١٧.

([2]) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ١٧١.

([3]) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ١٧٢.

عتبة بن ربيعة و أخوه شيبة وابنه الوليد ابن عتبة أخو هند، وكانت هند قد أقسمت منذ مقتلهم على أن تثأر لأبيها وأخيها، وفعلا نفذت ((هند)) قسـمها ثـم اشـتركت فـي حـرب ((أحد)) التي انتصرت فيها وقومها على المسلمين.

ومن أبرز النساء العربيات السيدة خديجـة زوجـة النبي محمد الأولى، وهي امرأة عربية كانت لها شخصـيتها واستقلالها الاقتصادي والاجتماعي وحريتهـا فـي اختيـار الرجـل الـذي تريـده،، وهـي التـي أرادت أن تتـزوج ((محمدا)) وهي تكبره بخمسة عشر عاما، وأرسلت إليـه امرأة اسمها نفيسة تعرض عليها الزواج منها، وجاء في كتبا الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد وهـو أول تـاريخ قـومي للعرب ((قالت نفيسة – فأرسلتني إليه دسيسا أعرض عليه نكاحها ففعل)) [1]، وكانت خديجة قد عرفت ((محمـدا)) من خلال تشغيلها له في تجارتها واستثمار أموالها.

وقد كان المجتمع العربي قبل الإسلام يتكـون مـن قبائل مختلفة تعيش ظروفا اقتصادية مختلفة فـي الصـحراء

---

(1) محمد بن سعد ، الطبقات الكبرى، الجـزء الثـامن، دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة ١٩٧٠، ص ٩.

وفي المدن، وكانت بعض هذه القبائل أمومية، ينسب الأطفال فيها إلى أمهاتهم مثل قبيلة خندق وجديلة [1]. ومـن ملـوك العرب قبل الإسلام من نسب إلى أمه كعمرو بن هند، وكان ((محمد)) نفسه يفخر بانتسابه إلى نساء قبيلته قـائلا عـن نفسه: أنا ابن العواتك من سليم (عاتكة بنت هلال بنت مرة، وعاتكة بنت الأوقص).

وكان المجتمع العربي قبل الإسلام يمثل نوعـا مـن المجتمعات الذي شهد النظامين الأمومي والأبوي معا، وكيف كان هذا النظام الأمومي ينقرض بالتـدريج بتغيـر الـنظم الاقتصادية وسيطرة الرجل المتزايدة على الاقتصاد وعلـى الدين. وقد كانت المرأة العربية في البادية أكثر تحررا مـن المرأة في المدينة بسبب مشاركتها الرجل في العمل والسعي وراء الرزق، ولم تعرف المرأة العربية في البادية الحجـاب وكانت تخالط الرجال.

وكان لعرب الجاهلية قبل الإسلام آلهة من الـذكور والإناث. وكانوا يؤمنون بأن إله كل قبيلة يحارب معها فـي

---

(1) عبد الله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسـلامها، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر، ١٩٢١، ١٩٥٠.

حربها، ويجهد نفسه في الدفاع عنها لتفوز بالنصر، ولـ ذلك كانت القبائل تحمل معها صور أو تماثيل آلهتها في الحرب.. وقد فعل ذلك أبو سفيان فحمل ((اللات)) و ((العـ زى)) إلهات إناثا. وفي هذه المعركة انتصر أبو سـ فيان وزوجتـ ه ((هند)) على المسلمين مما جعلهم يتمسكون بآلهتهم الإناث ويثقون في قوتها وقدرتها. وكانت القبيلة المهزومة كثيرا ما تنبذ إلهها الضعيف الذي انهزم في الحرب وتختار إلها قويا، هو إله القبيلة المنتصرة أو إله قبيلة مشهود لهـ ا بالنصـ ر، وعلى هذا النحو كانت تنتشر عبادة بعض الآلهة دون البعض الآخر [1].

وكان وجود الإلهات الإنـ اث [2]. ((كـ اللات)) و ((العزى)) انعكاسا لارتفاع مكانة المرأة في تلـ ك القبائـ ل

([1]) انظر: جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥ القسم الديني مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥ ص ٦٧ وما بعدها.

([2]) في تفسير الأنثى جاء في لسان العرب جزء ٢ ص ٤١٦ (الأنثى خلاف الذكر، وفي التنزيل العزيز: ((أن يدعون مـ ن دونـ ه إناثا)) تقول العرب اللات والعزى وأشباهها من الآلهة (المؤنثة).

العربية، وانعكاسا للمجتمع الأمومي الذي كان موجودا عنـد بعض تلك القبائل في ذلك الوقت.

ولعل هذا هو السبب في أن تاريخ العرب سواء قبل الإسلام أو بعده، اشتمل على نماذج عـدة لنسـاء بـارزات الشخصية، قويات الحجة، إيجابيات فـي حيـاتهن الخاصـة والعامة، ومنهن من اشتغلن بالاقتصاد والإنتاج.

وكان من جراء اشتراك المرأة مع الرجل في الحياة الاقتصادية في هذه الحالات أن حصلت على شخصية مستقلة في المجتمع وفي البيت وكان لها حريـة اختيـار زوجهـا، وكانت المرأة تتزوج أحيانا أكثر من رجل أي تمارس تعـدد الأزواج قبـل الإسـلام، وسـمي هـذا الـزواج بـزواج ((المشاركة)) حيث كانت تتزوج المرأة بعدد من الرجـال شرط ألا يزيدوا عن عشرة رجال وإلا اعتبرت من البغايـا، وعن حديث عائشة عن الجاهلية تقول: ((أن يجتمع الـرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة فيصـيبونها فـإذا حلمـت ووضعت ترسل إليهم فلا يستطيع أحد منهم أن يمتنع، فـإذا اجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان. تسمي من أحبت باسمه. فيلحق بـه

لدها لا يستطيع أن يمتنع عنه الرجل [1]. ويكتب الأصفهاني يقول: ((والبدويات منهن حين يطلقـن أزواجهـن يحـولن خيامهن إن كانت إلى الشرق فإلى الغـرب أو كانـت إلـى الجنوب فإلى الشمال [2]. وكان الطلاق يتم بمجرد أن تحول المرأة باب خيمتها)).

وكان عند العرب قبل الإسلام نوع من النكاح يسمى نكاح الاستبضاع، وصفته السيدة عائشة فـي حـديثها بـأن الرجل كان يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها ((أرسـلي إلى فلان فاستبضعي منه)) ، ويعتزلها زوجهـا ولا يمسـها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه (غالبـا رجل عظيم لأن الزوج يريد ابنا من نسل ممتاز) فإذا تبـين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وكان الطفل المولود يعتبـر ولدا للزوج الشرعي وليس للرجل العظيم الـذي جـاء مـن صلبه، ونكاح الاستبضاع صورة من نظام تعدد الزواج عند

---

(1) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني جزء ١٦ ص ١٠٢.

(2) المصدر السابق ١٠٢.

العرب، وما زال أثره واضحا في حـالات بعـض النسـاء العاقرات حتى يلدن [1].

كنت وأنا طفلة صغيرة أسمع النساء الريفيـات فـي قريتي كفر طلحة يتحدثن عن النساء العاقرات اللائي يـذهبن إلى ((مشايخ)) القرية من أجل ارتداء ((حجاب)) يشفيهن من العقم فيحملن. وقد عرفت من بعد أن هذا الحجاب كـان أحيانا قطعة من الصوف تضـعها المـرأة داخـل مهبلهـا، وبالسؤال عن سر تلك القطعة من الصوف التي تشفي النساء من العقم، عرفت فيهما بعد أن بعض ((مشـايخ)) القـرى كانوا يبللون تلك القطعة من الصوف بسائلهم المنوي لتضعها المرأة على الفور في مهبلها، وبسبب أن لقاء ((الشيخ)) مع المرأة كان يتم دائما في حجرة مظلمة تماما فلم تكن المـرأة تلحظ ما يفعله ((الشيخ))، وأحيانا كانت تلحظ لكنها كانـت تكتم الأمر بينها وبين نفسها حرصا على الحمل والإنجـاب بأي ثمن حتى وإن وضع ((الشيخ)) سائله المنوي مباشـرة في مهبلها دون حاجة إلى قطعة الصـوف، وكـان بعـض

([1]) عادل أحمـد سـركيس، الـزواج وتطـور المجتمـع، دارالكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧ ص ١٠٨.

المشايخ يلجأون إلى ذلك من أجل شفاء النساء العاقرات مـن العقم [1]. أو من أجل الممارسة الجنسية ولإرضاء رغبـاتهم أو من أجل الاثنين معا.

ولا شك أن نكاح الاستبضاع عند العرب،أو قطعـة الصوف السابق ذكرها ليست إلا نوعـا مـن اللقـاح غيـر المباشر الذي يشبه الفكرة الحديثـة جـدا الخاصـة باللقـاح الصناعي وبدلا من أن تحفظ الحيوانات المنوية فـي أنبوبـة معقمة فإنها توضع في قطعة من الصوف.

وكم تحدث الغرب في السنين الأخيرة بفكرة التلقـيح الصناعي واعتبروها من أحدث الصيحات في مجـال علـم الجنس أو التحرر على حين أن الرجال العرب في الجاهليـة قبل الإسلام كانوا يعرفون هذه الفكرة بل ويمارسـونها فـي زواج الاستبضاع أو يتحرر الأب من أنانيته وغيرته ويفضل

([1]) لا تزال مثل هذه العمليات تحدث في بعض مناطق فـي الهند داخل المعابد ، حيث تذهب النساء العاقرات طلبا للشفاء من العقم على أيدي الكهنة وقد حكت لي إحدى الكاتبـات الهنـديات (امريتـا برتيام) روايتها بعنوان((هذا الرجل)) That man التي ترفع الستار عن مثل هذه العمليات التي قد تتم في سرية كاملة لا يعرف عنهـا إلا الكاهن والمرأة.

أن يحصل على نسل أقوى بصرف النظر عن كونه صاحب الحيوان المنوي الذي أدى دور الإخصاب، وبصرف النظـر عن اتصال زوجته برجل آخر جنسيا فـذلك الرجـل الـذي حملت منه المرأة لم يكن يؤدي بالنسبة لهـا أو لزوجهـا إلا دور المخصب فقط Fertiliser مما يكاد يتفـق مـع فكـرة ((ليستروورد)) Lester Ward بأن وظيفة ذكر الإنسان لم تكن في البداية الأولى للبشرية إلا مخصبا للأنثى (١). ويتفق أيضا مع رسوم كهوف أسبانيا Gogul حيث صورة النسـاء كاملات أما الذكر فرسم على شكل عضو تناسل فقط.

قد عرف العرب قبل الإسلام أنواعـا أخـرى مـن الزواج ((المتعة)) وهو نوع من الزواج المؤقت من أجـل المتعة الجنسية فقط، يتزوج الرجل المرأة لمدة ثلاثة أيـام أو أقل أو أكثر ويدفع لها مبلغا من المال حسب الاتفاق بينهمـا في هذه الفترة المحدودة، وليس علـى الرجـل أن يعتـرف بالطفل الذي قد نتج عن هذا الزواج، وكانت المـرأة تنسـب طفلها إليها.

---

(١) Lester Ward, pure Sociologie. Macmillan ١٩١٤. p. ٣٥٣.

وكان هناك أيضا زواج ((الهبة)) وهـو أن تقـول المرأة للرجل ((وهبتك نفسي)) فيتزوجها دون أن تكون لها أي حقوق زوجية وليس للرجل أيضا أن يعترف بأطفالهـا، لكن المرأة كانت تتمتع بحق نسب أطفالها إليها كبقايا النظـام الأمومي.

وقد أبطل الإسلام هذين النوعين من الزواج.

وقد كان المجتمع الأبوي كغيـره مـن المجتمعـات الإنسانية يتحول تدريجيا من النظام الأمـومي إلـى النظـام الأبوي بازدياد سلطة الرجل واحتكاره للأنشطة الاقتصـادية وبانحسار دور المرأة خارج البيت أو في أعمـال الإنتـاج، وبمساندة الدين الإسلامي للنظام الأبوي.

ولم تفقد المرأة العربية إيجابيتها فجأة، بل ظلت تقاوم لتحافظ على حقوقها القديمة، وقد انتصـرت المـرأة أحيانـا وانهزمت أحيانا إلى أن تم إخضاعها حين تمت سيادة النظام الأبوي بالكامل.

وقد ظلت المرأة العربية في الفترات الأولى للإسلام تعطي نفسها حق اختيار زوجها بل إنها كانت تـذهب إليـه وتعرض عليه الزواج. ويعرف تاريخ العرب مـن هـؤلاء

النساء ((ليلى بنت الحطيم)) التي ذهبت إلى محمـد وهـو رسول المسلمين وقالت له: أنا ليلـى بنـت الحطـيم جئـت لأعرض عليك نفسي، تزوجني، قال محمد: قد فعلت، لكنهـا حين عادت إلى أهلها قالوا لها بئس ما صنعت فأنت غيـورة ولا صبر لك على الضرائر وقد أحل الله لرسوله أن ينكح ما يشاء، فرجعت ليلى إلى الرسول وقالت له: أنا امرأة طويلـة اللسان ولا صبر لي على الضرائر، أقلني فقـال لهـا: قـد أقلتك[1].

ولا أدري كم من النساء العربيات اليوم تسـتطيع أن تفعل ما فعلته ((ليلى بنت الحطيم)) منذ ثلاثة عشر قرنـا، ولا أدري كم من الرجال العرب يعطي المرأة حرية اختياره أو حرية رفضه كما فعل محمد نبي المسلمين.

وإذا كانت حياة ((محمد)) هـي المثـل الأعلـى للرجال المسلمين فمما لا شك فيه أن الرجـال العـرب فـي عصرنا الحديث لا يتبعون مثلهم الأعلى في الحرية التي كان يعطيها للنساء، وإنهم قد خالفوا النبي والإسلام حين فرضـوا

([1]) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى ، دار التحرير ، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٠٧.

الطاعة على الزوجة أو مما عرف ((ببيت الطاعة)) وكـم من زوجات عربيات أمسكهن البوليس بـالقوة باسـم بيـت الطاعة وساقهن قسرا إلى أزواجهن.

ولم تكن المرأة العربية تمنح نفسها حريـة اختيـار زوجها فحسب ولكنها كانت تستطيع أن تراجعـه إذا أخطـأ وتغاضبه وتهجره حتى الليل مهما ارتفع شأنه أو كـان هـو النبي نفسه، كما يتضح من هذه القصة التي يرونها عمر بن الخطاب بلسانه، قال عمر:

وكنا يا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا علـى الأنصار إذا تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخـذن مـن أدب الأنصار فصحت علـى امرأتـي فراجعتنـي فـأنكرت أن تراجعني، فقالت: ولم تنكر أن أراجعـك؟ فـوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتـى الليـل، فأفزعني ذلك فقلت: لقد خاب من فعل ذلك منهن. ثم جمعت علي ثيابي فنزلت فدخلت على حفصة بنت عمر فقلـت: يـا حفصة أتغاضب إحداكن رسول الله يوما إلى الليـل؟ قالـت: نعم، قلت: خبت وخسرت، أفتأمنين أن يغضب الله لغضـب

رسوله فيهلكك؟ لا تستكثري على رسول الله ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه [1].

ولا شك أن أغلبية الرجال قد نهجوا نهج عمر بـن الخطاب في التسلط على المرأة. ويتضح من كلام عمر إنـه كان يفتخر بانتمائه إلى قوم يغلبون النساء ويسـتنكر علـى الرجال العرب الآخرين الذي تغلبهم نساؤهم، وهـو يعطـي نفسه حق الصياح في وجه زوجته فلا يحق لها أن تراجعـه، بل إنه ينصب نفسه داعية وحاميا لحق الزوج في ألا تراجعه زوجته وينهي زوجة ((محمد)) عن ذلك وهو أعلى شـأنا وأكثر مقدرة من عمر بن الخطاب بصفته النبـي والرسـول والمشرع، لكن ((محمدا)) كان يعطي الزوجة حقهـا فـي مراجعة زوجها إذا أخطأ وإن كان هذه الـزوج هـو النبـي نفسه.

ومن هنا يتضح كيف ترك عمر بن الخطاب وأمثاله من الرجال العرب مـن ذوي النزعـة الأبويـة المتسـلطة بصماتهم على كثير من الأحكام التي تفرض علـى النسـاء

([1]) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى ، دار التحرير ، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٣١.

العربيات اليوم باسم الإسلام مع أنها ليست من الإسلام كمـا رآه أو اتبعه محمد.

وقد قاومت المرأة العربية هذه الضغوط التي كانـت يفرضها بعض الرجال العرب أمثال عمر بن الخطاب، ولـم تكن المرأة العربية في مقاومتها تخجل أو تتحرج حتى فـي أشد الأمور حساسية مثل حقها في المتعة الجنسية، وفي هذه القصة عن أم سلمة زوجة النبي محمد تصور لنا مـا بلغتـه المرأة أحيانًا من الجرأة والإيجابية في حياتها الجنسية.

وهذه القصة يرويها عمر بن الخطاب عـن لسـانه ويقول: ((فدخلت عليه (رسول الله) وهو واضع يده علـى خده أعرف به الكآبة، فقلت: أي نبي الله بأبي أنت وأمي مـا الذي رابك وما لقي الناس بعدك من فقدهم لرؤيتك، فقال: يا عمر يسألنني أولاء ما ليس عندي، يعني نساءه، فذاك الـذي بلغ مني ما ترى، فقلت: يا نبي الله قد صككت جميلـة بنـت ثابت صكة ألصقت خدها منها بالأرض لأنها سألتني مـا لا أقدر عليه، وأنت يا رسول الله على موعد من ربـك وهـو جاعل بعد العسر يسرا))[1]. ويخرج عمر بن الخطاب من

([1]) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ١٢

عند النبي ويذهب إلى أبي بكر الصديق، ثم يذهب الاثنان معا إلى زوجات النبي عائشة وحفصة وأم سلمة، لكن أم سـلمة ترفض أن تدخلهما وتقول لهما. ((ما لكما، ولما هـا هنـا رسول الله ﷺ، أعلى بأمرنا عينا، ولو أراد أن ينهانا لنهانـا، فمن نسأل إذا لم نسأل رسول الله؟ هل يدخل بينكمـا وبـين أهليكما أحد؟ فما نكلفكما هذا)). فخرجا من عنـدها، فقالـت زوجات النبي لأم سلمة: جزاك الله خيرا حـين فعلـت مـا فعلت، ما قدرنا أن نرد عليهما شيئًا [1].

لقد بلغت ((أم سلمة)) من الإيجابية والجـرأة فـي حقها في المتعة الجنسية إلى الحد الذي جعلها ترفض تـدخل رجال آخرين بينها وبين زوجها وتتمسك بحقهـا فـي هـذه المتعة وتفرض على زوجها أن يؤدي واجبه نحوها في هـذا الشأن حتى وإن أدى موقفها هذا إلى الطـلاق مـن محمـد ((النبي)) ذاته، وهذه المرأة هي ((العامريـة)) زوجـة ((محمد)) التي طلقها النبي لهذا السبب.

ولم يكن ((محمد)) يرغم الزوجة على أن تعـيش مع زوجها إذا رغبت في الانفصـال عنـه، وقـد أعطـى

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٩.

((محمد)) زوجاته حرية البقاء معه أو الانفصال عنه بعـد أن حالت ظروف حياته في فترة من الفترات دون أن يـوفي حاجتهن الجنسية.

ويحكي كتاب الطبقات الكبرى عن أن ((محمـدا)) ذهب إلى زوجاته في ذلك الوقت ليخيرهن بين الطـلاق أو الحياة معه دون أن يحقق لهن متعة الحياة الدنيا وزينتها.

وقد أغضب موقف ((العامرية)) عددا من الرجال بطبيعة الحال، فكيف تفقد المرأة عقلها إلى هذا الحـد الـذي تختار فيه الدنيا ولا تختار سول الله، ومن هؤلاء ابن منـاح الذي قال: ((اخترته، صلى الله عليه وسلم، جميعـا، غيـر العامرية، اختارت قومها، فكانت ذاهبة العقل حتى ماتت [1].

وكما ورث كثير من الرجـال العـرب عمـر بـن الخطاب في نزعته المتسلطة على المرأة وضربه إياها حتى يلتصق خدها بالأرض كما فعل عمر بزوجته، فقد ورث كثير من الرجال ((ابن مناح)) في الحكم على النساء بأنهم بغير عقل أو بالجنون أو الهوس أو الهستريا إذا ما لاح للواحـدة منهن أن تعترف برغبتها الجنسية أو تطلـب الطـرق مـن

([1]) المصدر السابق ص ١٣٨.

زوجها أو حتى تراجعه إذا أخطأ. فالرجل في نظر عمر بن الخطاب وابن مناح وغيرهما من الرجال في عصرهم أو في عصرنا معصوم من الخطأ لمجرد أنه رجل، فهـو صـاحب العقل والحكمة ومن حقه الوصاية على زوجته، وعلى النساء ((الناقصات العقل)) الطاعـة الواجبـة علـيهن بالشـرع والقانون.

إلا أن محمدا النبي وواضع الشرع الأول لم يكن من هؤلاء الرجال، وهذا أمر يجب أن يبرزه كل من درس تاريخ العرب والإسلام، لأنه يكشف عن الخطأ الكبير والإثم الـذي ارتكبه خلفاء محمد في حق المرأة العربية، وكيف تحول هذا الخطأ والإثم إلى أحكام أصبحت هي القانون الشرعي الـذي تحكم به النساء المصريات والعربيات اليوم، هذا القانون الذي فرض على المرأة الزواج بالإكراه وحرمهـا مـن حريـات تمتعت بها في حياة محمد.

وقد ذهب محمد رسول المسلمين إلـى أبعـد مـن الاعتراف بحرية المرأة في الزواج بل إنه في بعض أحاديثه شرح للرجال أهمية المداعبات الجنسية في إرضاء المـرأة،

وإن الرجل العاجز هو الذي يشبع حاجته إلـى الجـنس ولا يشبع حاجة المرأة.

ويروى الغزالي أن محمدا رسول المسلمين قـال إن إحدى صفات العجز هي أن ((يقارب الرجـل جاريتـه أو زوجته فيصيبها قبل أن يحدثها ويؤانسها ويضاجعها فيقضي حاجة منها قبل أن تقضي حاجتها منه)) [1].

وهكذا نرى أن ((محمدا)) تفوق على أكثرية رجال العصر الحديث في فهمه أمـور الجـنس، وقدرتـه علـى الاعتراف بأشياء لم يعترف بها أكثر الرجال العرب المثقفين أو على الأقل تحرجوا من الاعتراف بها، ومن هذه الأشـياء موضوع المداعبات الجنسية. ويروى الإمام الغزالـي عـن رسول المسلمين هذا الحديث [2]، إن النبي ﷺ قال: لا يقعـن أحدهم على امرأته كما تقع البهيمة، وليكن بينكما رسول، قيل وما الرسول يا رسول الله؟ قال القبلة والكلام.

([1]) الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠ الفصل الثالث، ص ٧٣٤.

([2]) أبوحامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الشعب القاهرة ١٩٧٠، الفصل الثالث ص ٧٣٤.

وقد شرح الغزالي وغيره من الفلاسفة العرب في كتاباتهم أحاديث الرسول وأضافوا عليها مما أكد في الفلسفة الإسلامية أهمية إرضاء الحاجة الجنسية للمرأة والرجل.

ويتضح لنا الآن الفارق الكبير بين نظرة الفلاسفة الإسلاميين للجنس وبين غيرها من الفلسفات الغربية التي ارتكزت على تأثيم الجنس، وعلى نكران اللذة الجنسية وبالذات لذة المرأة، وقد كانت شخصية محمد رسول المسلمين وأحاديثه هي المنبع الأساسي لهذه الفلسفة، ورغم أن محمدا بحكم نبوته وزعامته كقائد أمة ودولة كان من الممكن أن يتظاهر بالتزمت أو عدم الاهتمام بأمور المرأة أو الحب أو الجنس إلا إنه كان واثقا من شخصيته كإنسان طبيعي متكامل، وبلغ من ثقته أنه كان يقول عن نفسه إنه بشر يحب الطيب والنساء، بل كان يعلن عن حبه للمرأة على نحو طبيعي.

وقد سأله عمرو بن العاص عن أحب الناس إليه فقال له الرسول: عائشة، فقال عمر: إنما أقـول الرجـال، قـال محمد: أبوها[1].

ومن أهم الأفكار التي تفوقت فيها العلوم الإسـلامية على العلوم الغربية فيما يخص الجنس تلك الفكرة التي قالت بأن الإشباع الجنسي وليس الكبت الجنسي هو الذي يسـاعد على العمل والتفرغ لأعمال الدنيا والدين. و يقول الغزالي إن العقل هو أهم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وقد وهبه الله للإنسان من أجل المعرفة، معرفة الحياة والعلوم والأرض والناس ومعرفة الله. إن المعرفة هي أفضل أشـكال العبـادة عند المسلمين المؤمنين، ومن أجل أن يتفرغ العقل للمعرفة لا بد أن يصرف الطاقة الجنسية ويشبعها حتى لا تنشغل الـروح وتشغل الذهن عن المعرفة أو عبادة الله. ويضيف الغزالـي أيضا ويقول عن فوائد الإشباع الجنسي: ((تـرويح الـنفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة، إراحة للقلب وتقوية له على العبادة، فإن النفس ملول، وهي عن الحق نفور، لأنهـا

---

(1) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار التحرير، القـاهرة ١٩٧٠، ص ٤٦.

على خلاف مع طبعها، فلو كلفت المداومة بالإكراه على مـا يخالفها جمحت وثابت، وإذا روحت باللـذات فـي بعـض الأوقات قويت ونشطت، وفـي الاسـتئناس بالنسـاء مـن الاستراحة ما يزيل الكرب ويريح القلب)) [1].

ويتفق الغزالي هنا مع بارون والأفكار الجديدة فـي علم النفس التي تقول بأن الإشباع الجنسي ضروري للإنتاج الفكري والثقافي والإبداع، ويتفوق على فرويد وزملائه الذي رأوا أن ((التسامي)) أو الكبت الجنسي ضروري من أجل تقدم الثقافة أو قيام الحضارة.

وقد أوضحت الأفكار الجديدة فـي علـم الـنفس أن الطاقة الجنسية لا تتحول إلى عمل إنتاجي أو ثقافة أو فكـر خلاق ولكنها تنحرف عن مسارها الطبيعي لتتخـذ أشـكالا متنوعة من الانحراف الجنسية والعصاب والمشاكل النفسية.

ولا شك أن اعتراف محمد والفلسفة الإسلامية بحـق المرأة في الحياة والجنس لم تكن إلا نتيجة المكانة العالية التي كانت تتمتع بها المرأة العربية في ذلك الوقت، ومشـاركتها

---

(1) أبو حامد الغزالي، دار الشعب، القـاهرة، ١٩٧٠، ص ٦٩٨.

الإيجابية في مجالات الحياة خارج البيت وداخلـه، وبـروز شخصيات نسائية قوية متعددة.

ويا ليت النساء العربيات في كل مكان اليوم يقـرأن تاريخ العرب والفلسفة الإسلامية من منابعها الحقيقية وحيـاة النساء العربيات وحياة نسـاء النبـي ليـدركن أن الفلسـفة الإسلامية ارتكزت على قوة المرأة وإيجابيتها وإن المرأة في ذلك الوقت كانت أكثر شجاعة وإيجابية منها اليوم، وإن هذه السلبية التي فرضت عليهن ليست صفة أصلية فيهن، وهـذه الطاعة والخضوع لأزواجهن ليست فضيلة دينية أو أخلاقية، وهذا الخجل أو الخوف من الاعتراف بحقوقهن ليس إلا صفة مستحدثة بغير جذور.

ولتقرأ المرأة العربية الحديثـة المتـأثرة بالثقافـة الغربية أو الأدب الفكتوري المتزمت عن هؤلاء النساء اللائي لم يتحرجن من الاعتراف بحقهـن فـي الجـنس والمتعـة الجنسية.

ولتقرأ المرأة العربية المقلدة فـي أنوثتهـا السـلبية الضعيفة للقالب الذي وضعه فرويد للأنوثة، لتقرأ عن إيجابية وقوة هؤلاء النسـاء العربيـات وقـدرتهن علـى الـرفض

والاحتجاج إذا ما لاح لهن أن شيئا مس كرامتهن، وهل سمعت المرأة العربية الحديثة عن ((زينب بيت جحش)) إحدى زوجات ((محمد)) التي غضبت من زوجها يوما ورفضت قبول هديته مع أنه النبي، وحينما ضاعف لها الهدية ثلاثة أضعاف رفضتها أيضا وردتها إليه؟ عن عائشة قالت: ((ذبح رسول الله ذبحا فأمرني فقسمته بين أزواجه فأرسل إلى زينب بنت جحش بنصيبها فردته فقال: زيدوها ثلاثا، كل ذلك ترده، فقلت له: لقد أقمأت وجهك حين ترد عليك الهدية)) [1].

أما عائشة زوجة النبي فلا أظن أن أحدا يجهل كم كانت هذه المرأة قوية الشخصية قوية الحجة والبيان، ذكية، قادرة على مراجعة زوجها (وهو نبي) إذا أخطأ، إلى حد أن حفصة كانت ترى من حقها أن تراجع زوجها ((محمد)) بمثل ما تراجعه عائشة فاعترض عليها أحد الصحابة قائلا: ((لعلك تراجعين النبي بمثل ما تراجعه عائشة)) [2].

([1]) المصدر السابق، ص ١٣٧.

([2]) المصدر السابق ص ١٣٧.

ولم تكن عائشة تراجع زوجها فقط ولكنهـا كانـت تراجع الرجال وتعبر عن أفكارها بشجاعة وحريـة وفهـم وتعقل إلى الحد الذي جعل ((محمد)) يشـير إليهـا وهـو جالس بين الرجال قائلا لهم: خذوا نصف دينكم عـن هـذه الحميراء [1]. وقد اشتركت عائشة في الحرب والقتـال مـع المسلمين، وكان لها نشاط واسع في السياسة والثقافة والأدب إلى حد أن قال فقيه المسلمين عروة بن الزبير: ((ما رأيـت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة)) [2]، مع أن عائشة لم تصل إلى الثامنة عشرة من عمرها إلا بعـد وفـاة ((محمد)).

وكانت عائشة قادرة على مناقشة ((محمد)) في أي شيء، وكانت تختلف معه وتغضب حين كان يتزوج عليهـا امرأة أخرى، وتتمرد عليه، بل كانـت تحـرض زوجاتـه

([1]) اشتهرت عائشة باسم الحميراء لأن الحمرة كانت تغلـب على وجهها. انظر أحمد خيرت مركـز المـرأة فـي الإسـلام، دار المعارف، مصر، ١٩٧٥ ص ٦٤.

([2]) الشيخ عبد الله عفيفي، المرأة العربيـة فـي جاهليتهـا وإسلامها ج ٢ ص ١٣٩.

الأخريات أحيانا على التمرد عليه، وما قصة ((العسل)) [(١)] إلا نوعا من هذا التآمر، بل إن عائشة بلغت من جرأتها في مناقشة ((محمد)) أنها كانت تناقشه في الآيات القرآنية التي أحل فيها الله لمحمد أن يتزوج ما شاء من النساء وإنها اعترضت قائلة: إن الله يسارع لك فيما تريد.

((عن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب قال: لم يمت رسول الله ﷺ، حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء وهو قوله: ترجى من تشاء منهن. وعن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: لما نزل ترجى من تشاء منهن، قالت عائشة: إن الله يسارع لك فيما تريده)) [(٢)].

ولا يمكن أن ننكر أن مجتمعنا العربي فيه من النساء من ورثن عن عائشة ومثيلاتها قوتهن وإيجابيتهن وشجاعتهن، ولا يمكن أيضا أن ننكر أن عندنا من النساء من ورثن ((جميلة)) بنت ثابت زوجة عمر بن الخطاب الذي كان يصكها عمر فيلصق خدها بالأرض.

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ٥٩.

(٢) محمد بن سعد الطبقات الكبرى، ص ١٤٠، ١٤١.

إلا أن الأغلبية الساحقة من النساء العربيات قـد تـم ترويضهن وإخضاعهن عن طريق الإحكـام الأبويـة التـي فرضت عليهن الحجاب والاحتباس في البيت وعدم المشاركة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

الحب والجنس عند العرب

عرف عن الرجال العرب قبل الإسلام وبعـده أنهـم استمتعوا بحرية جنسية واسعة سواء داخل الزواج عن طريق تعدد الزوجات وحرية الطلاق، أو خارج الزواج عن طريق إباحة العلاقات الجنسية مع الجواري والإماء أو مـا ملكـت اليمين.

ولم تكن هذه هي صفة العرب وحـدهم دون سـائر الرجال في المجتمعات الأخرى، فقد أعطى الرجال أنفسـهم هذه الحرية الجنسية منذ بدء النظام الأبوي ونشـوء الأسـرة الأبوية، فهي حرية ترتبط بالنظام الأبوي أكثر ممـا تـرتبط بجغرافيا البلد أو بموقعه من الشرق أو من الغرب أو بجنسية القوم وما إذا كانوا من العرب أو العجم.

لكن الذين كتبوا عـن حيـاة العـرب سـواء مـن المستعمرين أو المستشرقين تجاهلوا هذه الحقيقـة قصـدا أو عدم معرفة، وصوروا حرية العرب الجنسـية كأنمـا هـي الحرية الجنسية الوحيدة فوق الأرض، وكأنما الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي أباح هذه الحريـة، وكأنمـا الرجـال العرب هم أول رجال في العالم يمارسون تعدد الزوجـات أو

يمارسون الجنس خارج الزواج. مع أن الرجال في كل زمان ومكان منذ نشوء الأسرة الأبوية قد مارسوا الجـنس خـارج الزواج سرا أو علنا، أو الاثنـين معـا، وبـالرغم مـن أن المسيحية كانت أكثر الأديان تقييدا للحرية الجنسية إلى حد أن العذرية لم تفرض على المسيح وأمه مريم العذراء فحسـب ولكنها فرضت أيضا على بعض رجال الكنيسة في فترة من الفترات، وبالرغم من ذلك فإن التاريخ يشـهد بـأن رجـال الكنيسة في هذه الفترة التي حرم فيها الزواج علـيهم كـانوا يمارسون في السر علاقات جنسية متعددة، وإن البغـاء فـي تلك الفترات المتزمتة انتشر انتشـارا كبيـرا، وقـد حـاول ((لوثر)) [1] إصلاح حال الكنيسة بعد أن لاحظ أن دخـل كنيسة روما يـأتي أساسـا مـن الضـرائب علـى بيـوت الدعارة،وقد آلمه أن يرى أن الكنيسة تمـد يـدها للشـيطان وتحصل منه على طعامه بل وتنتشي بهذه الإيرادات الملوثـة الشيطانية قصورها المهيبة المقدسة، ولعل أكثر ما آلمـه أن الدخل الرئيسي لحصيلة صندوق النذور في الكنـائس كـان يدخل عن طريق زبائن بيوت الدعارة الذين كـانوا يمـرون

(1) Enaratlones in Mose. WA ٤٣. ٣٤٤. ٢٥. ٣٥.

بالكنسية ويدفعون شيئا في صندوق النذور قبل ذهابهم إلـى المومسات، ابتغاء غفران الله عن الإثم الذي هم في طـريقهم إليه.

ومن المعروف في التاريخ أن البغاء لم يعرف ولـم يبدأ إلا ببدء النظام الأبوي [1]، فقد اقترن هذا النظام الأبـوي منذ نشأته بالبغاء، لأن البغاء ليس إلا الحل الوحيـد لنظـام يفرض زوجا واحدا على المرأة في حين يمنح الرجل حريـة جنسية مع نساء أخريات خلاف زوجته. إن الحـل الوحيـد لمثل هذا النظام هو خلق فئة من النساء يمارس معهن الرجال حريتهم الجنسية خارج الزواج، وإلا فمع من يمارس الرجال حريتهم؟

وعلى هذا أنشأ النظـام الأبـوي مؤسسـة البغـاء كضرورة لاستمراره، وأنشأ أيضا مع مؤسسة البغاء مؤسسة الأطفال غير الشرعيين، التي كانت تضم الأطفال النـاتجين عن علاقات الرجال الجنسية مع المومسات.

---

(1) T.E. james. Prosititution and the laq. W. Heinemann, Elisprost and Shurtz.

وكان على المومسات والأطفال غير الشـرعيين أن يكونوا كبش الفداء لهذا النظام الأبوي، وإن يدفعوا من حياتهم وكرامتهم وشرفهم الثمن الذي تطلبـه بقـاء هـذا النظـام واستمراره، وأما الرجال أنفسـهم أصـحاب هـذا النظـام ومؤسسوه فلم يكن نصيبهم من هذا الثمن شيئا سوى المتعـة والحرية الجنسية.

وربما كان الرجال العرب أكثر صدقا وصراحة من غيرهم لأنهم لم يسدلوا الستائر الكثيفة على حياتهم الجنسية، وعبروا عنها في الكثير من أدبهـم وشـعرهم وقصصـهم الشعبية، ولعل أشهر هذه القصص جميعا هي قصص ألـف ليلة وليلة، التي اتخذها بعض المسـتعمرين والمستشـرقين كمرجع عن حياة العرب، يستنتجون مـن بعـض أحـداثها الجنسية مفاتيح عن شخصية العرب، ويضعون مـن بعـض نوادرها قواعد للحكم على طبيعة العرب.

ومن المعروف أن قصص ألف ليلة وليلة تحكي عن بعض قطاعات المجتمع العربي منذ أكثر من عشرة قـرون، ولا يدري أحد بالضبط ماذا كان حال أوروبا في ذلك الوقت ويقول التاريخ إنه كان أسوأ حالا مما كان عليه الشـرق أو

الغرب، إلا أن بعض الأوروبيين أو الغربيين عن قصـد أو عن جهل تناسوا هذه الحقيقة حين أخذوا يقارنون بين الشرق والغرب، بل إن بعضهم قارن بين شخصية العرب في تلـك الفترة البعيدة وبين شخصية الغربيين في القرن العشرين، أو في العهد الفكتوري [١] حين كان التزمت فوق السـطح، والله أعلم بالسرائر. وكان الأجدر بهم أن يقارنوا حيـاة العـرب بحياة رجال أوروبا في تلك القرون، أو علـى الأقـل فـي القرون الوسطى حين كان الكهنة القضـاة يلقنـون النسـاء المتهمات بالسحر عبارات جنسية مثيرة، ولم يكن أمام هؤلاء النساء (إزاء التعذيب) إلا أن يعترفن بالجرائم الجنسية التي يلقنها لهن القضاة [٢].

وقد استمرت حتى اليوم تلك الصورة عن العـرب، وما من فيلم رأيته يصور حياة العـرب وأنتجتـه شـركات

---

(١) P.H. Newby A Selection From The Arabian Nights Entertainments T??????????? by Sir Rcthard Burtio. Lutroduction from p. vll to xvll pocket Books N. y. ١٩٥٤.

(٢) Tranz G. Aglxa nder and Shclodon. T. Selesninck. The Hlstore of psychiaity. P. ٨٩.

غربية إلا ويصور الرجال العرب وقد هرولوا وراء النسـاء يغازلونهن ويبعثرون أموالهم على شهواتهم الجنسية والسكر والعربدة، بل إن المرأة العربية أيضا تظهر في مثـل هـذه الأفلام [1] لعوبا تنثني وترقص ببطنهـا وتتعـرى وتغـري الرجل بشتى فنون الإغراء على نهج غانيات ألف ليلة وليلة وجواري هارون الرشيد في ذلك الوقت.

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الصور لا تمثل الرجال أو النساء العرب في عصرنا الحاضر، بل إني أعتقد أنها لا تمثل حياة الرجال والنساء في عهد هارون الرشيد، وربمـا هي تمثل حياة قطاع الملوك وجواريهم، في ذلك العهد، وهو قطاع صغير لا يمثل بحال من الأحوال الأغلبية الساحقة من الشعب العربي في تلك العهود. كما أن فسق الملوك الجنسي

---

(1) اعترضت في بعض المؤتمرات علـى عـرض هـذه الصورة غير الحقيقية للأغلبية الساحقة من النسـاء العربيـات، وفـي مؤتمر ((المرأة العربية)) الذي عقد في يونيو ١٩٧٦ بجامعة ويزلي ببوسطن بالولايات المتحدة عرض فيلم عن المرأة العربيـة مـن هـذا النوع وقد قدمت مع بعض الزميلات العربيات تقريرا للمؤتمر يحلـل هذه الظاهرة ويكشف أسبابها.

وغير الجنسي معروف فـي الغـرب والشـرق والشـمال والجنوب على حد سواء.

وعلى هذا فإن إطلاق الأحكام على طبيعة الإنسـان العربي واعتبار أن الرجال العرب أكثر من غيـرهم سـعيا وراء اللذة الجنسية إنما هي أحكام غير صـحيحة، غايتهـا تشويه صورة الشعوب العربية المجاهدة ضـد المسـتعمرين الأجانب.

ولست من الذين يعتقدون بـأن السـعي وراء اللـذة الجنسية إثم، ولست أنظر إلى الرجال أو النساء علـى أنهـم منحرفون،بل إنني أعتقد أن الانحـراف هـو تلـك النزعـة المسيحية والفكتورية المتزمتة التي جعلت اللذة الجنسية إثمـا وخطيئة. هذه النزعة التي اشتدت في فترة من الفترات إلـى حد اعتبار الولادة أو الطفل المولود مدنسا إلى أن يتم تطهيره بتلك العادة المسيحية الشائعة وهي التعميد Baptism هـذه النزعة التي خلفت وراءها حتى اليوم قيما صارمة متزمتـة ابتداء من الرهبنة إلى العفة العذرية إلى تأثيم الجنس.

على أن هذه القيم في كل العصور و العهود لم تكـن تسرى إلا على المحكومين لا الحكام، والنسـاء لا الرجـال،

والفقراء لا الأغنياء، وقد ساعدت هذه القيم بقيودها على الجسد والعقل أن تخضع للحكام والمستبدين والمستعمرين الأغلبية الساحقة من شعوب العالم نساء ورجالا، وكما ساعد النظام الأبوي في بدايته على مولد طبقة من الأسياد والعبيد ونشوء الإمبراطوريات والمستعمرات، فإن هذه القيم الصارمة قد ساعدت ضمن عوامل أخرى على إخضاع الشعوب كما استخدمت ولا تزال تستخدم حتى اليوم عند اللزوم لمقاومة ثورات النساء والطبقات الكادحة شبه المستعبدة في نضالهم المستمر، ضد النظم الإقطاعية ثم الرأسمالية بأشكالها المتعددة وما صاحبها من استعمار قديم أو جديد.

وقد كشف لنا التاريخ عن العلاقة الوثيقة بين الاقتصاد والدين أو الحاجات الاقتصادية والقيم الأخلاقية والجنسية، إن هذه القيم الجنسية الأخلاقية أو الدينية تتغير وتتبدل من عصر إلى عصر ومن مكان حسب الضرورات الاقتصادية وما يتبعها من ضروريات سياسية.

ولم تختلف المجتمعات الشرقية والعربية عن المجتمعات الغربية في أن الضرورات الاقتصادية هي التي

تتحكم في القيم الأخلاقية والجنسية. وقد اقتضت الضرورات الاقتصادية في المجتمع العربي حرية جنسية واسعة للرجـال من أجل زيادة النسل. والمعروف أن تعدد الزوجات للرجـل يزيد النسل أما تعدد الأزواج للمرأة فهو يقلل النسل، وكـان المجتمع العربي يعاني من ارتفاع شديد في نسـب الوفيـات وعليه أن يعوض هذا بارتفاع في نسب المواليد، كما أن قوة القبائل الاقتصادية والاجتماعية والقتالية كانت تقوم على القوة العددية أساسا في مجتمع لم يكن يعـرف الآلات والأسـلحة الحديثة بعد، وفي تلك المجتمعات الصحراوية الفقيرة نسبيا لم يكن الأطفال يمثلون عبئا ماديا بل كانوا أدوات إنتاج للعمـل برعي الإبل والماشية.

وكانت هذه القبائل كثيرة الحروب كشأنها من القبائل الأخرى. وقد اشتدت هذه الحروب بعـد ظهـور الإسـلام ومحاولة أصحاب الديانات القديمة محاربة أصـحاب الـدين الجديد ودفاع أصحاب الدين الجديد عن دينهم، ثم ما تبع ذلك من انتصار المسلمين وبدئهم إنشاء الدولة الإسلامية ونشـر الإسلام وذلك بغزو البلاد الأخرى، كل ذلك أدى إلى أن يقتل في هذه الحروب رجال كثيرون من العرب وأن يزيد عـدد

النساء على عدد الرجال، بالإضافة إلى تلك الأعداد الكبيـرة من أسيرات الحـرب اللائـي كـان يعـود بهـن الرجـال المنتصرون في الغزوات.

وكان الحل الطبيعي في نظر المجتمع في ذلك الوقت هو أن يتزود الرجل أكثر من امرأة وأن يتخذ مـن أسـرات الحرب ما يشاء من الزوجات والجواري أو السـراري كـل حسب مقدرته. ولم تكن مقدرة كل رجـل كـالآخر بطبيعـة الحال، إلا أن مثل هذه الظروف قد دعت الرجال العرب إلى التفاخر بقدراتهم في هذا المجال، وفي جذب النساء وزواجهن أو عشقهن فتحسب، ودعت أيضا النساء إلى التبـاري فـي جذب الرجال وإيقاعهم في شرك الحب والجنس.

وكانت المرأة العربية بصفة عامة تميل إلى الإيجابية في الحب والجنس أكثر من السلبية المستحدثة، بسبب تراثها الأمومي في المجتمع غير البعيد، وبسبب أن الدين الإسلامي لم ينزع إلى تأثيم الجنس كما فعلت المسيحية بـل وصـف المتعة الجنسية بأنها إحدى زينات الدنيا ومباهجهـا وإحـدى مباهج الجنة في الآخرة. وقد نتج عن كل ذلـك أن المـرأة العربية لم تكن تتردد كثيرا في إظهار إيجابيتهـا الجنسـية،

وقدرتها على الإيقاع بالرجال في شركها. ولعلها أيضا كانت تريد أن تؤكد أو تقلد أمها حواء في قـدرتها الفائقـة علـى الإيقاع بآدم وإسقاطه صريع ((فتنتها)) من السـماء إلـى الأرض، وكلمة ((الفتنة)) بالعربية هنا معناها ((جاذبيـة المرأة الشديدة)).

وقد ارتبطت كلمة ((المرأة)) عند العـرب بكلمـة ((الفتنة)) وبلغ من شدة إيجابية المرأة العربية وفتنتهـا أن ارتكزت الفلسفة الإسلامية على قـوة الجنسـية وجاذبيتهـا وفتنتها التي يمكن أن تحدث الفتنة في المجتمع وتحطم النظام الذي أوجده الله. وعلى هذا فإنه لا بد حتى تسـتقيم الحيـاة وحتى لا يتهدد نظام المجتمع أن يرضـي الرجـل رغبـات زوجته الجنسية، وأن يحافظ على شرفها، فإن شرف المـرأة هو واجب الرجل، وعلى الرجل أن يشـبع حاجـة المـرأة الجنسية حتى لا تحدث الفتنة ويطمئن الرجال إلـى فضـيلة النساء، وفي ذلك يقول الغزالي: ((نعم ينبغـي أن يزيـد أو

ينقص حسب حاجتها أو التحصـين، إن تحصـينها واجـب عليه)) [1].

لكن الإمام الغزالي يعود فيصرح بأن إشباع حاجـة المرأة الجنسية أمر صعب بل شديد الصعوبة: ((فذلك لعسر المطالبة والوفاء بها)).

ويكاد يتفق الغزالي هنا مع بعض الآراء الحديثة عن القوة الجنسية لدي المرأة وصعوبة إشباعها، ويتفق أيضا مع إدراك الرجل البدائي لهذه القوة وخوفه منها منذ زمن بعيـد جدا ومن ثم حرصه الشديد على تحويطها بالقيود والسلاسل.

بل إنه يتفق أيضا مع الأفكار العلمية القائلة بسـلبية المرأة في الجنس وإنها تنتظر دائما الرجل وتسـتجيب لـه فحسب وتصل إلى اللذة دون أن تقذف. ويقول الغزالـي إن المرأة تقذف كالرجل ولكن على نحو مختلف، وإن المرأة في قذفها أبطأ من الرجل [2] يقول: ((ثـم إذا قضـى وطـره فليتمهل على أهله (زوجته) حتى تقضي هي أيضا نهمتها،

([1]) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، المكتبة التجاريـة الكبرى القاهرة ص ٥٠.

([2]) المصدر السابق.

فإن إنزالها ربما يتأخر فيهيج شهوتها. ثم القعود عنها إيـذاء لها، والاختلاف في طبع الإنزال يوجب التنافر مهمـا كـان الزوج سابقا إلى الإنزال، والتوافق في وقـت الإنـزال ألـذ عندها)). ويول الإمام الغزالي إن الجنـين لا يتكـون مـن الحيوان الذكري وحده وإنما من اتحاد مـاء الرجـل ومـاء المرأة، وإن ماء المرأة هو العنصر الحاسـم)) [1] ويقـول: ((الولد لا يخلق من مني الرجل وحده بـل مـن الـزوجين جميعا إما من مائه ومائها.. وكيفما كان فماء المرأة ركن في الانعقاد فيجري الماءان مجرى الإيجاب والقبول في الوجـود الحكمي في العقود.. وكما أن النطفة في الفقار لا يتخلق منها الولد فكذا بعد الخروج من الإحليل ما لم يمتزج بماء المـرأة ودمها، فهذا هو القياس الجلي)).

ومن هنا ندرك كيف تركزت الفلسفة الإسلامية على أفكار أكثر تقدما من الفلسفات السابقة عليها، وكيف اعترفت بإيجابية المرأة في الجنس وفي عملية الإخصاب وهي بـذلك

---

(1) الغزالـي، إحيـاء علـوم الـدين، المكتبـة التجاريـة الكبرى ٢ ٥١.

لم تتفوق على فلسفة أرسطو [1] فحسـب، (الـذي رأى أن الجنين يتكون من الحيوان المنوي الذكري فقط لا يحتـاج إلا إلى تجويف داخلي ((الرحم)) من أجل أن ينمو) ولكنهـا تفوقت أيضا على النظريات البيولوجية والنفسـية (فرويـد وتلاميذه) التي وصفت المرأة بالاستجابة السلبية فقط، أمـا الرجل فهو الفاعل الإيجابي، ويعبر فرويد عن هذه السـلبية قائلا: ((إن حيوان الذكر المنوي يتحرك بنشاط ويبحث عن الأنثى، أما بيضة الأنثى فهي سـاكنة لا تتحـرك وتنتظـر بسلبية)) [2].

إلا أن الإسلام مثله مثل الأديان السابقة عليه قد ورث الفكرة القديمة التي ألصقت تهمة الشيطنة لحـواء وللنسـاء جميعا من بعدها. ومن الأحاديث الشائعة عند العـرب هـذه العبارة: ((ما اجتمع رجـل وامـرأة إلا وكـان الشـيطان ثالثهما)).

---

(1) Borren. P. ١٩٩.

(2) Sigmund Freud, New lntroductory lectures on psycho analysis. College Edition, New York: Norton and Co., ١٩٩٥

بل لقد صور النبي ((محمد)) فتنة المرأة وجاذبيتها القوية كأنما هي الشيطان فقال في أحد أحاديثه: ((إن المرأة إذا أقبلت أقبلت بصورة شيطان فـإذا رأى أحـدكم امـرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها)) [1].

وقد فسر الغزالي وغيره من فلاسفة الإسلام الحديث النبوي هذا بأن الرسول كان يشير إلى جاذبية المرأة التي لا تقاوم إنها وضعها الله في روح الرجل، وإنه كان يشير إلـى اللذة التي يشعر بها الرجل حين ينظر إلى المرأة، وإلى اللذة التي يشعر بها إزاء كل ما يتعلق بـالمرأة، والمـرأة تشـبه الشيطان في قدرته على الإنسان التي لا تقاوم.

وقد سادت هذه الفكرة في الفلسفة الإسلامية بصـفة عامة، وأصبحت المرأة، والى اللذة التي يشعر بها إزاء كـل ما يتعلق بالمرأة، والمرأة تشبه الرجل أمام هذه الفتنة عـاجز سلبي، هي فكرة قديمة لكنها برزت فـي الفلسـفة والثقافـة الإسلامية ودعمت بالأحاديث والحكم.

([1]) أبو حامـد الغزالـي، دار الشـعب، القـاهرة ١٩٧٠، ص ٦٩٦.

ومن هنا أصبحت المرأة في نظر العرب خطرة على الرجل وعلى المجتمع وكان لا بد من عزلها في البيت بعيدا عن الرجال وعن المجتمع، أو حماية الرجال منها إذا خرجت من أسوار السجن وذلك بتغطيتها ولفها بالعباءة والحجاب كما تغطى وتلاف القنابل الخطرة. وقد بلغ مـن تغطيـة المـرأة بالكامل في بعض المجتمعات العربية إلـى حـد أن ظهـور إصبع من أصابع يـدها أو قـدمها كـان كفـيلا بإحـداث ((الفتنة)) في المجتمع. وكلمة ((الفتنة)) هنـا لا تعنـي ((جاذبية المرأة الشديدة)) ولكنهـا تعنـي ((الفوضـى)) والاضطراب والشغب وانهيار المجتمع ونظامه.

وعلى هذا يمكن القول إن الإسلام وضـع الفلاسـفة المسلمين أمام حقيقتين متناقضتين هما:-

إن الجنس إحدى متع الدنيا وزينتها وضرورة للتناسل وتقوية المجتمع.

إن الاستسـلام لهـذا الجـنس يقـود إلـى الفتنـة والاضطراب في نظام المجتمع.

ولم يكن حل أمام هذين القطبـين المتنـافرين إلا أن يوضع للجنس نظام معين لا يقود إلى الفتنة وإنما يقود إلـى

التناسل والمتعة في الحدود التي وضعها الله، وأولها خشـية الله، كما يعبر عن ذلك أحد زعماء فلاسفة المسـلمين وهـو الإمام الغزالي الذي يقول: [1] ((فالنكاح بسبب دفـع غائلـة الشهوة مهم في الدين لكل مالا يؤتى عن عجز وعنة، وهـم غالب الخلق، فإن الشهوة إذا غلبت ولم تقاومها قوة التقـوى، جرت إلى اقتحام الفواحش، وإليه أشار بقوله عليه السلام عن الله تعالى: ﴿**إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**﴾.

لكن الغزالي يعود ويقول إن هذه الرغبة الجنسية وما ينطوي عليه إشباعها من لذة ومتعة هي إحدى متع الجنـة التي وعدنا بها الله، ومن أجل دخول الجنة علينا توجيه هـذه الطاقة الجنسية لعبادة الله وفي أعمال الخير والدين، ويقـول: ((ولعمري في الشهوة حكمة أخرى سـوى الإرهـاق إلـى الإيلاد، وهو ما في قضائها من اللذة التي لا توازيها لذة لـو دامت، فهي منبهة على اللذات الموعـودة فـي الجنـان، إذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذواقا لا ينفع فلو رغب العنين في لذة الجماع أو الصبي في لذة الملـك والسـلطنة لـم ينفـع

---

(1) الغزالي، إحياء علوم الـدين، دار الشـعب، القـاهرة، ١٩٧٠، ص ٦٩٤.

الترغيب، وإحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة في دوامهـا فـي الجنة ليكون باعثا على عبادة الله)) [1]. إن هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام، فيستحث على العبادة الموصلة إليها فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها، بتيسر المواظبة على ما يوصله إلى نعيم الجنان)) [2].

ويشرح الإمام الغزالي حكمة الله وإرادته من خلـق هذه الرغبة الجنسية عند كل من الرجل والمـرأة وإن هـذه الحكمة والإرادة قد تجلت على لسان رسول الله حـين قـال: ((تناكحوا تكاثروا)) فكيف وقد صرح بالأمر، وباح بالسر، فكل ممتنع عن النكاح معرض عن الحراثة مضـيع للبـذر، معطل لما خلق الله من الآلات المعدة وجان علـى مقصـود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الخلقة، المكتوبة علـى هذه الأعضاء بخط إلهي)) [3].

---

[1]) الغزالي، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠، كتاب آداب النكاح ص ٦٩٤.

[2]) المصدر السابق.

[3]) أبو حامد الغزالي دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ ص ٦٨٩.

ومن فوائد الزواج بعد فائدة التناسل يقول الغزالـي: ((التحصين عن الشيطان وكسر التوقان، ودفع غائلة الشهوة وغض البصر وحفظ الفرج وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: ((**من نكح فقد حصن نصف دينه فليتـق الله فـي الشـطر الآخر**)) [1].

وتعترف الفلسفة الإسلامية بقوة الشهوة الجنسية عند المرأة وعند الرجل أيضا قال فياض بن نجيح إذا قـام ذكـر الرجل ((عضو الرجل الذكري)) ذهب ثلثا عقله وبعضـهم ذهب ثلث دينه وفي نوادر التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما: ((ومن شر غاسق إذا وقـب)) قـال قيـام الـذكر (العضو الذكري) وهذه بلية غالبة، وإذا هاجت لا يقاومهـا عقل ولا دين.. فهي أقوى من آلة الشيطان علـى بنـي آدم وإليه أشار عليه السلام بقوله: ما رأيت من ناقصـات عقـل ودين أغلب لذوي الألباب منكن. [2].

وقال عليه السلام: ((لا تدخلوا على المغيبات وهـن اللواتي غاب أزواجهن عنهن فإن الشيطان يجري من أحدكم

---

(1) المصدر السابق ص ٦٩٣.

(2) المصدر السابق ص ٦٩٥.

مجرى الدم.. قلنا ومنك قال: ومني ولكن الله أعانني عليـه فأسلم)) [1].

ويتضح هنا كيف كـان العـرب يناقشـون محمـدا ويعاملونه بالمثل كبشر مثلهم فإذا قال لهم إن الشيطان يجري في دمائهم قالوا له: ويجري في دمائـك أيضـا.. ويعتـرف محمد بأنه مثلهم فيما عدا أن الله أعانه على الشيطان فأسـلم ((وأسلم)) هنا تعود على الشيطان أي شيطان محمد كـان مسلما.. وقد أكد محمد هذا المعنى حين قال: فضلت على آدم بخصلتين. كانت زوجته عونا له على المعصية، وأزواجـي أعوان لي على الطاعة، وكان شيطانه كافرا وشيطاني مسلما لا يأمر إلا بخير [2].

ونرى من ذلك كيف ورث الإسلام النظرة إلى حواء الآثمة التي عصت الإله وارتباط الجنس بالشـيطان بـالمرأة أساسا.. أما الرجل فهو وإن كان ينطوي على شهوة جنسـية طاغية أيضا إلا أنه لا يمارس الإثم إلا بسبب فتنـة المـرأة

([1]) المصدر السابق ص ٦٩٦.

([2]) أبو حامـد الغزالـي دار الشـعب القـاهرة ١٩٧٠ – ص ٧٠٠.

وشيطنتها وعليه أن يتزوج ليدفع عنه شرور الشيطان وفتنـة المرأة.

ويدعو الإسلام الرجال إلى الـزواج وقـال محمـد رسول المسلمين: ((**النكاح سنتي فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي**)) [1].

ورغم اعتراف الإسلام بالشهوة الجنسية عند كل من المرأة والرجل إلا أنه حين وضع القيود وضعها على المرأة فقط، ونسي اعترافه السابق بقوة رغبتها.

ولم ينس الإسلام أبدا أن الرجل له رغبة جنسية قوية فوضع له الحلول التي تضمن إشباعه وأحـل لـه ممارسـة الجنس بالكثرة ومع أي عدد من النساء يشاء عن طريق تعدد الزوجات ونكاح الإماء والجواري وإباحة الطلاق له بسهولة.

وقد شهد تاريخ العرب المسلمين هؤلاء الرجال الذي ينكحون من النساء مئات ومئات.. ويقول الغزالي: ((يقـال إن الحسن بن علي كان منكاحا حتى نكح زيادة على مـائتي امرأة.. وكان ربما عقد على أربع في وقت واحـد، وربمـا

([1]) المصدر السابق ص ٦٨٣.

طلاق أربعا في وقت واحد، واستبدل بهن، وقـد قـال عليـه الصلاة والسلام للحسن ((أشبهت خلقي وخلقي)) [1].

وقد قال محمد عن نفسه إنه أعطى قوة أربعين رجلا في الجماع [2]، واعترف الغزالي بأن شهوة الرجل قوية وإن ((من الطباع ما تغلب عليها الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصـاحبها الزيـادة علـى الواحـدة إلـى الأربع))[3].

وكان من زهاد الصحابة من يفطر من الصوم علـى الجماع قبل الأكل وربما جامع قبل الآن يصلي المغرب ثـم يغتسل ويصلي، وذلك لتفريغ القلب لعبادة الله وإخراج غـدة الشيطان منه [4].

وقال الغزالي أيضا: ولما كانت الشهوة أغلب علـى مزاج العرب أبيح نكاح الأمة عند خوف العنت، مع أن فيـه

---

(1) المصدر السابق ص ٦٩٧.

(2) محمد بن سعد الطبقات الكبرى جـزء ٨ دار التحريـر القاهرة، ١٩٧٠ ص ١٣٩.

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر السابق ص ٨٩٦.

إرقاق الولد وهو نوع إهلاك وهو محرم على كل من قـدر على حرة وكان إرقاق الولد أهون من إهلاك الدين [1].

وكأنما الدين لا يبقى إلا إذا نكح الرجل ما شاء مـن النساء على حساب مصلحة الأطفال. ونـرى هنـا تسـاهل الفلسفة الإسلامية مع الرجل لإشباع رغبتـه الجنسـية وإن كانت على حساب إرقاق الولد، وإن كانت على حساب ظلـم البريء الذي لا ذنب له وإن كانت علـى حسـاب المـرأة ((العبدة)) التي ليست لها حقوق الزوجـة ولـيس لطفلهـا حقوق الطفل الذي ولدته المرأة الحرة.

والسؤال هنا لماذا تساهل الدين مع الرجل كل هـذا التساهل؟ لماذا لم يطالب الدين الرجل أن يكبح جماح شهوته والاقتصار على زوجة واحدة كما فعل مع المـرأة وفـرض عليها زوجا واحدا مع أنه سبق واعترف بأن المـرأة لـديها شهوة جنسية مثل الرجل وربما أشد؟ لماذا تساهل الدين مـع الرجل إلى حد التضحية بمصلحة الأطفال ومصلحة الأسـرة ومصلحة النساء على حين أنه تشدد مع المرأة تشددا بلغ حد القتل إذا ما لاح للمرأة أن تنظر إلى رجل غير زوجها؟.

---

(1) المصدر السابق.

وقد جعل الإسلام النكاح أو الزواج المؤسسة الوحيدة التي يمارس داخلها الجنس بين المرأة والرجل، وأي شـيء خارج هذه المؤسسة إثم وفحش. بل إن الصـبي أو الرجـل الذي لم يؤهله المجتمع للزواج أو الذي لا يقدر على شـراء ((أمة)) أو عبدة من سوق الجـواري فإنـه يسـتطيع أن يصرف طاقته الجنسية بطريقته الخاصة، أو بيده بما سـمي العادة السرية أو الاستمناء باليد.

وسئل ابن عباس عن الاستمناء باليد فقال: أف وتف! نكاح الأمة خير منه وهو خير من الزنا.. فهذا تنبيه على أن العزب المغتلم مردد بين ثلاثة شرور أدناها نكاح الأمة وفيه إرقاق الولد وأشد منه الاستمناء باليد وفاحشة الزنا [١].

رغم هذه الشرور الثلاثة التي أبيح منها نكاح الأمـة وإرقاق الولد فقد كانت مؤسسة النكاح للرجال تختلـف عـن مؤسسة النكاح للنساء وحقوق الزوج غير حقوق الزوجة.

والحق إنه من الخطأ أن نستخدم اصـطلاح حقـوق الزوجة لأن الزوجة كإنسانة ليس لها حقوق في ظـل نظـام

---

(١) أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين، دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ ص ٦٩٧.

الزواج إلا إذا كان العبد له حقوق في ظل الـرق أو النظـام العبودي.. والزواج بالنسبة للمرأة كالرق سواء بسواء.

وقد عبر عن ذلك فيلسوف المسلمين الإمام الغزالـي حين قال تحت عنوان حقوق الزوج على زوجته: ((والقول الشافي فيه أن النكاح نوع من الرق، فهي رقيقة لـه فعليهـا طاعة الزوج مطلقا في كل ما طلب منها نفسها)) [1].

وقال محمد رسول المسلمين: ((أيما امـرأة مـات وزوجها عنها راض دخلت الجنة)) [2].

وحقوق الزوجة في الإسلام هي أن يعـدل زوجهـا بينها وبين زوجاته الأخريات، هذا العدل الذي يستحيل تحقيقه كما ذكر القرآن [3] ((ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النسـاء ولو حرصتم)).. وكان النبي محمد نفسـه يفضـل بعـض زوجاته على البعض وقد أكد بعض رجال الدين الإسـلامي

([1]) أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين دار الشعب القـاهرة ١٩٧٠ ص ٧٤٦ (كلمة رقيقة هنا معناها عبدة وهي مشتقة من كلمـة الرق).

([2]) المصدر السابق.

([3]) القرآن في سورة النساء الآية ١٢٩.

الذين عارضوا تعدد الزوجات قائلين إن شرط التعدد مرهون بما يستحيل تحقيقه وهو شرط العـدل بـين الزوجـات لأن الرجل يرغب في الزوجة اللاحقة أكثر من السابقة وإلا فمـا تزوجها، وإن العدل المنصوص عليه هو العدل في المحبـة، أو عدم الميل إلى امرأة أكثر من الأخرى)) [١].

ويرى بعض المفسرين أن المقصـود بالعـدل فـي الآيتين الأخريين: ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنـى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة**﴾ ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** ﴾ [٢] هو العدل في القسم والنفقة وليس العدل في المحبة الباطنة [٣].

والسؤال الذي يسأل هنـاك أيهمـا أهـم للمـرأة أو الإنسانة التي تحترم إنسانيتها وكرامتها.. العدل في توزيـع بعض القروش أم العدل فـي المحبـة الطبيـة والمعاملـة الإنسانية؟ وهل الزواج مجرد أن تحصل الزوجة على بضعة

---

(١) الزمخشري جزء ١ ص ١٤٣ جزء ٥ ص ٤٠٧، ٤٠٨.

(٢) القرآن سورة النساء الآية ٣ و ١٢٩.

(٣) القرطبي جزء ٥ ص ٢٠ – ٢٢، الجلالين جزء ١ ص ٢٧، الحصاص أحكام القرآن.

قروش أم الزواج تبادل عميق في المشـاعر بـين الرجـل والمرأة؟

ولو فرضنا وقوع المستحيل جدلا وهو العـدل بـين الزوجات.. فهذا الحق يجب ألا يسمى حقا لأن أول صفة في الحق هو أن يكون عدلا ومتسـاويا بـين الأفـراد وتعـدد الزوجات مع تنفيذ شرط العدل، يعني أن نصيب المرأة ربع رجل على حين أن نصيب الرجل ٤ نساء، إما أن تتسـاوى النساء في الظلم فمثل أن يتساوى العبيـد فـي ظـل نظـام العبودية الظالم وهذا لا يمكن أن يسمى عدلا أو حقا.

وكما وجد نظام الرق لصالح السيد ومنفعتـه ضـد مصالح العبد فقد وجد نظام الزواج الأبوي لصـالح الرجـل ومنفعته ضد مصالح المرأة والأطفال أيضا.

وعن فوائد الزوج للرجل يقـوم الإمـام الغزالـي: ((تفريغ القلب عن تدبير المنـزل والتكفل بشـغل الطـبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب المعيشة فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليها العـيش فـي منزله وحده إذا لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضـاع أكـر أوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصـالحة المصـلحة

للمنزل عون على الدين بهذه الطريق واختلال هذه الأسـباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش.. ولـذلك قـال سليمان الداراني: الزوجة الصالحة ليست من الـدنيا فإنهـا تفرغك للآخرة وإنما تفريغها بتدبير المنزل وبقضاء الشـهوة جميعا [1].

ونفهم من هذا أن الزوج لا يمكن أن يتفرغ للدين أو للعلم إلا إذا كانت له زوجة تتفرغ لأعمال منزلـه وخدمتـه وأكله وتنظيف ملابسه.. والسؤال هنا هو: والزوجة..؟ كيف تتفرغ الزوجة للدين والعلم؟.

ويتضح لنا أن أحدا لم يفكر في هذا وكان المفروض أن الزوجة ليس لها وظيفة في مجـال الـدين والعلـم وأن وظيفتها الوحيدة في الحياة هي الكـنس والطـبخ والغسـيل وتنظيف الأواني وغير ذلك من الأعمال التي أطلـق عليهـا الغزالي اسم الشواغل والمشوشات للقلب والمنغصات للعيش، ولو أن الرجل قام بها لضاع وقته وتعذر عليه العمـل فـي مجالات العلم والدين.

---

(1) الغزالي المصدر السابق ص ٦٩٩.

ونرى هنا كيف تم إلغاء عقـل المـرأة وطموحهـا الفكري والعلمي والثقافي من أجل أن يتفرغ الرجل في هـذه المجالات، ويفرض الرجال على المرأة الأعمال المنزلية أي الشواغل والمشوشات والمنغصات التي تبلد العقل ثم يقولون عنها ناقصة عقل ودين.. وتقوم الزوجة بكل هـذه الأعمـال بغير أجر إلا طعامها، ولا يقتصر الزوج على استغلال عقل المرأة عن طريق إلغائه وعدم تنميته بالعمل والمعرفـة، ولا يقتصر على تسخيرها في أعمال الخدمة بغير أجـر ولكنـه استغل المرأة أيضا في إشباع شهوته الجنسية تنظير طعامها أيضا وبالقدر الذي يريده منها... ويدخل ذلك ضمن واجبات الزوجة، فالزوجة يجب أن تلبي رغبة زوجها في أي وقـت فإن عجزت أو مرضت أو غضـبت أو امتنعـت أو منعهـا أولياؤها يحق له أن يطلقها وتسقط نفقتها.

ويدخل ضمن واجبات الزوجة.. طاعة زوجها طاعة مطلقة، لا يحق لها أن تناقشه أو تسأله أو تخالفه، أما الرجل فإنه لا يطيع زوجته بل من الخير ألا يطيع زوجته بل مـن الخير ألا يطيع الرجل زوجته.

وقال عمر بن الخطاب: ((خالفوا النساء فإن خلافهن بركة)). وقد قيل شاوروهن وخالفوهن. وقال عليه السـلام ((تعس عبد الزوجة)). وقال الحسن: والله ما أصبح رجـل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبه الله في النار [١].

ومن حقوق الزوجة أن يدفع لها الرجل شـيئا مـن المال (سمي المهر) حين يتزوجها ويدفع لها شيئا من المال (سمي النفقة) حين يطلقها وعليـه أن يطعمهـا ويكسـوها ويسكنها في منزل.. وليس على المرأة أن تشترط مواصفات لهذا المنزل فقد يكون هذا المنزل مجرد خُـص أو كـوخ... حسب مقدرة الزوج المالية وليس لها أن تشـترط المهـر أو النفقة أو نوع طعامها أو ملابسها فكل ذلك يحـدده الرجـل حسب مقدرته المالية.

وللأم في الإسلام أن تطلب أجـرة علـى إرضـاع طفلها[٢] وعلى الأب أن يؤدي لها الأجرة من ماله إذا لم يكن

---

(١) المصدر السابق ص ٧٠٦.

(٢) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الإسلام وتنظيم الوالدية، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية المكتب الإقليمي للشرق الأوسط شـمال إفريقيا ١٩٧٤ – الجزء الثاني ص ٨٤.

للطفل مال وإلا فمن مـال الطفـل، ولا تجبـر الأم علـى الإرضاع وإنما تستحق الأم الأجرة إذا طلبتها إذا لـم توجـد امرأة متبرعة بإرضاعه ورضي بها الأب.. وإلا فإذا وجدت امرأة متبرعة رضي بها الأب فليس للأم إذا اختارت إرضاع طفلها أن تطلب أجرة على الإرضاع.

ونرى هنا أن رضا الأب هو العنصر الحاسم وهـو يستطيع أن يمنع الأم من إرضاع طفلها إذا طلبت أجرا ويأتي بمرضعة أخرى أقل أجرا أو بغير أجر.

وتستحق الأم كذلك أجـرا علـى حضـانة طفلهـا (الحضانة تعني هنا تارة إرضاع الطفـل وتـارة خدمتـه وتربيته) إلا إذا وجد متبرع بالحضانة فليس لها فـي هـذه الحالة أن تطلب أجرا إذا أرادت أن تتولى الحضانة بنفسها.

ولا تمثل مثل هذه الحقـوق الضـئيلة المشـروطة بشروط صعبة التحقيق شيئا يذكر بل إنها تعطي الرجل حق الاستغناء عن الأم فورا إذا طلبت أجرا، وهذا الشرط يفرض على النساء الإرضاع والحضانة بغيـر أجـر.. فالأغلبيـة الساحقة من النساء بسبب التربية الأبوية الصارمة وتضـخيم المجتمع لوظيفة الأمومة وجعلها مقدسة لا يسـتطعن إلا أن

يضحين في سبيل أطفالهن بكل شيء حتى حياتهن فما بـال مجرد الأجر؟

إن استغلال الزوجة والأم يتمثل في أنها تقوم بعـدد من الوظائف الهامة بغير أجـر.. فهـي طباخـة وغسـالة ومرضعة وحاضنة ومربية بالإضافة إلى أداة جنس وإمتـاع لزوجها، كل ذلك بغير أجر اللهم إلا طعامهـا وكسـاءها أي أبخس أجر يمكن أن يحصل عليه الأجير.

إن استغلال المرأة يقوم على أن الرجل يـدفع لهـا أبخس أجر، والرجل هو الذي يحدد ما يدفع، قد يكون قروشا وقد يكون طعاما أو كساء لكنه شيء يدفعه الرجل ويبرر به سيادته على المرأة فالرجال قوامون على النساء بما أنفقوا من أموالهم.

فرضت سيادة الرجل على المرأة بسبب قروش تدفع وفرض على المرأة زوج واحد حفاظا على قروش الرجـل من أن يرثها أطفال غير أطفاله.. فالحفاظ على القـروش أو الإرث هو الذي وراء تلك القوانين الصارمة المتشددة التـي تنشد إخلاص الزوجة لزوجها حتـى لا تخـتلط الأنسـاب.. وليس من أجل الحب بين الزوجين.. لأنه لو كان الحب بـين

الزوجين هو الأساس الذي يقوم عليه الإخلاص من المـرأة فقط ويفرض عليها زوج واحد على حين يباح لزوجها تعـدد العلاقات فإن هذا دليل على أن الإخلاص الزوجي ليس قيمة أخلاقية ولكنه إحدى وسائل القمع الاجتماعي للزوجة حتى لا تختلط الأنساب، والأنساب هنا هي أنساب الرجال فقـط، إن عدم إخلاص الزوجة لزوجها سوف يحطم على الفور النسب الأبوي وما يتبعه من إرث.

ومعنى ذلك أن الفلوس هي التي تفرض الأخـلاق.. والمفروض في الأديان وفي الإسلام أن الأخلاق ترتكز على المبادئ الإنسانية وليس على الفلوس.. وقد نـص القـرآن: ﴿... **وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى** ﴾[1]، و ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾.

وقد أدركنا من قبل كيف فطن المجتمع إلى الطبيعـة البيولوجية والجنسية القوية للمرأة. التي شبهها بقوة الشيطان، ومن هنا لم يكن في استطاعة المجتمع أن يفرض إخـلاص المرأة وعفتها إلا بأن يحول بينها وبين جميـع الرجـال إلا زوجها، والرجال المحرمين عليها مثـل الأب والأخ والعـم

(1) القرآن الكريم سورة سبأ الآية ٣٧.

والخال، وهذا هو السبب في نشوء ظـاهرة الفصـل بـين الجنسين وتحريم اختلاط الرجال بالنساء وذلك بحبس النساء في البيوت. إن تحريم خروج النساء من البيوت يحقق ثلاثـة أهداف في وقت واحد هي:-

يضمن إخلاص المرأة وعفتها لعدم اختلاطها برجل غريب.

يفرغ المرأة تماما لأعمال البيـت وخدمـة الرجـال والأطفال والمسنين.

يحمي الرجال من خطر النسـاء وفتنـتهن القويـة المهلكة التي قد تذهب ثلثي عقله وتمنعه من التفكير فـي الله والدين والعلم كما قال بعض الفلاسفة في الإسلام.

ويستعير فلاسفة الإسلام من أسـطورة آدم وحـواء معظم أفكارها فيرون المرأة مثل حواء قد انطوت على قـوة مهلكة للرجل وللمجتمع وللدين، وإن الحضارة قد بنيت على صراع ضد هذه القوة لتخضعها من أجل حماية الرجال منها وعدم انشغالهم بها عن واجباتهم تجاه الله والمجتمع.

ومن أجل الحفاظ على المجتمع والدين كان لا بد من فصل الجنسين وإخضاع النساء بالحديد والنار كما يقولـون.

فالحديد والنار وحدهما اللذان يستطيعان أن يخضـعا العبيـد لأحكام ظالمة قائمة على الاستغلال. وحال المرأة في الزواج أسوأ من العبيد لأنها تستغل جنسيا واقتصاديا في آن واحـد، بالإضافة إلى القهر الأخلاقي والديني والاجتمـاعي. وينـال العبيد عن جهدهم بعض الأجر أو الجـزاء، لكـن الزوجـة تنهض بأعمال الخدمة والبيت ورعاية الأطفال والمسنين بغير أجر، والعبيد قد يطلق سراحهم السـيد فيصـبحون رجـالا أحرارا لهم كل حقوق الرجال الأحرار وأولها أن الرجل لـه عقل ودين.. أما النساء وطالما هن نساء فـلا أمـل فـي أن يكون لهن عقل الرجل ودينه.

ولأن الرجل أعقل من المرأة فقد أصبح مـن حـق الرجل وحده (وليس المرأة) أن يكـون الحـاكم والإمـام والمشرع والوالي،وإن من أول شرائط الإمامية في الإسـلام أو الولاية هي ((الذكورة)) [1]، ثم الورع والعلم والكفاية.

([1]) الإمام أبو حامد الغزالـي دار الشـعب القـاهرة ١٩٧٠ الفصل الثالث ص ٢٠٢.

ومن كل ما سبق يمكن تلخيص الأفكار التي ارتكـز عليها بعض فلاسفة الإسلام في علاج مشكلة الجنس والمرأة على النحو الآتي:-

١- الرجال قوامون على النساء لأنهم ينفقون مـن أمـوالهم ولأنهم أكثر عقلا وورعا وعلما ودينا، وللزوج السيادة وعلى الزوجة الطاعة.

٢- تفريغ طاقات الرجال في العبادة والعلم وذلك عن طريق تفريغ النساء لخدمة الرجال في البيوت من حيث المأكل والمشرب والمغسل ورعاية الأطفال والمسنين.

٣- إشباع رغبات الرجال الجنسية حتى يتفرغوا للدين والله والعلم والمجتمع ويتم هذه الإشباع عن طريق النكـاح من أجل التناسل ومن أجل تذوق إحـدى متـع الجنـة للتسابق إلى دخل الجنة. وللرجال الحـق فـي إشـباع رغباتهم بالكامل بأي عدد مـن الزوجـات والإمـاء والجواري أما الاستمناء باليد فهو شر وأشر منه الزنا.

إن الذكور الذين لا يجدون وسيلة لإطفـاء الرغبـة الجنسية إلا عن طريق الاستمناء باليد (المراهقون الصغار) أو الزنا (الرجال الفقراء الذي عجزوا عن شراء زوجـة أو

أمة) هم الذي منعوا فطق مـن حـق الإشـباع الجنسـية (وفرضت عليهم العفة) ﴿ **وليستعفف الذي لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾ [1]. (ومن استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء).

٤- خطر المرأة وفتنتها قوة مهلكة ولا بد من حماية الرجال من فتنة النساء وذلك بحبس النساء في البيوت فالرجـل معرض للهلاك إذا استسلم للنساء وقد قال إبـراهيم بـن أدهم ((من تعود أفخاذ النساء لم يجئ منه شيء)) [2].

٥- يحظر على النساء الخروج من البيت إلى عالم الرجـال الخارجي إلا للضرورة القصوى، وفـي حالـة خـروج النساء من البيت يتحتم عليهن ألا يظهرن أي شيء مـن فتنتهن وذلك بتغطية أجسادهن وحفظ فـروجهن وعـدم إظهار مفاتنهن أو زينتهن.

ويتضح لنا الآن السبب الحقيقي وراء ذلك الحجـاب الذي لم يكن موجودا في بدء الإسلام ولا في حياة محمد لكنه

---

(١) القرآن سورة النور ٣٣.

(٢) أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين دار الشعب القـاهرة ١٩٧٠ – ص ٧٠٦.

شاع في المجتمعات العربية بعد ذلك وما زالت بعض الـبلاد العربية حتى اليوم تحجب نساءها بالكامل كالمملكة العربيـة السعودية، فالحجاب لم ينشأ لحمايـة المـرأة وإنمـا أنشـئ الحجاب من أجل حماية الرجل أساسا، والمرأة العربية تحبس في البيت ليس حماية لها ولأخلاقها وإنما هي حبست حمايـة للرجل ولأخلاق الرجل.

كأنما يقول المجتمع بهذا إن أخلاق الرجل أضـعف من أخلاق المرأة، وأن قدرة الرجل على حماية نفسه أقل من قدرة المرأة، وأن الرجل أمام رغبته الجنسية ضعيف وأقـل سيطرة عليها من المرأة، وأنه إذا كان هناك من هو أقوى من الآخر فلا شك أنه ليس هو الرجل، هذا رغـم مـا أشـاعه المجتمع عن ضعف المرأة وعـدم قـدرتها علـى مقاومـة الإغراء.

وترتكز الثقافة العربية الإسلامية في باطنها ولـيس في ظاهرها على أن المرأة قوية وليست ضعيفة، وإيجابيـة وليست سلبية، وفتاكة وليست مفتوكا بها، وأنه إذا كان هناك من هو جدير بالحماية فإنه الرجل بغير شك.

وقد كانت قوة المرأة هذه هي التي أفزعت الرجـل البدائي وهي التي اقتضت منه أن يقمعها بجميـع الوسـائل الدينية والقانونية و الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية. وكان لا بد لجميع هذه الوسائل أن تعمل معا بقوة وشدة وصـرامة من أجل إخضاع تلك الطبيعة القويـة للمـرأة، وهـذا أمـر منطقي، فإن قوة الشيء هي التـي تحـدد القـوة المطلوبـة لإخضاعه، ولهذا فإن أشد القوانين عنفا وصرامة هي تلـك المتعلقة بالتحريمات والمحظورات على حياة المرأة الجنسية.

لقد كان القتل والحرق أحيانا أخف هذه القوانين،ومع ذلك فهناك من العلماء من يعتقد أن قوة المرأة البدائية كانـت أقوى من هذه القوانين التي وضعها الرجل، وأنهـا قاومـت النظام الأبوي في بدايته الأولى دفاعا عن طبيعتها وحياتهـا الحرة السابقة في ظل النظام الأمومي، وإن أحد الأسباب التي عطلت مسيرة الحضارة الأبوية الذكورية أكثر من ستة ألاف سنة لم يكن إلا تلك الطبيعة الجنسية القوية للمرأة البدائية [١].

---

(١) Mary jane, Sherfey, The Natureand Evolution of Femate Sexuality. Vintage Books, ١٩٧٣. p. ١٣٧ – ١٤٠.

ونستطيع أن ندرك بعد ذلك السبب الذي يجعل بعض الرجال حتى اليوم يقتلون المرأة إذا خرجت عـن القـوانين الجنسية والأخلاقية المفروضة عليها. وفي صعيد مصر حتى اليوم تسمع عن الأب أو الأخ أو العم الذي قتل البنت لأن دم العذرية لم يظهر ليلة الزفاف، أو هذا الزوج الـذي يطلـق الرصاص على زوجته إذا رآها مع رجل آخر.

وقد شجع الإسلام الرجال على الزواج بـل جعلـه واجبا دينيا، ومن الأمثلة العربية الشائعة ((الزواج نصـف الدين)). كما أباح الإسلام للرجال تعدد الزوجـات، وتعـدد العلاقات الجنسية خارج الزواج عن طريق معاشرة الجواري والإماء والسراري، واقتضت هذه الحرية الجنسية أن يتفاخر الرجال بعدد النساء اللائي يملكون سواء كـن زوجـات أو جواري، وأن يتفاخروا بالتالي بقوتهم الجنسية.

وقد ارتبطت القوة الجنسية عند الرجـال بالرجولـة والفحولة، وأصبح من العار أن يعـرف عـن الرجـل إنـه ضعيف جنسيا. ولم يكن هناك من أحد قادر على الحكم على الرجل من حيث القوة الجنسية أو ضعفها إلا المرأة بـالطبع. ومن هنا أيضا السر في قوة المرأة الخفية ومحاولة المجتمـع

حماية الرجل منها، وذلك بتعمية عيـون النسـاء وتغطيـة وجوههن وحجب عقولهن بحيـث لا يعـرفن القـوي مـن الضعيف، ومن هنا ارتفاع قيمة العذراء عـن الثيـب فـي الزواج، فالعذراء جاهلة بالرجل والجنس أما الثيب فقد خبرت الجنس والرجل من قبل ويمكن لها أن تكشف القـوي مـن الضعيف، وهذا هو سبب انخفاض قيمة الأرمل أو المطلقة.

ولم يكن محمد نبي المسلمين يتبع هذه القاعدة الشائعة في زواجه فقد تزوج أربع عشرة زوجة كـن جميعـا ثيبـا مطلقات أو أرامل، فيما عدا زوجة واحدة هي عائشة تزوجها بكرا.

وقد كان ((محمد)) أكثر تقدما وأكثر تحررا مـن الرجال الذي خلفوه بل من كثير مـن رجـال اليـوم الـذي يفضلون العذراء بل يبحثون عن دم العذرية ليلة الزفاف، وما زالت عندنا في ريف مصر تلك العادة الشـائعة مـن فـض غشاء بكارة العروس بإصبع ((الداية)) أو إصـبع الـزوج وتلقي دم العذراء على خرقة بيضاء ثم عرضها على النـاس كدليل مادي واضح على شرف البنت وأسرتها.

وقد اتضح لنا كيف انحدر حال المرأة العربـي فـي الفلسفة والثقافة الإسلامية عن حالها في حياة محمد رسـول المسلمين أو في جوهر الإسلام ذاته، وقد نتج عن فصل عالم الرجال عن عالم النساء وحبس النسـاء داخـل البيـوت أن أصبحت تقاليد الشرف والعزة في المجتمعات العربية ترتبط بالعذرية وباحتجاز النساء في البيوت. ومن الأمثلة الشـعبية التي شاعت في المجتمع الفلسطيني حتى منتصـف القـرن العشرين ذلك المثل ((مرتي عمرها ما تركـت البيـت إلا محمولة)) أي محملة إلى قبرها [1]. وقد سمعت عن جـدتي لأمي أنها لم تخرج إلى الشارع إلا مرتين في كـل حياتهـا، مرة حين خرجت من بيت أبيها إلى بيت زوجهـا، والمـرة الثانية والأخيرة حين خرجت من بيت زوجها إلـى قبرهـا، وفي المرتين لم يكن يظهر منها للأعين شيء [2].

---

(١) توفيق كنعان، قوانين غير مكتوبة تتحكم بمكانة المـرأة الفلسطينية، مجلة التراث والمجتمع، مطلعة التقدم، القـدس، العـدد ٢ يوليو ١٩٧٤، ص ٣٩.

(٢) كانت جدتي لأمـي تعـيش فـي القـاهرة (١٨٩٨ – ١٩٤٨) ولم يكن لها من عمل سوى أعمال البيت من رعاية الأطفـال والزنوج، وكانت تنتمي إلى أسرة متوسطة أو فوق المتوسـطة لكـن

وقد بلغ من شدة الفصل بين العالم الرجـال وعـالم النساء أن المرأة التي كانت تخرج من بيتها كانت تتعـرض للأذى من الرجال، وقد يكون هـذا الأذى مجـرد نظـرات متبجحة، أو تعليقات جنسية نابية، أو أن تمتد لها يد رجل أو صبي فتمسكها من ذراعيها أو ثديها وفي بعض الأحيان قـد يقذفها الصبية في الحواري بالحجارة ويجرون خلفها يرددون التهكمات أو الألفاظ الشعبية الجنسية التي تسـب الأعضـاء الجنسية للمرأة علنا. ومازالت أذكر كيف كنت أخشى السـير بمفردي في بعض أحياء القاهرة وأنا تلميذة فـي المدرسـة الثانوية (١٩٤٣ – ١٩٤٨) وكيف كـان الصـبية أحيانـا يقذفونني بالحجارة أو يقولون لي باللغة العربية العامية بعض أنواع السباب الشائعة مثـل ((اللغـة علـى عضـو أمـك الجنسي)) أو ((يا ابنة المرأة التي تنكها الرجال)) (وفـي

جدتي لأبي والتي كانت تعيش في الفترة نفسها فـي قريتنـا ((كفـر طلحة)) لم تعرف الحجاب وكانت تخرج كل يوم من البيت للعمل في الحقل أو الشراء أو البيع في السوق أسوة بكل الفلاحات مـن الأسـر الفقيرة في الريف.

المجتمعات عربية أخرى تعرضت النساء للأذى في الشوارع لمجرد أن أصابع أيديهن كانت ظاهرة للعيان)) [1].

وهذا الإيذاء من جانب الرجال للمرأة الخارجة عـن الحدود الموضوعة لها هو البيت، أو المعتديـة علـى عـالم الرجال باقتحامه والسير فيه يدل على أن الرجل لم ينظر إلى المرأة كمخلوق سلبي ضعيف وإنما نظر إليها كمعتدية علـى الرجل وتستحق العقاب لتعود بسرعة إلى حدودها. وتتضمن هذه النظرة الفكرة السابقة بأن المرأة قوية، وقد أراد الرجـل أن يحمي نفسه من المرأة بكافة الوسائل وهو لم يحبسها فـي البيت فقط، ولكنه أحاط عالمه بالأشواك والموانع والمـدافع والاستحكامات حتى إذا ما خطت المرأة خطوة واحدة نحـو هذا العالم الرجولي انفجر في وجهها مدفع رشاش وإن كـان حجارة أو سبابا ينهال على أمها وجنسها.

أما عالم النساء فهو في نظر الرجل شـيء محـاط بالألغاز والأسرار الغامضة غمـوض السـحر والشـيطنة والعفاريت، هو عالم يستوجب من الرجل حين يضطر إلـى

---

(١) توفيق كنعان، قوانين غير مكتوبة تتحكم بمكانة المـرأة الفلسطينية ص ٤٠.

الدخول إليه أن يستعيذ الله الذي لا حول ولا قوة إلا به ويردد أسماء الله كلها، فيقول الرجل العربي حتى اليوم فـي ريـف مصر حين يدخل إلى البيت الذي فيه نساء: يـا حـافظ، يـا حفيظ، يا لطيف، يا ستار يا رب، يا ساتر يا كريم.

وفي بعض المجتمعات [1] العربية قد يضيف الرجل قائلا: ((دستور)) (بمعنى إفساح الطريق) وهي الكلمـة نفسها الشائعة جدا والتي يقولها الريفي (أو الريفية) لطـرد العفاريت أو الجان من المكان [2].

وارتباط المرأة بالعفاريت والأرواح الشريرة فكـرة سادت ولا تزال تسود كثيرا من أنحاء الشرق والغرب، وهي موروثة عن قصة حواء والاعتقاد بأنها إيجابية في الشر ولها صلة بالشيطان. وقد أدى ظهور الصوفية في الإسـلام إلـى

---

(1) توفيق كنعان، قوانين غير مكتوبة تتحكم بمكانة المـرأة الفلسطينية ص ٣٩.

(2) كنت أسمع هذه الكلمة تتردد كثيـرا السـنة الفلاحـين والفلاحات في قريتي في حفلات الزار أو حين تذكر سيرة العفاريـت والجان، فيصيح الواحد منهم دستور بمعنى اللهم اطرد العفاريت مـن طريقنا وتستخدم الكلمة نفسها بمعنى إفساح الطريق وحفـظ النظـام، والكلمة تعني أيضا النظام الموضوع أو القوانين الدستورية.

منح النساء فرصا للوصول إلى مراتب الوليات، لكن نسـبة النساء الوليات إلى الرجال الأولياء ضئيلة جدا، أمـا الأرواح الشريرة فتقول إحدى الدراسات العربيـة إن نسـبة الأرواح الأنثوية فيها ٨٠% [1].

إن معظم الدلائل في تاريخ الرجال العرب تدل على أن المرأة لم تخف من الرجل بقدر ما خاف منها الرجل، إلا أن مأساة الرجل العربي وغير العربي إنه يخاف من المـرأة ويرغبها في آن واحد. وأستطيع أن أقول إن الرجل العربـي قد تغلب على خوفه من المرأة أكثر مما فعل الرجل الغربي، أو أن رغبة الرجل العربي في المرأة فاقت خوفه منها أكثـر مما فعل الرجل الغربي، وقد يرجع ذلك إلى اختلاف ظروف كل منهما واعتراف الإسلام بالمتعة الجنسية (على خـلاف المسيحية).

وأدى هذا بطبيعة الحال إلى أن تحتل أمور الجـنس والحب – حيزا أكبر في حياة العرب وأشـعارهم وآدابهـم

---

(1) توفيق كنعان، الينابيع المسكونة وشياطين المـاء (فـي فلسطين) مجلة التراث والمجتمع مطبعة التقدم، القدس، العدد ٢، يوليو ١٩٧٤، ص ٣٨.

وفنونهم، وفي مقابل ذلك انتشرت أيضا الأقوال المأثورة عن فلاسفة العرب وآدابهم التي تحذر من الإفراط فـي ملـذات الجنس أو الاستسلام لها، وتحذر الرجال من الغرام بالنسـاء والوقوع في سحرهن، ومن العبارات المعروفة التي قالها ابن المقفع: ((اعلم أن من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد وأتلفها للمال، وأضرها بالعقل، وأزراها للمروءة وإسـراعها في ذهاب الجلال والوقار الغرام بالنساء)) [1].

وإني اعتقد أن ابن المقفع لم يكن يوجه نصيحته هذه إلا لهؤلاء الرجال الذين يملكون الجلال والوقار والمال الذي يحذرهم من فقدانه بسبب الغرام بالنساء. أما هؤلاء الرجـل الذين لم يكونوا يملكون المال أو الوقار أو الجلال وهم بغير شك الأغلبية الساحقة من الشعب فلم تكن نصيحة ابن المقفـع تفيدهم أو تعنيهم في شيء، لأن الرجل منهم بحكم افتقاره إلى المال والجلال والوقار يفتقر إلى الوسائل الأساسية التي يمكن بها أن يحظى بزوجة شرعية واحدة يدفع مهرها وينفق عليها

([1]) ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، مكتبة البيان، بيروت ١٩٦٠، ص ١٢٧.

وعلى أولادها فما بال الأمر بقدرته على أن يصول ويجـول في عالم الغرام بالنساء؟.

وفي المجتمع العربي كغيره من جميـع المجتمعـات الأبوية الطبقية والقائمة على الفروق الكبيرة بين الطبقات لـم تكن الحرية الجنسية أو حياة الجنس والحب واللهـو إلا مـن نصيب الأقلية القليلة، أما الأغلبية السـاحقة مـن الرجـال والنساء فلم يكن نصيبهم إلا التلظي بالحرمـان والخضـوع للتقاليد والقوانين التي تحرم الجنس إلا لمن يستطيع أن يـدفع الثمن.

وقد عرف عن العرب بسبب شظف العيش وصعوبة الحصول على الرزق في مجتمع متخلف وبسـبب اسـتغلال الحكام لهم في الداخل والخارج عرف عنهم الجلد والصـبر وتحمل الحرمان سواء كان حرمانا من الطعام أو الشراب أو الجنس، إلا أن الشعب العربي كغيره من الشعوب فـي كـل زمان ومكان كان قادرا دائما على تعويض هـذا الحرمـان بأشياء أخرى، ولعل هذا يفسر لنا سبب إقبال الشعب العربي على سماع قصص ألف ليلة وليلة بكل ما فيها من حكايـات جنسية مثيرة، إن هذا الإقبال على السماع أو الترديد لم يكن

إلا تعويضا عن الحرمان فـي الحيـاة الواقعيـة، إن هـذه الأقاصيص كما يقول صادق العظم:

((تروى أحداث علاقات غرامية تبدو مثيرة لأنهـا تتعارض والعرف الأخلاقي السائد والشريعة التـي تسـيطر على حياة المجتمع ومفاهيم الحلال والحرام المعمـول بهـا، لذلك نجد الزوجات يخن أزواجهن مع عشاقهن أو عبيـدهن، والفتيات العذراى يلاقين الشباب من عشاقهن سرا، والرجال يهجرون زوجاتهم ويسعون إلى عشيقاتهم خفيـة، وجمـيعهم يعمل على تحقيق رغباته الجامحة المتدفقة بشتى الأسـاليب بما فيها الاحتيال والكذب والتحذير والفرار.. الخ.. لا ريـب أن طغيان هذه الموضوعات على القصص الشعبي المـذكور يتجاوب مع رغبات عميقة في نفس كل إنسان يعـيش حيـاة المجتمع الرتيبة وتتوق نفسه لتحقيق التجربة العاطفية العنيفة، ولكن ما العمل حين يكون كل شيء حوله واقفا له بالمرصاد لمنعه من السير على هذه الطريقة الوعرة والخطرة، فيجـد

في هذه القصص والحكايات بديلا عن التجربـة الممنوعـة عرفا وتقليدا)) [1].

هذه التقاليد وهذا العرف في المجتمع العربي كان في حقيقة الأمر يفرض القيود على الجنس أكثر مما كان يبيحها، وينزع إلى فصل الحب عن الجنس، والروح عن الجسد، تلك النزعة التي توارثتها البشرية عن اليهوديـة والفكـرة التـي سادت عن تأثيم الجنس وجعله ملوثا أو مدنسا.

وقد ربط العرب بين الحب والروح، وآمنـوا بـأن الحب روحي خالص كحب الله وكحب الوطن وحب الأم، ثم هبطوا بالجنس والجسد إلى الرغبات الأرضية الحيوانية التي يجب ألا تلوث مشاعر الحب السامية.

وكما نشأ الحب الرومانتيكي في الغـرب فقـد نشـأ الحب العذري عند العرب، وبلغ من شدة الفصل بين الحـب والجنس أن العرب فصلوا أيضا بين الحب والزواج، فأصبح من المحرم على الرجل الذي يحب امرأة أن يتزوجها، وفـي تاريخ العرب كثير من قصـص الحـب العـذري، كقصـة

([1]) صادق جلال العظم، فـي الحـب والحـب العـذري، منشورات نزار قباني، بيروت، ١٩٦٨، ص ٣٩.

((جميل)) الذي أحب ((بثينة)) حبا جارفا فأرغمها أهلها على الزواج برجل آخر دميم أعور، وهناك قصة ((قيس)) الشاعر العربي الشهير الذي ملأ السماء والأرض شعرا فـي حب ((ليلى)) فمنعوه من الزواج منها وزوجوهـا لرجـل آخر، وهذه ((عفراء)) التي أحبها ((عروة بن حزام)) ثم لم يتزوجها.

ويزخر أدب العرب وأشعارهم بمآسي الحب العذري، ويترنم العرب بالعذاب في الحب ويتلـذذون بـآلام الفـراق والشوق والحرمان، ومن أقوال ابن حزم [1] ((والحـب داء عيان ومقام مستلذ وعلة مشتهاة، ولا يود سليمها البـرء، ولا يتمنى عليلها الإفاقة)).

وأستلذ بلائـي فيك يا أملي ولست عنك مـدى الأيـام أنصرف

وهذه النزعة إلى استعذاب الألم أو ((الماسوشية)) ليست صفة العرب وحدهم، ولكنها صفة البشرية بأجمعها منذ نشأت الفكرة بفصل الجسد عن الروح وتأثيم الجنس.وقد تميز الإنسان عن الحيوان بكبر حجم مخه وتطوره العقلي المستمر

---

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١١.

للتغلب على مخاطر الأرض وعواطف الطبيعة والكـوارث التي يقابلها في حياته، وفي رأيي أن إحدى الكـوارث التـي واجهت الإنسان في حياته هي تلك الفكرة بفصل الروح عن الجسد وتأثيم الجنس. إن هذه الفكرة في رأيـي كـان مـن الممكن لها أن تفتك بالإنسان فتكا أشد من فتك وحوش الغابة لولا قدرة عقل الإنسان على التطور والتكيف المسـتمر. إن أي حيوان بغير عقل لم يكن أمامـه إزاء هـذه الفكـرة إلا طريقان اثنان إما الامتناع الكامل عن الجنس الذي يقود إلـى انقراض هذا الحيوان من فوق الأرض، وإما ممارسة الجنس ثم الموت كمدا وندما على اقتراف هذا الذنب الشنيع، وكـلا الطريقين يقود إلى الموت بغير شك.

لكن عقل الإنسان وهو سلاحه الوحيد فـي الحيـاة، استطاع أن ينتصر على هذه الفكرة بمثل ما انتصـر علـى الأسود والنمور. وإذا عرفنا أن انتصاره على هذه الأسـود والنمور لم يكن أبدا بالمواجهة أو المصارعة الحرة الشجاعة وإنما بالدهاء والذكاء والهروب من المآزق بالاختفـاء فـوق الشجر، أدركنا أن الإنسان لم يواجه هذه الفكرة بالمصـارعة الحرة الشجاعة وإنما لجأ إلى الهروب والاختفاء طلبا للحماية

والإفلات من المأزق. ولم تكن ((الماسوشية)) أو استعذاب الألم إلا نوعا من الحماية، حاول الإنسـان أن يعـالج بهـا إحساسه الطاغي بالذنب، وكأنه يقول لنفسه: نعم أنـا مـذنب بممارسة الجنس ولكني أكفر عن ذنبي بهذا الألـم الشـديد، الذي أتحمله بكل صبر، بل بلذة أيضا.

وكم أخطأ ((فرويد)) حين وضـع نظريتـه عـن سيكولوجية المرأة وجعل الماسوشية ركنا أساسيا فيها وجزءا من الطبيعة التي ولدت بها، فـالمرأة ليسـت هـي وحـدها الماسوشية،ولكن الرجل أيضا ماسوشي، وكلاهما ضحية تلك الفكرة التي فصلت بين الجسد والروح. ولأن تهمـة الجسـد والجنس ألصقت بالمرأة أكثر من الرجل فـيمكن القـول إن إحساس المرأة بالذنب أشد من إحساس الرجل وبالتالي فـإن حاجتها إلى الألم أكثر من حاجة الرجل للتكفيـر عـن هـذا الذنب، وقد أوحت إليها التوراة بهذا الألم حـين قالـت لهـا ((تلدين في الأسى والألم)).

وكان الأجدر ((بفرويد)) أن يبحث عـن أسـباب ماسوشية المرأة في التاريخ والمجتمع بدلا من أن ينسبها إلى طبيعتها وتكوينها البيولوجي والنفسي كأنثى.

ومن المهم أن أذكر هنا أن بعض العلماء العرب قـد حاولوا مناهضة هذه الفكرة الفاصلة بين الجسد والروح، وقد حاول بعضهم عقد مصالحة بين الجسد والروح.

أحد هؤلاء العلماء والمفكرين القدامى هو الشيخ أبـو علي الحسن بن علي بن سينا (الشهير بان سـينا) والـذي توفي سنة ٤٣٨ هـ، وقد سبق ابن سينا علمـاء وفلاسـفة الغرب في نظرته العلمية الشاملة للإنسان وتقـديره للجسـد والأحاسيس الحسية، وكان ابن سينا من الأوائل فـي العـالم جمع الذي طاب بعدم الفصل بين الجسـد والـنفس وإعـادة الصلة الأصلية الموجودة في الإنسان بين الجـنس والحـب، فالإنسان وحدة واحدة لا تتجزأ.

المرأة في الأدب العربي

لم تختلف الصورة التي رسـمها الأدبـاء العـرب القدامى والمعاصرون للمرأة عن صورتها في عيون أدبـاء الغرب إلا في التفاصيل أو بعض الاختلافات التي يقتضـيها اختلاف الظروف والسبق أو التأخر في مجال عـن مجـال. وكلها اختلافات سطحية لا تمس جوهر الصورة عن المـرأة كمملوكة للرجل بحكم النظام الأبوين سواء كان زراعيـا أو صناعيا أو رأسماليا، متخلفا أو متقدما، في الشـرق أو فـي الغرب، مسيحيا أو إسلاميا.

وإذا كان الفـن أو الأدب يرتكـز مضـمونه علـى الصراع، وسواء انتهى هذا الصراع بالفشل أن لنجاح فهـو نوع من الدراما أو المأساة التي تستحق الروايـة، وتسـتحق التسجيل سواء كانت مبكية أو مضحكة، سواء كانت تراجيديا أو كوميديا، وكم من صراعات ومفارقات في حياة الإنسـان تدعو إلى الضحك والبكاء معا.

ولعل أهم هذه الصراعات جميعا هو الصراع بـين الرجل والمرأة منذ انتزع منها حقها (الطبيعي والمنطقـي) في النسب، ولأن انتساب الأطفال إلى الرجل كان ولا يـزال

أمرا غير طبيعي وغير منطقي، فقد ظل الصراع بين الرجل والمرأة مستمرا منذ بدأ النظام الأبوي حتـى اليـوم، وظـل الرجل متخوفا حتى اليوم من أن ينتهي الصـراع بانتصـار المرأة واستردادها لحقها الطبيعي الأول. والدليل على خوف الرجل من المرأة أنه لا يزال يحوطها بالسلاسل والقيود التي قد تكون قوانين صارمة مقدسة أو نظريات علميـة نفسـية وأخلاقيات معينة والامتلاك.

الدليل على خوف الرجل من المرأة أنـه لا يـزال يقيدها ويملكها بشتى الوسائل وهو يقيدها بوعي وبغير وعي، وكأنما هو في اللحظة التي يكف فيها عن تقييـدها فسـوف ينقلب الوضع فورا وتصبح المرأة هي الأعلى وليس الأدنى، وهي الأقوى وليس الأضعف وبرغم أن الرجل بذل كل مـا عنده لابتكار قيود للمرأة منذ خمسة أو ستة آلاف سنة إلا أنه لم يتخلص قط من خوفه من المرأة ومن حاجته المستمرة لأن يقيدها، مما يؤيد أن خوفه منطقي وله مبرراته القوية، ولـه دوافعه الطبيعية وأولها إدراك الرجل أنه يفرض على الطبيعة وضعا غير طبيعي. فالمرأة منذ أصبحت امرأة منذ ملايـين السنين وهي تنسب أطفالها إليها بحكم الطبيعة، والرجل وإن

عرف حديثا الأسرار العلمية للحمل والولادة إلا أنـه ظـل جاهلا لها أزمنة طويلة، والجهل يولد الخوف، وظل الرجـل بحكم جهله يخاف المرأة ويخاف من كـل مظـاهر حملهـا وولادتها، ولم يكن لبضعة آلاف من السنين أن تقضي علـى خوف الرجل الذي عاش معه ملايين السنين، ولم يكن لهـذا الزمن القصير بالنسبة لعمر البشرية أن يقتلـع مـن ذاكـرة الرجل صورة الأنثى الأم خالقة الحياة والإلهة القديمة.

ولم تكن قصة آدم وحواء إلا تعبيـرا عـن خـوف الرجل من المرأة، ولولا هذا الخوف ما نسب الشـر والإثـم والشيطنة إلى حواء، فالمرأة الشـيطان ليسـت إلا تجسـيدا لمخاوف الرجل، والمرأة التي تملك من القوة والسحر والفتنة ما يوقع الرجل ويسقطه من الجنة إلى الأرض ويسـبب لـه الدمار والهلاك والموت امرأة لا بد أن تكون مخيف ومرعبة وربما كانت كذلك فعلا.

ويربط علم النفس بين الخوف والكراهية فـي نفـس الإنسان، فالخوف يولد الكراهية والكراهية تغـذي الخـوف وكلاهما يستمر باستمرار الآخر.

وقد اعترف ((فرويد)) بأن الرجل يكـره المـرأة، وأنه ينظر إليها كمصدر للخطر، وفي كتابه التحريم والعذرية The Taboo of Virginity[1]، ويقول فرويد:

((........ إن عادة الرجل أن يسقط كراهيته الداخلية العميقة على العالم الخارجي أي ينسبها إلى أي شيء يكرهه أو أي شيء لم يألفه، ينظر الرجل إلى المرأة أيضا على أنها مصدر للخطر، وأول علاقة جنسية بينه وبين المرأة تظل في ذاكرته محفوفة بالخطر)).

ولا يختلف خوف فرويد من المرأة كثيرا عن خوف الرجل الإفريقي الذي لا يزال يؤمن في بعض قبائل إفريقيـا بأن المرأة إذا خطت ساق رجل فإنه يعجـز جنسـيا، أو أن الرجل الذي يلمس المرأة في فترة الحيض يسقط ميتا.

وبمثل ما احتوى العلم على مخـاوف الرجـل مـن المرأة كذلك احتوى الأدب على هذه المخـاوف، ولا يكـاد يختلف خوف ((فرويد)) من المرأة عن خوف ((برنـارد

---

(١) Signund Freud. The Taboo of Virginity (١٩١٨). in Standard Edition vol. ll. London: Hogarth press, ١٩٥٧.

شو)) ولا يختلف خوف ((برنارد شو)) من المـرأة عـن خوف ((توفيق الحكيم)) أو ((عباس محمود العقاد)).

وتتمثل فكرة (فرويد)) عن سلبية المرأة فـي أداب تولستوي، وكما تغزل تشيكوف بسلبية المـرأة فـي قصـة ((حبيبتي)) تغزل عباس العقاد بسلبية المرأة في كتاباته فهو يقول: ((المرأة تستعصم بالاحتجاز الجنسي، لأن الطبيعة قد جعلتها جائزة للسابق المفضل من الذكور فهي تنتظر حتـى يسبقهم إليها من يستحقها فتلبيه تلبية يتساوى فيهـا الإكـراه والاختيار، كذلك تصنع إناث الدجاج وهـي تنتظـر ختـام المعركة بين الديكة أو تنتظر مشيئتها بغير صراع)) [1].

والتغزل في سلبية المرأة باعتبارها طبيعتها وفطرتها يعني بالضرورة هجاء إيجابيتها وقوتها واعتبارهـا خارجـة عن طبيعتها أو شاذة تستوجب الكره أو الاسـتقباح أو علـى الأقل السخرية والتهكم.

وبلغ من كره الرجل للمرأة الإيجابية القوية أن أسقط عليها كل خوفه القديم، فاقترنت صفات القوة في المرأة بالشر

([1]) عباس محمود العقاد، المرأة في القـرآن، دار الهـلال، القاهرة، ص ٣٥.

والخطر والغموض والكيد والرياء والكذب والالتواء والفتنـة والسحر والشيطنة.

وإذا كانت المرأة سلبية تنتظر مشيئة الرجل فتلبيـه سلبية أيضا يتساوى فيها الإكراه والاختيار كما قال العقـاد، فكيف يمكن إذن أن تكون هي نفسها الشيطانة التـي توقـع الرجل من أعلى عليين إلى أسفل سافلين كمـا قـال زكـي مبارك، أو تسلب عقل الرجل وماله ووقاره وجلاله كما قال ابن المقفع؟ وكيف تكون هذه السـلبية بالطبيعـة والفطـرة إيجابية فجأة كامرأة العزيز في قصة يوسـف تلـك المـرأة الحسناء التي راودته على نفسها فقال معاذ الله إنه ربي إنـه أحسن مثواي، ولولا أنه رأى برهان ربه ولولا أنه من عباد الله المخلصين لاستجاب لها ووقع في السوء والفحشاء [1].

إن هذا المأزق الذي وقع فيه الرجل باعتبار المـرأة سلبية ضعيفة لم يكن له من حل سوى أن تكـون إيجابيتهـا نوعا من الدهاء والمكر والكيـد والريـاء.. وامـتلأ الأدب العربي بهؤلاء النساء الماكرات اللائي يتقن أنـواع المكـر

---

(1) تفسير الطبري، المطبعة الميمنية بمصر، ج ٤، الجـزء ١٢، ص ٩٨ – ١٠٣.

والكيد المختلفة.. بل إن العقاد نفسه يناقض نفسه، وبعـد أن يقرر أن المرأة سلبية بالطبيعة يقول: ((الرياء الأنثوي الذي يصح أن يقال فيه إنه رياء المرأة خالصة، إنما يرجـع إلـى طبيعة في الأنوثة تلازمها في كل مجتمع، ولا تفرضه عليهـا الآداب والشرائع، ولا يفارقها باختيارها أو بغيـر اختيارهـا[1].

ويريد العقاد هنا أن يسلب المرأة إيجابيتها في المكر والرياء كما سلب أسلافه الفلاسفة إيجابية حواء فـي الشـر وقالوا إن الشر لم يقع بإرادتها واختيارها وإنما بإرادة آدم أو إرادة الإله.

([1]) عباس محمود العقاد، المرأة في القـرآن، دار الهـلال القاهرة، ص ١٧ – ١٨.

كراهية وحب مشبوب

وبرغم كل محاولات الرجل المستميتة للإقلال من إيجابية المرأة وقوتها، وبرغم محاولاته المستمرة لاعتبارها أدنى وأقل ولا تستحق أي اهتمام أو عناء، إلا أن المرأة ظلت تشغل أكبر حيز في ذهن الرجل، وبرغم أنه نجح في طردها من معظم مجالات المجتمع إلا إنها ظلت كالشبح الجاثم على فكره، لا يستطيع طرده من ذهنه، ولا يستطيع الفرار منه حيثما ذهب.

إن من يستعرض إنتاج الأدباء في الشرق وفي الغرب قديما وحديثا لا بد أن يدهش لهذا الكم الهائل من القصص والشعر والروايات التي تناولت المرأة، ورغم أن معظم هذه الكتابات تصور المرأة تصويرا خاطئا أو متناقضا إلا إنها تدل على أن الرجل لم يتخلص قط من خوفه، وإن هذا الخوف قد أنتج الكراهية، وإن هذه الكراهية استحالت إلى نوع من الحب المشبوب، فالشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده كما تقول الحكمة العربية القديمة، ومن الوسائل التي يحمي بها الإنسان نفسه ضد ما يكرهه هو أن يستسلم له ويحبه.

ولعل هذا يفسر لنا بعض الأسباب التي جعلت علاقة الرجل والمرأة علاقة حب وكراهية في آن واحد، ولذة وألمن وإقبال وفرار، وراحة وعذاب، وقسوة وحنان، وسذاجة ومكر إلى آخر تلك التناقضات التي تميز تلك العاطفة الشائعة بـين الرجال والنساء والتي سميت على مر الأزمنة ((بالحـب)) وهي تسمية خاطئة، لأن الحب بين الرجل والمرأة طوال هذه الأزمنة لم يكن ((حبا)) وإنما رغبة في ((الامتلاك)).

وبمثل ما كان التناقض جـوهر الحـب فـي الأدب العربي حوت المرأة أيضا في جوهرها التنـاقض، ذلـك أن الحب عند الرجل يرمز إلى المرأة والمرأة ترمز إلى الحب، وكلاهما في نظرة شيء واحد.

ويحتوي تاريخ الأدب العربي على كثير من الكتـاب الذي عرفوا بعدائهم وكراهيتهم للمرأة ومنهم المعري والعقاد والحكيم وغيرهم. وقد اشتهر عباس محمود العقاد في الأدب العربي باسم ((عدو المرأة)) وانعكست كراهيته وعداوتـه للمرأة في الكثير من كتاباته بحيث تفوق في هذا المجال على أستاذه ((شوبنهور)) الذي أشاد برأيه في المرأة في عـدة مناسبات من حيث إنها طفلة كبيرة الجسـم فـي كـل أدوار

حياتها، وفيها من أخلاق الطفل نزقه وقصور عقله ومحاكاته لغيره، واعتماده على غيره، وتقلبه وكذبه وريـاؤه، وهـي أخلاق في رأيه تخلفت في نفس المرأة مـن بقايـا الهمجيـة والفطرة لم تنجح السنون فـي تلطيـف شـرتها وتهـذيب طبيعتها[1].

إلا أن العقاد سرعان ما يناقض نفسـه، فـإذا بهـذا المخلوق القاصر كطفل، أو السلبي كدجاجة، ينقلـب فجـأة ليصبح القوة التي ما بعدها قوة، فيقول عن المرأة في روايته سارة إنها: ((مظهر القوة التي بيدها كل شيء في الوجـود وكل شي في الإنسان [2] بل إن هذه القوة تصبح في قوتهـا وبطشها وظلمها كقوة دولة طاغية، فيترنم بها فـي شـعره ويقول [3].

ظالمة أنت ويـا ويلتـي   من دولة تطغى و لا تفصح
وأكبر الظلم لمـن ذاقـه   ظلـم بـه مظلومه يسمـح

([1]) عباس محمود العقاد، الإنسان الثاني، ص ٧ – ٨.
([2]) عباس محمود العقاد، سارة، سلسلة اقرأ. العـدد ١٠٨، ص ١٢٩.
([3]) ديوان العقاد، ص ٣٠٢.

قـاسيـة أنت ولكننـي أقبل الكف التـي تجـرح

وأعظم القسوة تلك التي يلهو بها المجروح بل يفرح

ويتضح لنا الآن كيف تنقلب الكراهية إلـى سـادية شديدة، وعدوان عليها إلى الحد الذي يرى أن المرأة لا بد أن يحكمها الرجل ويخضعها وأن لا يتأثر بفتنتهـا أو جمالهـا. فجمال المرأة في نظر العقاد ليس جمالا أصيلا، وإنمـا هـو جمال غير مستقل بذاته، وغير حر في انطلاقاته لأن إدراك جماله يتوقف على الرجل، فالرجل هو الحر لأنـه مسـتقل بذاته وعلى هذا فالجمال في رأيه هو جمـال الرجـل، أمـا المرأة فجمالها ليس إلا القبح [1].

وتبلغ عداوة العقاد وساديته إنه لم يعط نفسه وحـده حق إيلامها وخيانتها وهجرها ولكنه جعل من نفسه داعية في هذا المجال، وأخذ يحث الرجال علـى هجرهـا وخيانتهـا ويتغنى بذلك في شعره قائلا:

([1]) عباس محمود العقاد، هـذه الشـجرة، ص ٢٤ – ٥٠، مطالعات في الكتب والحياة ص ٦٧.

أنت الملوم إذا أردت لهـا ما لم يرده قضاء باريها [1].
خنها، ولا تخاص لها أبدا تخاص إلى أغلى غواليهـا

ومعنى هذا في رأيه أن خيانة الرجل للمرأة تؤدي به إلى أن يصل إلى قلبها وحبها، فالمرأة في نظـر العقـاد لا تخاص إلا لمن يخون، ولا تحب إلا من يهجرها ويكرههـا، ولا تقول نعم إلا حينما تريد أن تقول لا، وهـي مراوغـة، ماكرة، كاذبة مخلوقة مـن عجينـة الخـداع والكيـد، وإن ((كيدهن عظيم)) كما جاء في القرآن، هو يقرر أن الكيـد والخداع طبيعة المرأة وسلاحها مع الرجال الذين يكرهونهـا أو يحبونها سواء بسواء:

خـل المـلام فليس يثنيها حب الخداع طبيعة فيها [2].
هو سترها، وطلاء زينتها وريـاضـة للنفس تحييها
وسلاحهـا فيما تكيد بـه مـن يصطفيها أو يعاديـها

ومن المعـروف أن الوجـه الآخـر للسـادية هـو الماسوشية، وفي أدب العقاد وشعره قدر كبير من كليهما، إلا إنه حاول أن يبالغ في السادية والعداوة، وحاول أن يحولهـا

---

(1) عباس محمود العقاد، أعاصير مغرب، ص ٥٧.
(2) المصدر السابق.

إلى نوع من التسلط والسيطرة، مستعينا في ذلك بما جاء في القرآن من أن الرجال قوامون على السناء، ولهم على النساء درجة حيث إن النساء في ((رأيه)) أقل من الرجال قـدرة على تحكيم العقل وتغليب الرأي وصـلابة العزيمـة [1] وأن النساء ليس لهن سعادة أكبر من سعادة الطاعة ولا أمل أرفع من حب الرجل الذي تطيعه، وليقس الرجل عليها أو يرحمها أو يعذبها فإنها لسعيدة بالطاعة إذا وجدت من يطاع ويقبـل عذابها وراحتها، ويلتقي عزتها وذلها على السواء [2].

ويخرج العقاد من ذلك بأن المـرأة خلقـت لتحـب الرجل، وإن الرجل خلق ليحب نفسه في حبه إياها، وهذا في رأيي على نسق الفكرة الدينية اليهودية والمسيحية أن المـرأة خلقت في صورة الرجل خلق في صورة الإله، أو أن الرجل ظل الله على الأرض وصورته وإن المرأة ظل الرجل.

([1]) عباس محمود العقـاد، المـرأة فـي القـرآن الكـريم، ص ٢٢ – ٢٣.

([2]) عباس محمود العقاد، ساعات، ص ٢٠ – ٢١.

وعندنا مثل شعبي في العربية يقول: ظل راجـل ولا ظل حيطة، أي أن الرجل هو ظـل الله، وبغيـر الرجـل لا تستطيع المرأة أن تعيش.

أما نموذج المرأة الذي طغى واحتل أكثر صـفحات الأدب العربي بصفة عامة فهو بغير شـك نمـوذج المـرأة ((البغي)) أو ((العشيقة))، ومقابله أيضا بالأهمية نفسـها نقيضه وهو نموذج الأم الطاهرة أو العذراء العفيفة الطاهرة.

وهذه الفكرة التي قسمت النساء إلى نوعين: البغي أو الأم لم يكن ليعرفها العرب إلا من أجدادهم القـدامى الـذين بدأوا النظام الأبوي وبدأوا معه تقسيم النساء إلـى زوجـات وأمهات من ناحية وإلى مومسات وعشـيقات ومـن ناحيـة أخرى، ثم ارتباط البغي بالإثم والسقوط والفساد لأن البغـي هي التي تجسد الجنس، والجنس من فعل الشيطان أو حواء.

ولست أدعي إنني قرأت كل ما صـدر فـي العـالم الغربي أو العربي من أدب، لكنني لم أصادف فيمـا قـرأت لأدباء من الغرب أو الشرق أي رجل أديب لم يتحـرر مـن هذه الفكرة القديمة مهما اشتهر في كتاباته بالدفاع عن حقوق الإنسان والحية العدالة ومقاوم الظلم، وهـذا هـو الأديـب

الروسي تولستوي يكتب ويقول إن ((المرأة أداة الشـيطان، إنها غبية في جملة حالاتها ولكن الشيطان يعيرها دماغه حين تعمل في طاعته [1].

ويحفل الأدب العربي بنموذج المرأة الشيطانية، ذات الوجوه المتعددة.. ((تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية تفـتح عينيها البريئتين في دهشة الطفولة وسذاجة الفطرة بغير كلفة أو رياء، وتراها بعد حين – وقد تراها في يومها – فأنت مع عجوز ماكرة أفنت حياتها في مراس كيـد النسـاء ودهـاء الرجال، وتضحك ضحكة فتعرض لك وجها لا يصلح لغيـر الشهوات، وضحكة أخرى . وقد تكون على إثر الأولـى – فذاك عقل يضحك واب يسخر، كما تسخر عقـول الفلاسـفة وألباب الشيوخ المحنكين)) [2].

([1]) تولستوي في يومياته بتاريخ ٣ أغسـطس ١٨٩٨ كمـا وردت في كتاب عباس محمود العقاد. هذه الشجرة، ص ٨٨.

([2]) عباس محمود العقاد، سارة، ص ١١٥.

وهذه أيضا كلمات العقاد نفسه الـذي ينـاقض هنـا فكرته عن المرأة ليس لها عقل تفكر به، وعلـى الرجـل أن يحبسها في البيت بين أربعة جدران ويحكمها فهـي ناقصـة العقل والدين والأخلاق ((وثنية لم تتدين قط)) [1].

---

(1) المصدر السابق، ص ٨٤.

الكيد والسحر والفتنة في ألف ليلة وليلة

ولا يختلف ((العقاد)) وأمثاله من أدباء عصرنا الحديث في تصورهم للمرأة عن أدباء المجتمع العربي القديم، وعن رواة قصص ألف وليلة وليلة. فالمرأة في معظم هذه القصص الشعبية كثيرا ما تظهر على شكل الجارية الفاتنة اللعوب، والشيطانية في ألاعيبها، الداهية في مكرها وكيدها، العاشقة الفاتنة في عشقها، الإيجابية في موضوع الحب والجنس إيجابية الشياطين، والجان.

((والمرأة في كل صور هذا الدور جارية، سواء كانت ملكة أم جارية مشتراة من السوق. تكون بنت ملك تحارب وحبيبها خائف، ومع هذا تناديه يا سيدي، وتخدمه ما يخدم مريم الزنارية نور الدين، وتباع وتشترى في أكثر القصص، فتكون صفات الجارية وتصرفاتها أقرب إلى واقعها)) [1].

---

(1) سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦، ص ٣٠٣.

وتحف قصص ألف وليلـة وليلـة بهـؤلاء النسـاء الساحرات اللائي استخدمن السحر كوسيلة لتنفيذ خطة المرأة للوصول إلى حبيبها، فإذا بالمرأة تسحر زوجها حتى لا يقف في طريق حبها. ويلاحظ أن السحر في ألف ليلة وليلـة لـم يستعمل إلا بواسطة النساء الكائدات الساعيات إلى عشاقهن. البنج أيضا يستعمل كوسيلة من وسائل المـرأة التـي تريـد التسلل إلى عشيقها فإذا بها تبنج زوجها، وهذه ظاهرة تتكرر في ألف ليلة وليلة منذ قصة السلطان محمود صاحب الجزائر السود في الجزء الأول إلى قصة قمر الزمان وعشيقته فـي الجزء الرابع.

ويرتبط الكيد والمكر في ألف ليلـة وليلـة بالنسـاء وبالحب والجنس والفتنة. وكيد النساء قد غذى هذه القصص بمادة غزيرة، مما يدل على تغلغل قصة حواء فـي نفـوس العرب في تلك الأزمنة، بالإضافة إلى أن القرآن قد احتـوى على قصة مشابهة وهي قصـة يوسـف وامـرأة العزيـز، وأصبحت الآية القرآنية ﴿ **إن كيدهن عظيم** ﴾ تأكيدا لها بأن كيد النساء حقيقة جوهرية بل إنه كيد عظيم أيضا.

وفي قصص ألف ليلة وليلة نجد شبيهات حواء التـي أخرجت آدم من الجنة، فإذا بهؤلاء النساء يكن السـبب فـي هلاك الرجال أو الإضرار بهم، بمثل ما حدث في قصـص الخياط والمباشر والنصراني.

ونجد شبيهات امرأة العزيز التي سجن يوسف بسببها في قصة قمر الزمان ابن الملك شهرمان، قد أحبت امـرأتين هما ((بدور)) و ((حياة النفوس)) ابني قمر الزمان، وكما شكت امرأة العزيز يوسف لزوجهـا شـكت ((بـدور)) و ((حياة النفوس)) الابنين لأبيهما، ويأمر الزوج بقتلهما لو لا أن تنقذهما حادثة الأسد مع المملوك. وفي مقدمة هذه القصة تنشد المرأة التي حملها العفريت يوم زفافهـا وسـجنها فـي صندوق حمله فوق رأسه حتى لا تخونه.

بحديث يوسـف فاعتبر متحـ ـذرا مـن كيدهـن

أو ما ترى إبليس أخـ رج آدمـ ـا مـن أجلهن

وفي هذه القصص أيضا نجد نسـاء يكـدن لمجـرد الكيد، للسخرية من الرجال الذين أحبوهن مثل قصة الـوزير السادس من قصص الوزراء السبع، وقد يقترن ذلك بإمعـان

في الفتنة كما في قصص المزين عن إخوته السبعة (الأولى والثانية) من قصة مزين بغداد.

ونماذج العجوز الساحرة والكائدة متعددة فـي هـذا الأدب الشعبي، وأبرز شخصـية مـن هـذا النـوع هـي ((شواهي)) بطلة قصة عمر النعمان ووالديه. وهذه المـرأة لم تستخدم مرها وكيدها في مجال الفتنة والغـرام والجـنس فحسب وإنما في الحرب والسياسة أيضـا، فقـادت جيوشـا وهزمت ملوكا ومماليك، وارتدت ملابس النسك وضـحكت على خصومها المسلمين، وقتلت الملك عمر النعمان وابنـه، وصبرت في سبيل كيدها ومؤامراتها السنين. وفي الحـروب تكون شواهي مركز القتال بين المسلمين والنصارى، فهـي تخدع المسلمين والنصارى معا، وهي تسبب الضرر والهلاك للجميع، ولهذا فهم يدبرون لها في نهاية القصة حيلة تنتهـي بصلب شواهي على باب بغداد.

وكم تنفس أمثال هذه القصص عن الرجـال حقـدهم وكراهيتهم الدفينة للمرأة. وكم يشعرون براحة فـي نهايـة القصة حيث تصلب (شواهي) ومثيلات شواهي.

وتعكس شخصية ((شواهي)) ومثيلاتها المتعـددات في أكثر هذه القصص ضحية المرأة العربية الإيجابية التـي كانت تشترك في السياسة والحروب وترتدي الدرع وتحارب في أول الصفوف من مثيلات ((هند بنت ربيعـة)) التـي قتلت بسيفها في معركة ((أحد)) عددا من الرجال من أتباع محمد، بل إنها ذهبت إلى أحد القتلى وهو ((حمزة بن عبـد المطلب)) فأخرجت (من جسده المقتـول) قلبـه وكبـده، وأخذت تعصر كبد حمزة بيدها وتلوكه بفمها وتلعـق الـدم منتشية وهي ترقص على جثته))[1].

وهذا هو السبب في أن المرأة المحاربة في قصـص ألف ليلة وليلة لم تظهر على أنها امـرأة مسـلمة. ولكنهـا ظهرت كساحرة شريرة عجوز أو كامرأة نصرانية، لكن هذه المرأة النصرانية تحب رجلا مسلما، وهي تنضم في النهايـة إلى جيش المسلمين وتحارب معهم وتقتل أعـداءهم. فهـذه ((إبريزة)) النصرانية تحب ((شريكان)) المسلم وتتـزوج عمر النعمان المسلم وتلد ((رمزان)) وهي تنضم إلى جيش

(1) عبد الرحمن الشرقاوي، محمد رسول الحريـة، كتـاب الهلال، القاهرة، ١٩٦٧ ص ٢١٩.

المسلمين وتحارب معهم. وهذه أيضا مريم الزناريـة تعلـن إسلامها وتحارب أباها وأخوتها من أجل الإسـلام وتقـتلهم، ويحميها الرشيد في النهاية بسبب إسلامها.

ويعكس هذا الأدب الشعبي رغبة المسلمين في بداية الإسلام من إدخال هؤلاء النساء القويات أمثال ((هند بنـت ربيعة)) في الإسلام، وقد حدث ذلك فعلا في تاريخ الإسلام. كما يعكس الصورة القوية التي كانت عليها النساء العربيـات واشتراكهن في الحرب والسياسة والدين والمجتمع الكبيـر، سواء قبل الإسلام أو في حياة محمد.

كما يعكس أيضا ارتباط الفتنة عند العـرب بـالقوة والإيجابية في المرأة، فقد وجدت أن أكثر نساء المحاربـات في قصص ألف ليلة وليلة فاتنات تفـوق فتنـتهن أي نسـاء أخريات سواء كن غانيات أو مغنيـات أو عشـيقات. وفـي معظم هذه القصص فإن المرأة المحاربـة لا تكشـف عـن وجهها إلا في آخر لحظة، وهي دائما لحظة حرجة، وعندها يتوقف كل شيء، الهزيمة البشـعة أو النصـر المبـين. إذا بالمرأة (في هذه اللحظة) ذلك الفارس الشـجاع الرشـيق، (كثيرا ما كانت تتنكر المرأة العربية في الحـرب فـي زي

فارس من الفرسان كما فعلت هند بنت ربيعة فـي معركـة ((أحد))، تكشف عن وجهها فإذا بفتنتها تكسـب المعركـة الأخيرة كأنما هي سهم أشد فتكا من سهام الحـرب. وهكـذا انتصرت معظم البطلات المحاربات من أمثال ((الـدنماء)) في قصة الجارية الثانية في اليوم السابع من مجموعة قصص الوزراء السبع.

مثل ما برزت المرأة العربية في الحرب والسياسـة والفتنة، برزت أيضا في الفنون والآداب والعلوم. وقد بلغـت بعض النساء والجواري شأنا عاليا في هذه المجـالات فـي الحياة الواقعية للعرب إلى حد أن ((الرشيد)) نفسه تـزوج بعض هؤلاء ممن رددن عليه ردا حكيما أو أكملن بيتا ناقصا من الشعر أو أنشدن أبيات شعر أعجب بها. وفـي قصـص ألف ليلة وليلة نجد بعض هذه الوقائع وقد نقلت مـن كتـب الأدب على شكل أخبار. فهناك ثلاث نساء شـاعرات حكـم ((الأصمعي)) بقدرتهن على قول الشعر. وواقعة تحكي عن الرشيد والبنت العربية الشاعرة. واستمدت ألف ليلـة وليلـة قصصا مـن حيـاة ((إسـحاق الموصـلي)) والجـواري والمغنيات اللائي كان يطرب لهن، وكم من أخبـار تنسـب

((لأبي نواس)) الشاعر العربي الذي اشـتهر فـي الأدب العربي بالسكر والمجون.

وكم تبلغ المرأة من قوة حين تصورها قصص ألف ليلة وليلة على شكل ((جنية)) يقع في غرامها وسحرها الرجل، لكنه يشقى من أجل الوصول إليها، مثل شمسة في ((قصة جانشاه)) و ((منار السنا)) في قصة حسن البصري. والمرأة ((الجنية)) التي تسكن البحر وتحكم طائفة من الجن، مثل ((جلنار)) فـي قصة الملك ((بدر باسم)) أو المرأة ((الجنية)) التـي تحكـم مدينة يعبد أهلها الشمس أو النار. وهناك أيضا شخصية الملكـة القوية ((لاب)) التي تسخر نفسها طـائرا إذا أرادت أو تكـون آدمية حين تريد. أما ((جلنار)) فهي قادرة على الغـوص فـي البحر والسير في قاعه والتحدث مع أهله والغضـب والانتصـار بمثل ما تفعل على الأرض بالضبط.

وتشغل المرأة ((الجنية)) حيزا كبيرا في قصـص ألف ليلة وليلة مما يؤكد أن قوة المرأة ظلـت راسـخة فـي وجدان الشعب العربي، وظلت مرتبطة بقوة الجان والعفاريت والشياطين منذ الأزمنة القديمة حتى القرون الوسطى حتـى عصرنا الحديث.

المرأة في الملاحم الشعبية العربية

تلعب المرأة العربية دورا بارزا في الملاحم والسير الشعبية. ومن أشهر هذه الملاحم سيرة الأميـرة ذات الهمـة [1]، التي لعبت البطولة فيها امرأة، وهي فاطمة بنت مظلوم. والنساء في هذه الملحمة نساء فارسات مقاتلات أكثر شجاعة وقدرة على القتال من الرجال. وتردد صفة المرأة المرغوبة بأنها ((قاتلة الشجعان)) وإنها تنتصر على أشجع الرجـال في المبارزة بالسيف. وهي لا تتزوج إلا الرجل الذي تختاره والذي يستطيع أن يصمد أمامها في المبـارزة. ولا شـك أن القاص الشعبي كان يعكس واقعا تعيشه المرأة العربيـة فـي ذلك الوقت. وملخص قصة الأميرة ذات الهمة هو أن أباهـا كان يريدها ذكرا حتى يورثها نصيبه مـن العـرش الـذي استولى عليه أخوه ظالم لأنه أنجب ذكرا. وحين ولدت أنثـى حزن أبوها حزنا شديدا فذلك معناه أن يفقد السلطان والملـك والجاه والسيادة. وتنكر الأب لابنته، وحاول أن يتخلص منها

([1]) نبيلة إبراهيم – سيرة الأميرة ذات الهمـة، دار الكتـب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

بالقتل لكن القابلة تشير عليه أن يعهد بها إلى جارية بيضـاء من جواريه اسمها ((سعدى)). وأصبحت سـعدى ترضـع هذه الطفلة التي سمتها ((فاطمة)) وتعـيش فاطمـة مـع مربيتها الجارية لا تعرف شيئا عن أبيها وأهلها. وفي إحدى الحروب تؤخذ فاطمة هي وسـعدى أسـيرتين وتتعرضـان للسبي، وتصبح فاطمة جارية من جواري بني طي وهم قبيلة غير قبيلتها. وأصبحت من نصيب رجل اسمه الحارث، غير اسمها وجعلها تعمل أعمال الجواري المهينة. وتقبل فاطمة أو ذات الهمة هذه الحياة الذليلة على كره وهي تأمل أن يكـون لها قوم يأتون لإنقاذها هي وسعدى التي كانت تظن أنها أمها. لكن أحدا لم يأت لينقذها فبدأت تشعر أنها تحب أن تنقذ نفسها بنفسها فأخذت تتعلم فنون القتال والفروسية بعد أن أدركت أن القوة هي قوة السيف.

ويحاول أحد الفرسان اغتصابها جنسيا علـى أنهـا جارية فترفض ويطاردها مطاردة عنيفة فتقتله بسيفها. وتبدأ ذات الهمة حياتها كفارسة مقاتلة، ويثـق سـيدها بكفاءتهـا وشجاعتها فيستعين بها في حروبه وغزواته ضـد القبائـل الأخرى. وتنتصر ذات الهمة في جميع معاركهـا وتجلـب

لسيدها الأموال والزهو والكرامة والسـيادة وأطلـق عليهـا ((داهية بني طي)) وذات الهمة، وأصبحت هي حامية بني طي برجالهم ونسائهم.

وفي إحدى غزواتها ضد إحدى القبائل وهـي قبيلـة بني كلاب التي ينتمي إليها أبوها تنتصر على القبيلة وتنتصر على أبيها وتأخذه أسيرا ذليلا إلى بني طي. ويقرر بنو طـي قتله في يوم مشهود، لكن ((سعدى)) تتعرف علـى الأب، وتطلع ذات الهمة على السر الذي كتمته عنهـا. وتنقـذ ذات الهمة أباها من الموت وتعود به إلى قبيلتها، حيـث تعـيش بينهم في الصدارة فهي منتصرة وهي قويـة وهـي مقاتلـة شجاعة. ويثرى أبوها بفضلها ثراء عظيما ويحقق انتصارات هائلة، مما هدد نفوذ أخيه ((ظالم)) وابنه الذكر الذي أثبتت ابنة أخيه ((الأنثى)) أنها أقوى منه وأشجع.

ومن أجل احتواء ذات الهمة، رأى عمـه ظـالم أن يزوجها لابنه، لأنه كان يرى إنهـا ((إذا صـارت لولـده انكسرت حرمتها وقل نشاطها وذهبت قوتها)). وتدل هـذه العبارة عن حقيقة الزواج الذي يسلب المرأة قوتها ونشـاطها ويكسر شوكتها.

غير أن ذات الهمة تكشف الحيلة بـذكائها وتـرفض الزواج من ابن عمها وتقول: ((لست أريد لي بعلا إلا سيفي هذا) ومعنى ذلك أن ذات الهمة فضلت أن تتـزوج السـيف على أن تتزوج رجلا. فالسيف يعطيها قوة وكرامة ويضعها بشجاعتها وقدرتها فوق الرجال. أما الـزواج برجـل فإنـه يحولها إلى أنثى محكومة وخاضعة لرجل.

ومن شدة ثقة ذات الهمة بقدرتها القتالية وفروسـيتها فقد أدركت أن رجلا لا يستطيع أن يهزمها ومن ثم أطلقـت شعارها: ((لن أتزوج إلا من يقهرني في الميدان)). ويتقدم ابن عمها مغرورا بشجاعته لكن ذات الهمة تهزمـه هزيمـة منكرة أمام القبيلة كلها، فيشعر بالإهانة والغيظ، ويتوسل إلى الخليفة كي يزوجه منها.

ويتدخل الخليفة في الأمر وتتزوج ذات الهمة من ابن عمها لكنها لا تسمح له بالاتصال بها جسديا. فيدس لها نوعا من المخدر في الشراب وحين تفقد وعيها يتصل بهـا فـإذا أفاقت هددته بالانتقام منه، لكنها حملـت منـه ابنهـا عبـد الوهاب.

وتشتعل الحرب بين العرب والروم، وتعجز قـوات المنصور الخليفة العباسي عن الصمود أمام هجمات الـروم، فيستعين الخليفة ببني كلاب الذين منهم ذات الهمة وينتصـر المسلمون على الروم بفضل مهارة ذات الهمة في الحـروب ورجاحة عقلها وقوة سيفها. وكانت إذا غابـت ذات الهمـة لحقت الهزيمة بالمسلمين، وإذا حضرت أحرزت النصر حتى أصبح مصير الدولة كلها مرتبطًا بوجودها وغدت في نظـر العرب والروم معا ((نصف الإسلام)).

وكان جيش الروم أيضا بقيادة امرأة هي ملطية بنت ملك الروم التي هزمت أبطال المسلمين في غياب ذات الهمة وتمكنت من الاستيلاء على الحصون الإسلامية. لكـن ذات الهمة انتصرت عليها وحرقت حصنها واستولت على مدينـة ملطية التي كانت قد سمتها باسمها.

وتعكس هذه الملحمة قوة المرأة سواء عند العرب أو عند الروم. بحيث إن أعظم الجيوش كانت تحت قيادة النساء وليس الرجال. ويستعرض القـاص الشـعبي فـي وصـفه شخصيات نسائية متعددة تثبت قوتها وإيجابيتها في المجتمـع والحياة السياسية العامة وتتعدد النماذج البطوليـة النسـائية،

وتزخر بها الملحمة من مثيلات (ميرونة) بنـت البطـرق، وزنانير بنت الملك بولس، والقناصة بنت مـزاحم والملكـة ميمونة وهن نساء في مثل بطولة وشجاعة ذات الهمة نفسها بل بعضهن تفوق أحيانا عليها في الميدان.

وكل هذه النماذج من النساء تعكس قدرات المرأة في ذلك الوقت وإمكانياتها غير المحدودة. وتتكرر هذه النمـاذج في معظم الملاحم الشعبية وليست فقط في ملحمـة الأميـرة ذات الهمة مما يدل على أن بطولة المرأة ومشـاركتها فـي الحياة العامة كانت هي القاعدة وليست الاستثناء.

ويربط القاص الشعبي بين بطولة المرأة وبين الدفاع عن الإسلام. و يجعل المرأة هي الحاميـة للإسـلام، وهـي المدافعة عنه، فيه امرأة ((تغير على دين الإسلام وتحـامي عن المسلمين)). ويحاول القاص أن يثبت أخلاقيات الـدين ومن أهمها عفة المرأة ودفاعها عن شرفها إلى حد أنها تقبل الموت ولا تفرط في عرضها. وهي في معظم الأحيان زاهدة في الجنس، تزوجت السيف بدلا من الرجـل، أو تزوجـت الإسلام ووهبت حياتها دفاعا عن الدين، أو وهبت ابنهـا أو أغلى شيء من أجل الدين. وبرغم أن الملاحم الشعبية تعكس

قدرة المرأة القتالية ومشاركتها في الحرب والسياسة إلا إنهـا تصور عفة المرأة دائما كامرأة مستقلة تعيش وحـدها بغيـر زوج، فهي زاهدة عابدة مقاتلة، أم شخصية المرأة الزوجة أو الحبيبة فهي شخصية امرأة تعيش من خلال وجها ومن خلال ابنها. إذا كان زوجها بطلا فهي تخدمه وتساعده على النجاح. وهي تخلص له وتتفانى في هذا الإخلاص إلى حد المـوت. ومثال ذلك ملحمة عنترة ابن شداد وامرأته عبلة التي ظلـت وراءه صامدة أمام كل المغريات حتى أثبت وجوده وتغلـب على العقبات، وأصبح فارس الفرسان. وفي ملحمـة حمـزة العرب كانت وراء بطولة حمزة امرأته مهر دكار أي شمس النهار بنت كسرى أنوشروان [1].

---

(1) انظر كتاب السير الشعبية مثل سيرة الأمير عنترة بـن شداد، مكتبة الجمهورية العربية (عبد الفتاح مراد) القـاهرة، سـيرة الأمير حمزة البهلوان، مكتبة الجمهورية (عبد الفتاح مراد) القـاهرة، أضواء على السير الشعبية (فاروق خورشيد) المكتبة الثقافية العـدد ١٠١ يناير ٦٤، القاهرة، عبد الحميد يونس، دفاع عن الفولكلور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٧٣، القاهرة.

وتختلف السير الشعبية عن ألف ليلة وليلة في أنها لم تجعل المرأة المقاتلة الشجاعة جنية أو ساحرة أو شيطانة وإنما جعلتها امرأة حقيقية طبيعية فيما عدا أنها تزهد الجنس والزواج في معظم الأحيان.

وقد تأثر الأدب العربي الحديث بالطبع بكل ما سبقه من أدب. إلا أن صورة المرأة كزوجة وحبيبة طغت على صورتها كفارسة مقاتلة في الحرب ومشاركة في السياسة. فقد زادت سلبية المرأة بازدياد المدنية الحديثة وازدياد رسوخ النظام الأبوي ورسوخ النظام الطبقي، وازدياد الفروق الموضوعية بين طبقة وطبقة. وبين جنس وجنس، وبين لون ولون.

وكما رسمت المرأة القوية الإيجابية في ألف ليلة وليلة هي إنها ((جنية)) أو ساحرة أو شيطانة، فقد صور الأدب الحديث أيضا المرأة الإيجابية القوية على أنها جنية أو عفريتة. إلا أن المرأة في الأدب العربي الحديث لم تأخذ صورة ((الجنية)) شكلا ومعنى كما حدث في ألف ليلة وليلة، وإنما أخذت المعنى فحسب واحتفظ جسدها بالشكل

الآدمي كغيرها من البشر، ولكن مرها ظل ينتمي إلى أهـل الجان أكثر مما ينتمي إلى البشر.

وقد عبر عن ذلك زكي مبارك حين وصف المـرأة بأنها أعظم قدرة من الشياطين والأبالسة على الفتك بالرجل. وعبر عن المعنى نفسه العقاد، لكنه أرجع قدرتها على الفتك والكيد والإغراء إلى طبيعتها الضعيفة. إن حواء في نظره لم تأكل من الشجرة المحرمة أو تغري آدم بالأكل منهـا إلا أن المرأة بطبيعتها تتعلق دائما بالشيء الممنوع، وتسـول لهـا نفسها الضعيفة والإغراء. أي أن هذه الشجرة ((هي عنوان ما في المرأة من خضوع يؤدي إلى لذة العصيان ومـن دلال يؤدي إلى لذة الممانعة، ومن سوء ظـن وعنـاد ضـعف، واستطلاع جهل، ومن عجز عن المغالبة، و عجز عن الغلبة بغير وسيلة التشهية والتعرض والإغراء)) [1].

وقد اشتهر توفيق الحكـيم أيضـا بلقـب ((عـدو المرأة)) وله في هذا المجال أفكار تكاد تشبه أفكار العقاد مع شيء من الاختلاف. ففي قصته ((الرباط المقدس)) يصور الحكيم امرأة متمردة، وتمردها في رأيـه لـيس مـن أجـل

([1]) عباس محمود العقاد، هذه الشجرة ص ١٥.

طموحها الفكري في الحياة والمجتمع، وإنما هو تمـرد مـن أجل ملء الفراغ العاطفي في حياتها، وينادي توفيق الحكـيم ((وهو المفكر في القصة)) بأن المرأة لمي عد عندها وازع ديني بما يكفي وأن على المفكر أن يتولى إيقـاظ الضـمير الديني عندها. ويصور الحكيم المرأة كما صـورها العقـاد مخلوقا لا يخلص إلا لغريزتـه، ونـوازع الجسـد، وتكـاد تتصرف مثل ((سارة)) العقاد بغير قيم دينية أو فكريـة أو اجتماعية.

لا يمكن للقارئ إلا أن يشعر أن العقـاد والحكـيم ينطويان على خوف شعوري أو غير شـعوري مـن ذلـك المخلوق الأنثوي الغريزي والقوي في غريزتـه الجنسـية، والذي لا يأبه لـدين أو خلـق أو مجتمـع. والمـرأة عنـد ((الحكيم)) تعتبر اللهو والعبث حقها المشروع فهي تتحدث عن ذلك ((بلهجـة الواثـق المتحـدي بـأن هـذه حقهـا المشروع))[1].

([1]) توفيق الحكيم، الرباط المقدس، طبعة الآداب، ص ١٧٢.

ويعكس الأدب العربي الحديث نظرة المجتمع الأبوي التقليدي للشرف وارتباطه بعذرية البنت، وفـي روايـة داء الكروان يعبر ((طه حسين)) عن هذا المفهـوم التقليـدي للشرف وتعرض البنت الصغيرة ((هنادي)) للذبح بسـكين خالها وبالتعاون مع أمها، تلك المرأة التي صـورها الكاتـب عاجزة عن الدفاع عن ابنتها بل ومشتركة مع الخـال فـي القتل.

ويظل الخال القاتل حرا طليقا ولا يعتبر مجرما كأنما هو أدى واجبه كرجل غيور على شرف أسرته ((العـار لا يغسله إلا الدم)) مثل عربي شائع. أما الشاب المهندس الذي اعتدى على شرف ((هنادي)) فهو أيضا لا ينال أي عقاب على يد الكاتب، وإنما يحظى في نهاية القصة بحـب أختهـا آمنة. وتدور القصة في البداية حول رغبة آمنة في الانتقـام من هذا الشاب الذي بسببه ذبحـت أختهـا. وتقـول آمنـة: ((أصبح مما لا بد أن يكون الصراع بينه وبيني، فلـيعلمن بعد وقت طويل أو قصير أذهب دم ((هنادي)) هـدرا أم لا

يزال على هذه الأرض من هو قـادر علـى أن يظفـر لـه بالثأر)) [1].

ولا تفكر آمنة على الإطلاق في عقاب خالها الـذي ذبح أختها لأن طه حسين يقول في قصته عن النساء أنهـن ((عورة يجب أن تستر، وحرمة يجب أن ترعى، وعـرض يجب أن يصان)) ويدور الصراع بين آمنة وذلك المهندس، صراعا غير متكافئ من كل النواحي، فالمهندس متعلم ومـن طبقة أعلى من آمنة، وآمنة ليست إلا فتـاة جاهلـة لكنهـا تستخدم أنوثتها وفتنتها في الصراع. فالصـراع هنـا لـيس صراعا فكريا ولا اجتماعيا ولا ثقافيا يوضح للقارئ الظلـم الواقع على المرأة، ولكنه صراع يؤكد أن سلاح المرأة فـي الحياة ليس إلا أنوثتها ودلالها وإغرائها وإقبالهـا وإدبارهـا وتلك الألاعيب الأنثوية الشيطانية. ويحـاول المهنـدس أن يخدعها كما خدع أختها لكن خداعها له ينتصر على خداعـه لها، وتتمنع شهوته لكنها ترفض أن يلمسها، فهي تـدرك أن الرجل يزهد في المرأة التي ينالها جنسيا ويلفظها كالنواة كما

---

(1) طه حسين، دعاء الكروان، طبعة دار المعارف، القاهرة، ص ١٣٥.

فعل مع أختها. وتنجح خطة آمنة ويقع المهندس في حبهـا. وهذا الحب ((في رأيي)) لم ينبع إلا من الحرمان الجنسـي واشتهاء أنثى ليست في متناول اليد، وشتان بين هذا الشعور وبين الحب الحقيقي. لكن الكاتب يصف شـعور المهنـدس لآمنة وكأنه الحب الحقيقي. وكأنه يؤكد أن المرأة يجـب أن تراوغ وتمكر وتحرم الرجل جنسيا حتى يقع في حبها. كمـا أنه يصور شعور آمنة وقد انقلب أيضا من خداع إلى حـب حقيقي. ويعبر طه حسين عن حب آمنة للمهنـدس كـالآتي: ((أصبحت آمنة لا تهم بالخلوة إلى ضـميرها حتـى تجـد صورته ماثلة فيه، ولا ترفع عينيها إلا رأت شخصه، ولا تمد إذنها إلا سمعت صوته. قد أخذ عليها الحيـاة مـن جميـع أقطارها. وقد زاد عنها كل شيء وكل إنسـان، وزاد عنهـا حتى أختها تلك العزيزة وأشباحها الحمراء)) [1].

ويرى طه حسين في روايته المـرأة عـاجزة فـي سقوطها حين تفقد عذريتها، وعاجزة في انتقامها حين تقـرر الانتقام، وعاجزة في حبها حين تحب، وهي دائما واقعة فـي فلك الرجل لا حيلة لها ولا قوة، وهي مقتولة بالرجل دائمـا،

---

(1) طه حسين، دعاء الكروان، ص ١٥١.

مقتولة لأسباب متعددة، مقتولة بالشرف، ومقتولـة بالحـب، ومقتولة بالكراهية والانتقام، ومقتولة بالعجز والانسحاق تحت الرجل ماديا ونفسيا وعاطفيا وأخلاقيا.

ويتعاطف طه حسين أحيانا والمرأة لكن تعاطفه ليس إلا تعاطف رجل عربي تقليدي، فيه رحمـة الـذكر القـوي الأعلى على الأنثى الأضعف الأدنى، وكم يلذ له وصف ذلك الصراع الجنسي بين آمنة والمهندس، صراع الرجـل بكـل أسلحته وقوته ضد الأنثى بضعفها وانكسارها وخضـوعها، وهي علاقة تكاد تكون سادية ماسوشية من كلا الجانبين.

وعلى خلاف معظم الأدباء العرب لا يميل الكاتـب محمد عبد الحليم عبد الله إلى عقاب المرأة التي سـقطت أي فقدت شرفها أو عذريتها والسبب في ذلك ليس لأن له نظرة أخرى في مفهوم الشرف، وإنما لأنه مجرد المرأة من وعيها بهذا الإثم، وبالتالي فلا يجوز معاقبتها بمثـل مـا لا يجـوز معاقبة المجنون أو الغائب العقل، ويكتب هذا المعنـى فـي روايته شمس الخريف على لسان بطلته ((إن المرأة أثنـاء السقوط لا تكون في وعيها بل تكون مغيبة تحت سحر الفتنة وسحر الشيطان، لذا يجب أن يغفر لها المجتمع لأنه لا يجوز

الحكم على نـائم، فالمسـئولية إذن علـى الرجـل الـذي أغواها))[1].

ويخالف عبد الحليم عبد الله هنا هؤلاء الذين جعلـوا حواء مسئولة عن سقوط آدم لأنها هي التي أغوته، ويتفق مع هؤلاء الذين جردوها من المسؤولية تماما. ولعل عبد الحلـيم عبد الله تصور أنه يعطف على المرأة كما عطف عليها طـه حسين، لكنه كان أشد احتقارا لها من غيره لأنه لم يكرمهـا حتى بتحمل مسئولية الفعل الذي تقوم به، وصورها مخلوقـا عاجزا قاصرا ناقص العقل أو أبله، بل إنـه صـورها فـي موقف آخر كالمريض أو كالميت فيقول على لسـان بطلتـه السيدة (ف) إن المرأة ((إذا زلت فليس عليهـا مسـؤولية لأنها كالنائم أو المريض أو الميت (وضحكت) فالمسـئولية واقعة على من يهاجمها لأنه ليس أهلا للدفاع)) [2].

ولم ير عبد الحليم عبد الله شيئا يزين المرأة عذريتها أو ((درة العفاف)) تقدمها لزوجها وتقـول لـه ((لا أرى

---

(1) محمد عبد الحليم عبد الله، شمس الخريف، مكتبة مصر، ١٩٥٤، ص ٢٠٦.

(2) المصدر السابق ص ٢٠٦.

لشخصي كيانا مستقلا ولا أحسه قائمـا بـدونك)). ويعتقـد الكاتب أن شرف البنت كعود الكبريـت لا يولـع إلا مـرة واحدة، وهذا مثل شهير في مجتمعنا، اشتهر بترديـده أحـد ممثلي المسرح المعروفين ((يوسف وهبي)). وعبد الحلـيم عبد الله يرى أن البنت التي يلمسها رجل تصبح كالإناء القذر الذي شرب منه شخص آخر من قبل. ويقـول بطلـه فـي الرواية حين تتمنع عليه معشوقته ((إنها خافت على موردها أن يزنق فيعافه الشاربون)) [1].

والمرأة في معظم روايات عبد الحليم عبد الله سـلبية ضعيفة لا وجود لها إلا من خلال رجل، فإذا لم يكن هنـاك رجل فإن المرأة تموت إما بـالموت الجسـدي الحقيقـي أو بالموت حزنا على الحبيب، وحزن عبد الحليم عبد الله حزن فيه من القسوة والازدراء أكثـر ممـا فيـه مـن الرحمـة والاحترام، وهو يشبه إلى حد كبير حزن المنفلـوطي علـى بطلاته. وقد حكم عبد الحليم عبد الله بالموت علـى جميـع بطلاته تقريبا، فقد ماتت ((ليلى)) في لقيطة، وزينب فـي شجرة اللبلاب، والسيدة (ف) في شمس الخريف، وسـميرة

([1]) المصدر السابق، ص ١٤٢.

في رواية من أجل ولدي، أما تلك التي لا تموت فهي تـذوي بعيدا عن الرجل وتسحق.

وتظل المرأة في أدب ((نجيب محفوظ)) هي المرأة سواء في فقرها أو ثرائها أو جهلها أو تعليمها، فلا تزال هي المرأة التي يرتكز شرفها في حياتها الجنسية وعذريتها. وهي تسقط وتفقد شرفها في معظم الأحوال بسبب الفقر. وقد كـان الأدباء الرجال قبل نجيب محفوظ يرون أن المـرأة تسـقط بسبب غريزتها أو شهوتها أو ضعفها كأنثى أو ضعف عقلها. أما نجيب محفوظ فيري للسقوط أسبابا اقتصادية كالفقر، لكنه لا يغير مفهومه عن الشرف، ويظل شـرف المـرأة عنـده متركزا في تلك المنطقة المحدودة من جسـمها (الأعضـاء الجنسية).

وبرغم أن نجيب محفوظ يساير العصر ويري دورا جديدا للمرأة وهو العمل والإنفاق على الأسرة كالرجـل، إلا أنه في حياتها الأخلاقية لا يساويها بالرجل. يقول الأب فـي إحدى رواياته لابنته التي ضيعت من بين يديها شابا ثريا:

((إنك مسئولة عنـا جميعـا وخصوصـا أخوتـك السبعة)) [1].

ويلقي الرجل، سواء كان أبـا أو زوجـا مسـئولية اقتصادية على المرأة لكنه يظل يحكـم عليهـا بالسـقوط إذا مارست في حياتها الشخصية ما يمارسه الرجل، وهي التـي تسقط وحدها، وعليها يقع عقاب الكاتب في معظم المواقف.

وبرغم توضيح نجيـب محفـوظ لـدور الفقـر أو الظروف الاجتماعية في انحراف المرأة أو سـقوطها، مثـل ((وكانت الحرب بآثارها المادية والاجتماعية أول محـرك لمأساة الزقاق التي أدت بحميدة إلى الانحراف)) [2]. إلا أنه يقرر على لسان بطله ((إبراهيم فـرج)) إنهـا ((عـاهرة بالسليقة)) وإنها من ((تبع أبالسة)). ورغم محاولة نجيـب محفوظ لأن يرسم للمرأة صورة محايدة مساوية للرجـل إلا أنها تظل صورة عقلية. ويقع نجيب محفوظ بشـعوره حـين يرسم صورة المرأة التقليدية الراسخة في وجدانـه كرجـل ورث تراثا أبويا طويلا. ويصور نجيـب محفـوظ المـرأة

([1]) نجيب محفوظ، القاهرة الجديدة، مكتبة مصر، ص ٢١.

([2]) نجيب محفوظ، زقاق المدق، ص ١٣٠.

تصويرا سلبيا تقليديا وإن أسبغ عليه بعض الإيجابية الظاهرة التي سرعان ما تتلاشى، وتسقط المرأة في الرذيلة بـالمفهوم التقليدي.

وهو يصف ((نفيسة)) في روايته بداية ونهاية ويقول إن أباها مات ولم يستطع المجتمع أن يكون أبا، فاشتغلت خياطة لتساعد أسرتها، وهكذا أحاطت بها الهموم من كل جانب، وفقدت كل عطف، وكانت غريزتها الأنثوية هي الشيء الوحيد الذي سلم من النقص والضعف، واستوى ناضجا حارا. كان سليمان جابر أول رجل بعث فيها الثقة وطمأنها إلى أنها امرأة كبقية النساء، فسقطت أول مرة تختلي فيها برجل. فسقوطها هنا يبرره الأوضاع العامة التي جعلت ((الجاه والحظ والمهن المحترمة في بلادنا وراثية)) [1].

وتظل المرأة هنا لا تملك سوى أنوثتها وفتنتها كسلاح. ويناقض الكاتب نفسه حين يدافع عن غريزة المرأة الأنثوية ثم يعود فيدن هذه الغريزة ذاتها لأنها سبب سقوط المرأة. وامرأة أيضا هي التي تسقط وحدها وقد حكم نجيب

([1]) نجيب محفوظ، بداية ونهاية، ص ١٩٩.

محفوظ على بطلته نفيسة الساقطة بالانتحار لأنه لم يجد حلا للساقطة سوى الموت.

وفي رواية أخرى على لسان أحد شخصياته يقـول نجيب محفوظ ((المرأة في الأصل عجينة طرية، وعليك أن تشكلها كما تشاء، واعلم إنها حيوان ناقص العقـل والـدين فكملها بأمرين، بالسياسة والعصا)) [1].

وبرغم أن نجيب محفوظ في كتاباته رؤية متقدمة من حيث العدالة الاجتماعي إلا أن نظرته للمرأة لم تختلف كثيرا عن الذين سبقوه، وقد أباح لها حرية التعليم والعمل من أجل مساعدة الأب أو الزوج في مسئوليات الإنفـاق وبشـرط ألا تتعدى حدود الدين والأخلاق. والأخلاق هنـا بـالطبع هـي أخلاق الأسرة الأبوية أو الازدواجية الأخلاقية من حيـث أن المرأة هي وحدها التي تسقط. وقد يتحمس نجيـب محفـوظ أحيانا من أجل بناء المجتمع الاشتراكي علـى لسـان أحـد أبطاله، ويتخيل مجتمعا أفضل، وحالا أحسن ((وأسعده الأمل في تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد)) [2].

---

(١) نجيب محفوظ، خان الخليلي، ص ٤٩.

(٢) نجيب محفوظ، بداية ونهاية، ص ٣٠٢.

وكان لا بد أن يقع نجيب محفوظ في التناقضات. فهو يبيح للمرأة العمل والكسب المادي لكنه لا يبيح لها الحريـة الشخصية. وهو يبيح لها الحب لكنـه يعاقبهـا بالسـقوط إذا أحبت. وهو يشترط عليها الزواج كالوسيلة الوحيدة الشرعية والمسموح بها، لكن المرأة حين تشـترط الـزواج يتهمهـا بالتحفظ وعدم الإحساس بالحب. وهـا هـو أحـد أبطالـه ((حسني)) يقول عن فتاته التي اشترطت الزواج ((إنهـا تريد أن تتزوجني لا أن تحبني، هذا سر برودها وتحفظها)) [1]. وهو يصفها تارة بأنها حيوان ناقص العقل والدين، وتارة أخرى يقول عنها إنها مظهر القوة التي بيديها كل شيء فـي الوجود ((لا يوجد ثمة حركة بين الرجال إلا وراءها امرأة، والمرأة تلعب في حياتنا الدور الذي تلعبه قوة الجاذبية بـين الأجرام والنجوم)) [2].

ويعتبر ((نجيب محفوظ)) أكثر تقدما من العقاد أو ممن سبقوه، وقد تعرض في كتاباته لقضايا اجتماعية متعددة لكنه في موضوع المرأة ظل حريصا حذرا لا يمس العقـاد

---

(1) المصدر السابق، ص ٩٨.

(2) نجيب محفوظ، السراب، مكتبة مصر، ص ٣١٠.

ولا يغير من القيم الأخلاقية النابعة من قوانين الزواج رغم وقوع معظم أبطاله وبطلاته في الحب.

ويمثل الصراع بين الحب والزواج مادة خصبة وغزيرة في الأدب العربي القديم والحديث. وكم ترنم ((أحمد شوقي)) في شعره بمجنون ((ليلى)) وكيف فصل العرب الحب العذري عن الزواج والجنس. و ((محمد حسين هيكل)) في قصته ((زينب)) يصف صراع البطلة بين الوفاء للحبيب والإخلاص للزوج. وتموت زينب من الحزن على حبها الضائع، وقبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة تقول لأمها ((بدي أموت وكله من إيدكوا، فضلات أعيط وأقولك يامه ما بديش أجوز، تقولي لي كل الناس أبوهم بيجوزهم على غير كيفهم وبعدين يصبحوا ويا اجوازهم زي العسل. إني ويا جوزي زي العسل وما قلتش حاجه. لكن أديني حاموت وتخلص العيشة اللّي بيننا وبين بعض، وصيتكوا أخواتي لما تيجوا تجوزوا حد منهم ما تجوزهمش غصب عنهم أحسن دا حرام)) [1].

---

(1) محمد حسين هيكل، زينب، ص ٢٣٩.

وقد عاش ((محمد حسين هيكل)) في مصـر فـي الفترة ما بين ١٨٨٨ و ١٩٥٦ وقـد شـهدت هـذه الفتـرة الدعوات الأولى لتحرير المرأة من الجهل والحجاب. ونادى ((قاسم أمين)) بتعليم المرأة لتصبح زوجة وأما كفئا. ومـن أهم نواحي هذه الكفاءة إتقانها الخياطة لتخيط ملابس زوجها وأطفالها. وانعكس ذلك على الأدب في ذلك الوقت، وظهرت شخصيات نسائية جديدة مثل ((عزيزة)) في قصة ((محمد حسين هيكل)) وهي فتاة تعلمت القراءة والكتابة والخياطـة والتطريز لكن الحجاب فرض عليها وهي في الثانية عشـرة كما كان شائعا في ذلك الوقت. وأدخلها الحجاب إلـى عـالم ((الحريم)) بقيوده الجسدية والفكرية، و لهذا هـي تسـمية ((الثوب الأسـود)) ثـوب الحـزن والأسـى. وتتحسـر ((عزيزة)) على نفسها ومثيلاتها حين تقول فـي القصـة ((ما لنا جماعة الدفينات وللحب، إنما نحب في ظلـم نتلـذذ منه بخيالات لا وجود لها)). وتقول ((عزيزة)) إن أهلهـا وجدوا في نقوش الحيطان ما يكفي البنت عن التمتع بالحيـاة

أو بالشمس وتصرخ قائلة ((يا عدالة السماء: هل من أجـل هؤلاء السذج خلقت غروب الشمس لا لنا)) [1].

ويفرض على ((عزيزة)) زوج لا تريده ولا تحبـه وتنقل من ((سجن الأبـوة)) إلـى ((سـجن الزوجيـة)) وتصبح ((بين حيطانه الأربعة أشد حيرة من الدمعـة فـي عيني المحزون)) وتبكي بكاء مرا ((تسكب الـدمع علـى شـبابها الـذاهب تتخبطـه يـد الشـيطان)) إلا أن حـال ((عزيزة)) كان أرحم من حال ((زوجـة حسـنين أبـو مخيمر)) التي كان يضربها زوجها بوحشية دون سبب. وإذا بكت ازداد الضرب والشتم ((ولم يكن ينقذها مـن يديـه إلا الناس الذين يتجمعون على صراخها)) [2].

وقد نشر ((محمد حسين هيكل)) هذه القصـة فـي طبعتها الأولى سنة ١٩١٤ وخشي أن يوقعها باسمه خوفا من أن تؤثر على عمله في المحاماة والسياسـة ووقعـه باسـم ((مصري فلاح)) وقد كان محمد حسين هيكـل مـن رواد الأدب العربي المعاصر ومن أوائل من صوروا الظلم الفادح

---

[1] محمد حسين هيكل، زينب ص ١٧٢.

[2] محمد حسين هيكل، زينب، ص ١٧٥.

الواقع على المرأة في المجتمع العربي، إلا إنه لم يستطع أن يقدم حلا لمشكلة الفصل بين الحب والـزواج سـوى مـوت البطلة.

حواء، الأنثى، البغي، ومريم الأم الطاهرة

وقد كان الفصل بين الحب والزواج، إحـدى نتـائج الفكرة القديمة التي تمجد الحب العـذري أو الروحـي، أمـا الزواج الذي يتضمن الجنس فهو نوع من الإثم، وقد أدى كل ذلك إلى أن تصبح النساء نوعين: الأنثى أو ذات الجاذبية أو الشهوة الجنسية.. والأم الطاهرة العذراء الخالية من أي جنس أو شهوة.

ويزخر الأدب العربي بنماذج متعددة لهذين النوعين النقيضين من النساء. وترمز الأم إلى الحب العظيم السـامي وترمز الأنثى إلى الحب الأدنى المدنس.

ويظهر تقديس الرجل العربي لحب أمه فـي الثقافـة والأغاني والشعر وفي روايات الأدباء ومنهم ((المـازني)) الذي قال لأمه ((أنت سيدتي. إنني أحبك، وأجلك وإني مدين لك بكل ما جعلني أنا)) [1].

ويسقط المازني حبه الطاهر لأمه على المرأة الحبيبة فيقول أن الإنسان لا يمكن أن ((يسعد في الحياة إلا في ظل

---

(1) قصة حياة المازني كتب ثقافية، العدد ٩٨، ص ٣٢.

امرأة حبيبة مشرقة كالصباح، جميلة كالقمر، طاهرة كالشمس، مرهبة كجيش بألوية)) [1].

وقد وقع المازني هنا في تناقضات عدة أو خلع على الحبيبة أوصافا متناقضة بعيدة عن الحقيقة والعقل؛ فهي مشرقة جذابة لكنها طاهرة، وهي طاهرة (بكل ما في الطهر من معاني الرقة والعذرية والوداعة والسلبية والضعف) لكنها مرهبة كجيش بكل ما في الجيوش من قوة وخطر محدق.

وهذا في رأيي تعبير عن نفسية رجل ربط الطهر بالجمال بالإرهاب، وهي تشبه نفسية الطفل الذي يخاف أمه ويرهبها ويشتهيها، ولكنها في نظره ظاهرة محرمة، وهو يحبها وحبه لها أقوى حب في حياته.

وبسبب ذلك تبدو المرأة الأنثى في نظر المازني غريبة غير مفهومة، والنساء (غير أمه) محيرات مستعصيات على الفهم: ((هؤلاء النساء أمرهن عجيب والذي يستطيع أن يعرفهن على حقيقتهن لم يخلق بعد)) [2].

---

(1) المازني، إبراهيم الكاتب، ص ١٥٢.

(2) المازني، إبراهيم الثاني، كتب ثقافية، العدد ٨٠، ص ١٦٣.

ويتخبط المازني في وصفه للمـرأة، وتـارة يراهـا مجرد أداة للولادة وحفظ النوع، وجمالها وجاذبيتها نوع مـن الكفر بالله: ((هي أداة لحفظ النوع وجمالهـا شـرك)) [1]. وتارة أخرى يقول عنها: (لا تفهم الدنيا باعتبارها كـلا، ولا تقدر أن تفنى في الجماعة)) [2] لكنه يناقض نفسه ويعتـرف أن المرأة هي كل شيء فـي الحيـاة بـل ((هـي الحيـاة مختزلة)) [3].

ويتغزل المازني في الفتاة الغربية التي تحب الرجـل بحريتها واختيارها، ويذم الفتاة المصرية التي لا تستطيع أن تحب بحريتها واختيارها ولذلك فإن الزواج في مصـر فـي رأيه ((ليس فيه ما يخدم الآداب أو الفنون أو يساعد علـى التقدم)) [4].

إلا أن إعجابه بهذا النموذج من المـرأة المتحـررة يتكشف عن إنه إعجاب غير حقيقي لأنه سرعان ما يـزدرى

([1]) المازني، إبراهيم الكاتب، طبعة مصرية، ص ٢٤.

([2]) المصدر السابق، ص ٦٨.

([3]) المصدر السابق، ص ١٣١.

([4]) المصدر السابق، ص ٣٠٤.

((ليلى)) المتحررة لأنها دفعت ((شرفها)) وعفافها ثمنا لتحريرها ويصرح بأن التحرر دنسها. ويعبر المازني عن أزمة الرجل العربي المتعلم الذي تجسد في بطل روايته والذي أراد أن يحطم سجن التقاليد ليفوز بالفتاة التي أحبها، لكنه في الوقت نفسه يرفض الفتاة المتحررة من هذه التقاليد ذاتها التي أراد تحطيمها.

ويقف أبطال المازني حائرين سلبيين أمام النماذج المختلفة، فالمرأة الأنثى المتحررة مرفوضة وتصدم عقلية الرجل العربي المحافظ على مفهوم شرف الفتاة وعذريتها. والمرأة العاملة المكافحة خشنة فقيرة لا ترضيه لأنه تعود على نساء منعمات عاطلات في البيت، أما الفتاة الطاهرة التي ترضيه فهي فتاة تقليدية بالطبع وتحول بينها وبينه التقاليد.

وأقصى ما تتمناه البطلات في أدب المازني على اختلاف أنواعهن هو أن تحقق وجودها بالزواج. أن عالم المرأة عنده ليس إلا الرجال وأحلام العثور على الزواج. وبعد الزواج لا تنشغل امرأة إلا بفنون الاحتفاظ بالزوج،

وتدربها أمها على هذه الفنون قائلة: ((ينبغي أن تكوني لـه كل يوم امرأة جديدة تتصدى له وتغريه وتفتنه)) [1].

وتتدرب المرأة على فتنة الرجل على يـد أمهـا أو خالتها كما تدربت نساء ألف ليلة وليلة على الكيـد والفتنـة والسحر على أيادي ((شواهي)) و ((تـودد)) ودواهـي وغيرهن من الساحرات الكائدات.

أما الزوج الذي يتزوج امرأة عاملة قوية الشخصـية واثقة من نفسها فهو يصوره على أنه رجل ضعيف الشخصية يرضخ لإرادة زوجته [2] ويعارض أمه التي كانت تحرضـه ضد خروج زوجته إلى العمل. ويقول نجيب محفوظ عن مثل هذا الزوج إنه زوج فاشل، لأنه ينشأ في حياة تعود فيهـا أن تكون المرأة هي صاحبة الإرادة، ومالكة الزمام، وأنه كـان عليه أن يأخذ زمام المبادرة والسيطرة حين أصـبح زوجـا ولكنه لم يفعل ذلك، وبذلك فشل كزوج ((ولم يخط في سفر الزواج الضخم حرفا واحدا)).

([1]) المازني، إبراهيم الثاني، ص ٥٢.

([2]) نجيب محفوظ، السراب، ص ٢٤٩.

ويصور نجيب محفوظ المرأة ((رباب)) على إنهـا لا تحب مثل هذا الزوج ولكنها تعشق رجلا آخـر، وتخـون رباب زوجها مع عشيقها، ولا يغفر لها الكاتب ذلك فيجعلهـا تموت أثناء عملية الإجهاض.

وتمثل المرأة الأنثى للرجل خطـرا وخوفـا قـديما مرتبطا بالجنس. ولذلك هو يريدها طاهرة كأمه أو غير أنثى، ويريدها كالملاك الضعيف المستكين. لكنه في الوقت نفسـه يشتهي الأنثى ويشتهي فتنتها وسحرها لكنه يفزع مـن هـذه الفتنة التي يقع أمامها صريعا فاقد القوى.

ويعبر توفيق الحكيم عن ذلك التناقض الذي يعيشـه الرجل حين كتب في ((عودة الروح يصـف بطلتـه سـنية ويقول: ((وكانت المرأة في سحرها الجسمي والمعنوي، وإن هي أحيانا خفضت أهدابها الطويـل الجميلـة وهـي تكلـم ((محسن))، وضحكت ضحكات نسائية رقيقة غايـة فـي الأنوثة، و منعت عينيها من إطلاق النظر إلا في أدب وخفر وتحفظ. فما كان ذلك كله عن طبيعة فيها، بـل هـو حيـاء مصطنع، لعله أرق سحر تمتاز به المصـرية، والحقيقـة أن المصرية أمهر امرأة تدرك بالغريزة ما في النظرة الواحـدة

من وقع وتأثير. لذا هي لا تنظر إلى محدثها كثيرا ولا تبخس نظراتها ولا تقلبها جزافا كما تفعل الغربية الجريئة النزقـة، بل إنها تحتفظ بنظراتها بين أهدابها المرخاة كما يحفظ السيف في الغمد، إلى أن تحين الساعة المطلوبـة فترفـع رأسـها وترشق نظرة واحدة تكون هي كل شيء)) [1].

ويكاد يشبه هذا الوصف نسـاء ألـف ليلـة وليلـة وخبرتهن وتمرسهن بوسائل السحر والفتنـة وكيفيـة إيقـاع الرجل في الشرك. وبرغم اشتهاء الرجل العربي لمثل هـذه الأنوثة الساحرة سحر الشياطين إلا إنه لا يشتهيها إلا للمتعة فحسب أو العشق. أما المرأة التي يريدها أن تكون زوجة له وأما لأولاده فهو يختارها طاهرة كأمه وهو يريدها شـريفة عفيفة وليست أنثى أو جريئة كتلك المرأة الغربية المتحررة.

ويظهر معظم الكتاب العرب المعاصرين كـراهيتهم للمرأة الجريئة المتحرر. ويتقزز بطل ((عبد الحميد جـودة السحار)) حين يرى ((كوثر)) حبيبتـه ((بالمـايوه)) أو

([1]) توفيق الحكيم، عودة الروح، جـ ١ ص ١٤١.

لباس البحر ((فثار دمه في عروقه وشعر بتقـزز وضـيق فبدت لعينيه بغيضة تافهة)) [1].

وكان من الطبيعي أن يشعر البطل بانجذاب أشـد نحـو المرأة التي يحبها، خاصة وأنها كانت جميلة الجسم، ولا بـد أن هذه التقزز الذي اعتراه لم يكن لقبحها وإنما هو شـعور دفـاعي يلجأ إليه الرجل المحافظ على التقاليد. وهو بدلا من أن يعتـرف أنه غير طبيعي يتهمها بأنها بغيضة وغير طبيعية.

ويظهر مثل هذا الرجل المحافظ في معظـم القصـص والروايات، ونراه شديد النفور من تلك المرأة المتعلمة التي تخالط الرجال وتراقصه.. وهو أيضا شديد النفور من المرأة المحجبـة ومن المرأة الفقيرة أيضا التي كثيرا ما سقطت بسبب فقرها. أمـا الفتاة المتعلمة المتحررة فهي تزداد سـقوطا وانحطاطـا بسـبب تحررها، ويصبح الرجل حائرا منهارا: ((فانهار وراح يضـرب في الطريق وهو حيران يحس في أعماقه إحسـاس مـن يعـيش غريبا في الحياة)) [2].

([1]) عبد الحميد جودة السحار، قافلة الزمان، مكتبـة مصـر القاهرة، ص ٣٢٥.

([2]) عبد الحميد جوده السـحار، النقـاب، مكتبـة مصـر، ص ٢٨٤.

وتزداد حيرة الرجل العربي الحـديث إزاء خـروج المرأة الغربية للعمل والمشاركة في المجتمع وخاصـة بعـد غزو الأفكار الاشتراكية للشرق العربي، وينعكس ذلك فـي الأدب. وبرغم تأييد الرجل لخـروج المـرأة للعمـل إلا أن الهدف الوحيد من عملها هو مساعدة الرجـل فـي نفقـات الأسرة، ويظل عملها خارج البيت في نظره شـيئا ثانويـا، ومهمتها الأساسية والأولى في الحياة هي أعمال البيت وخدمة والزوج ورعاية الأطفال. وعلى هذا فقد ظلت المرأة المثالية في الواقع وفي الروايات هي تكل الجميلة الوادعة المطيعـة غير الجريئة وغير الطموحة، بعبارة أخرى المرأة الطـاهرة القديسة. أما المرأة الجريئة أو الطموحة أو المتفتحة العينـين ذات الجسارة والقوة فهي غالبا ما ترمز إلى الدمامة أو الفجر أو عدم الاحتشام، بعبارة أخرى المرأة العاهرة أو البغي.

ويظهر هذا التقسيم بين هذين النوعين مـن السـناء واضحا في أعمال ((نجيب محفوظ: ومنها ((ثلاثيته)) [1]، حيث كانت هناك المرأة القديسة الطاهرة ((أمينة)) وتقابلها

([1]) رواية نجيب محفوظ التي صدرت فـي ثلاثـة أجـزاء (قصر الشوق وزقاق المدق والسكرية).

العاهرة ((هنية أم ياسين)) و ((عائشـة)) الجميلـة ذات الحياء والخفر وتقابلها ((خديجة)) ذات الجـرأة والوقاحـة والدمامة. وهناك الحب العذري الذي تسوده القداسة والطهارة ويقابله الجنس واللذة المحرمة الآثمة فـي حيـاة العـاهرات الداعرات البغايا.

وهذا هو التقسيم نفسه الذي أحدثه النظام الأبوي بين النساء فالمرأة إما أن تكون الآم الطاهرة المقدسة أو الزوجة العفيفة المخلصة الباردة المحترمة، وإما أن تكون المومس أو العشيقة الحارة والجذابة والمحتقرة. والحب أمـا أن يكـون طاهرا مقدسا وإما أن يكون جنسيا منحطا.

وقد حاول نجيب محفوظ أن يستخدم الاعتداء الجنسي على المرأة كرمز للاعتداء على شعب بأسره، ففي الليلة التي اعتدى فيها ((ياسين)) على نور جارية زوجته، واعتـدى أبوه على أم مريم جارتهم إذا بالإنجليز يدخلون الحي. وبرغم هذا الرمز إلا إنه على مستوى حياة الأفراد فإن شرف المرأة عند نجيب محفوظ ظل مختلفا عن شرف الرجل، وظل هـذا الشرف في رواياته يتعلق بسلوك المرأة الجنسي أكثـر ممـا يتعلق بأي شيء آخر.

وتلعب الأنثى البغي في الأدب العربي دورا أكبر مما تلعبه المرأة الطاهرة العفيفة وكأنما الطهر والعفة من الأمور غير الجذابة سواء في الواقع أو في الخيال. أو كأنما البغـي هي الرمز للمرأة الحقيقية وقد نزعت عن وجههـا النقـاب: ((إنما البغي)) هي المرأة الحقيقية وقد جلت عـن وجههـا قناع الرياء فلم تعد تشعر بضرورة ادعاء الحـب والوفـاء والطهر)) [1].

وكم من نماذج للبغي أو المومس في أدبنا المعاصـر وبالذات أدب نجيب محفوظ، الذي كثيرا ما حاول أن يغلـف صورة المرأة المومس بإطار إنساني فيه كثير من الرحمة بها والتفهم لظروفها كضحية للمجتمع، لكنه يظل دائمـا تفهمـا ناقصا يعترف بمأساة المرأة الاجتماعية، وهو لا يصل إلـى أعماق هذه المأساة، ولا يكشف عن أسبابها الحقيقيـة، أمـا مأساة المرأة الأخلاقية والجنسية فهذا هو المجال الذي لمـي طرقه معظم الأدباء العرب القدامى أو المعاصرين.

([1]) نجيب محفوظ، خان الخليلي، مكتبة مصر، ص ٤٠.

الرواد من النساء والرجال العرب

رغم تميز الشرق العربي بحضارته القديمة العريقة في مصر والعراق وفلسطين تلك الحضارات والثقافات وعلى الأخص الحضارة المصرية القديمة التي انتقت إلى الغرب وأخذ منها الغربيون أسسا متعددة لعلومهم وفنونهم، ورغم الحضارة العربية الإسلامية التي امتدت شرقا وغربا وكانت من الأعمدة التي ارتكزت عليها حضارة الغرب الحديثة، رغم كل هذا فقد أصبح الشرق العربي اليوم من البلاد التي يسمونها ((بالبلاد المتخلفة)) ومن ذلك الجزء من العالم الذي يسمى ((بالعالم الثالث)).

وقد استطاع المستعمرون الذين توالوا على مصر والبلاد العربية أن يسلبوا العالم العربي ثرواته المادية والثقافية معا، وأن يطمسوا كثيرا من حقائق التاريخ، وإن يزيفوا البعض منها وأن ينكروا الدور الذي لعبه بعض المفكرين العرب في وضع أسس بعض العلوم والفنون الحديثة من أمثال ابن سينا وابن خلدون.

وقد استنزف الاحتلال الأجنبي والاستعمار العسكري والاقتصادي والثقافي دماء الشعوب العربية سواء في مصـر أو السودان أو الجزائر أو تونس أو ليبيا أو الأردن أو سوريا أو لبنان أو فلسطين أو العراق أو السـعودية أو الكويـت أو قطر أو البحرين أو اليمن أو المغرب أو الصومال.

ولا تزال البلاد العربية حتى اليوم من المناطق الثرية في العالم التي يتصارع على أرضها الاستعمار الجديد بشتى أشكاله ووسائله، ولا تزال أهم ثـروات المنطقـة العربيـة مسلوبة بواسطة الأنظمة الاستعمارية والاحتكارية الجديـدة، ولا تزال الأغلبية الساحقة من الشعوب العربية تعاني الفقـر والأمية والمرض على حين يستمتع بثروات العرب قلة مـن الرجال في أمريكا وأوروبا وبعض الحكام العرب المتعاونين مع الاستعمار والرأسمالية العالمية.

ويدلنا التاريخ أن الشعوب العربية برجالها ونسـائها في أي بلد عربي لم تستسلم قط لتلك القوى التي تسلبها حقها في الحياة الكريمة وكم من شعب عربي ثار وأطاح حكومته الرجعية، وكم من بلد عربي طرد المستعمرين سواء كـانوا

من الفرس أو الترك أو الفرنسيين أو الإنجليز أو الأمريكـان أو غيرهم.

وقد كانت مصر ولا تزال قلب العالم العربي ومنارته الفكرية بحكم موقعها وعددها وتاريخها الطويل في النضـال ضد المستعمرين الأجانب.

وقد عاشت مصر مع العالم العربي عهـود ظـلام حتى نهاية القرن التاسع عشر. تقهقر فيها حال الشعب رجالا ونساء. واستطاعت الحكومـات المسـتبدة مـع الاسـتعمار الأجنبي أن تفرض على الرجال والنساء قيـودا اقتصـادية واجتماعية وأخلاقية.

أما النساء فقد كان نصيبهن من هـذه القيـود أشـد وأعظم بحكم الأنظمة الأبوية الطبقية السائدة.

وقد بدأت اليقظة الفكرية العربية في نهايـة القـرن التاسع عشر على يد جمال الدين الأفغـاني وتلاميذه،وأحمـد فارس الشدياق أحد المفكرين العرب الذي أصدر سنة ١٨٥٥ كتباه ((الساق على الساق)) ويعتبر من أوائل الكتب العربية التي نادت بتحرير المرأة العربية. وظهـر الرائـد الفكـري رفاعة الطهطاوي الذي نادى بتعليم المرأة وتحريرهـا مـن

الظلم وأصدر كتابه ((المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين)) سنة ١٨٧٢، ثم كتابه ((تخليص الإبريز في تلخيص باريز)) سنة ١٩٠٥.

وكان لهؤلاء الرواد دور في حث الجماهير العربية على مقاومة الاستعمار وتكسير القيود من أجل الحرية والاستقلال. وقد دلهم فكرهم الوطني المستنير إلى أن قضية المرأة إحدى القضايا الأساسية في الحرب ضد التخلف وضد الاستعمار الأجنبي.

ومن هؤلاء الرواد أيضا عبد الله النديم، والشيخ محمد عبده وقد كتب الشيخ محمد عبده ينقد وضع المرأة الأدنى، ويهاجم تعدد الزوجات والطلاق كحق مطلق للرجل، وطالب بالقضاء على نظام الجواري والمحظيات ونادى بمساواة المرأة بالرجل وتطبيق جوهر الإسلام.

وتعرض الشيخ محمد عبده لكثير من الهجوم من رجال الدين الإسلامي في ذلك الوقت لكنه لم يتردد في الاستمرار في دعوته وأعلن أن من أخطر أسباب الضعف التي أصابت المسلمين هو تخلف المرأة ولأن ((النساء قد ضرب بينهن وبين العلم بما يوجب عليهن دنيهن أو دنياهن

بستار لا يدرى متى يرفع)). يقول ((ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف)) [1]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمـة التـي تشرك الرجل والمرأة في التكاليف الدينية والدنيوية، وتـرك البنات يفترسهن الجهل وتسـتهويهن الغبـاوة مـن الجـرم العظيم)).

ومن أهم الكتب العربية التي تناولت قضية المرأة هو كتاب ((تحرير المرأة)) سنة ١٩٠٠ لقاسم أمين، ثم كتابـه الثاني ((المرأة الجديدة)) ١٩١١. وبالرغم مـن أن دعـوة قاسم أمين كانت من أجل تعليم المرأة لحماية الأسرة وتربيـة الأطفال، وبالرغم من أنه استند في دعوته إلى مبادئ الـدين الإسلامي ولم يخرج عليها إلا إنه هوجم بشدة مـن رجـال الأزهر والدين وكانوا أحد الأعمدة التي يرتكز عليهـا حكـم الخديوي المستغل والمستبد بالشعب المصري بالتعاون مـع الاستعمار الإنجليزي. وقد تعـرض قاسـم أمـين لغضـب الخديوي أيضا، وهاجمه رجال السياسة المحـافظون وعلـى رأسهم ((مصطفى كامل)) الذي كتب في جريـدة اللـواء

---

(١) عباس العقاد، محمد عبده، طبعة التربية والتعليم بمصر، ص ٢٢٩.

١٩٠١ يهاجم الدعوة إلى تحرير المرأة. وكانت جريدة اللواء هي لسان حال الرجال المتزمتين الرجعيين. وأصـدر عبـد الحميد خيري كتابه ضد تحرير المرأة "الدفع المتين في الرد على قاسم أمين " وأصدر محمـد أحمـد البـولاقي كتابـه ((المجلس الأنيس في التحذير عما في تحرير المـرأة مـن التلبيس)). وقد استطاع أحمد لطفي السيد وزملاؤه أن يعبوا عن الفكر المتقدم في صحيفتهم ((الجريدة)) وقـد ناصـر الدعوة إلى تحرير المرأة في هذه الفترة سعد زغلول، لطفي السيد، ولي الدين يكن، محمد حسين هيكـل، طـه حسـين، سلامة موسى [١]، مصطفى فهمي، فـرح أنطـون، أحمـد الزيات، مصطفى المنفلوطي، ووقفت مجلـة ((المنـار)) ((لرشيد علي رضا)) والمقتطف والهلالي في صف تحرير المرأة.

وقد شاركت المرأة العربية بقلمها منـذ بدايـة هـذه المعركة لتحرير المرأة ومن هؤلاء النساء عائشة التيموريـة التي جمع قلمها بين الأدب العربي والتركي والفارسـي فـي

---

(١) سلامه موسى، مقدمة السبرمان، طبعة سلامه موسـى، القاهرة، ص ٢٩.

الشعر والنثر. ثم جاءت بعدها زينب فواز التي نبغـت فـي الشعر، والبيان، أما ملك حفني ناصف التي اشتهرت باسـم ((باحثة البادية)) (١٨٨٦ – ١٩١٨) فقد شاركت بقلمهـا القوي في الكتابة من أجل تحرير المرأة وكانـت معاصـرة لقاسم أمين لكن آراءهـا اعتبـرت تكملـة لـدور رفاعـة الطهطاوي ودعوته، التي سمتها إصلاحا واعتبرها قاسم أمين تحريرا [١]. وقد نبغت ملك حفني ناصف في التأليف إلى حد أن لطفي السيد قال إن كتاباتها صورة للكاتبـات العربيـات اللائي تفوقن على كثير من الكتاب الرجال [٢] وقد كافحـت ملك حفني ناصف من أجل تعليم البنات.

ومن الكاتبات الرائدات، ((مـي زيـادة)) المـرأة العربية التي استطاعت رغم تخلف نظرة المجتمع للمرأة أن تنشئ صالونها الأدبي في القـاهرة ١٩١٥، ١٩١٦. وكـان يحضر ندوتها الأدبية كل ثلاثاء طائفة من الأدباء والمفكرين

---

(١) مجدي ناصف، آثار باحثة الباديـة، طبعـة المؤسسـة المصرية ص ٣٥.

(٢) إبراهيم عبده، تطور النهضة النسائية، القـاهرة، الآداب، ١٩٤٥، ص ١٢.

المصريين والعرب. وكانت في العشرين من عمرهـا ومـع ذلك استطاعت بفكرها الناضج الذكي أن تجمع حولها شيوخ الأدب والفكر في مصر.

وكانت مي الزيادة تعيش في مصر ولكن أمها كانت من فلسطين، وأباها من لبنان. واسـتطاعت رغـم ذلـك أن تفرض شخصيتها على المجتمع الأدبي في مصر وأن تخالط الرجال وتحادثهم وتراسلهم في وقت ضرب فيـه الحجـاب على مثيلاتها من النساء العربيات.

وقد انتهت حياة ((مي زيادة)) بمأساة تصور القسوة والوحدة والمشاكل التي تتعرض لها المرأة الذكية الفنانة فـي مجتمع رجولي لا يعرف عن المرأة شيئا سـوى أن تكـون رحما يلد الأطفال أو مهبلا لإمتاع الرجل جنسيا.

وقد تعرضت ((مي زيادة)) لأزمة عاطفية حـين أحبت أحد الكتاب المصريين ((عباس العقاد)) وقد فشـلت قصة حبهما بسبب نظرته المتخلفة للمرأة. وعاشت ((مـي زيادة)) في وحدة قاتلة، رغم مطاردة الرجال لها، لكنها لـم تكن تجد الرجل الذي يستطيع أن يفهمها ويعاملها كإنسانة لها عقل قبل أن يكون لها مهبل أو رحم.

ولم يفهم أحد مأساتها وحزنها وسبب وحدتها واتهمها أهلها بالجنون وأدخلوها مستشـفى العصـفورية للأمـراض العقلية في لبنان. والتفت حولها حينما دخلت قائلـة ((أولـم يجدوا سجنا لي أكرم من هذا السجن)) [1]، وأخذت تتوسـل إلى المسئولين بالمستشفى لإخراجها، وأضربت عن الطعـام مرة بعد مرة، واستمرت على هـذه الحـال عـدة شـهور بالمستشفى إلى أن كشفت عليها لجنة مـن كبـار الأطبـاء وقررت اللجنة أن لا شيء بها، وكتـب الـدكتور مارتـان الطبيب الفرنسي تقريرا ينفي إصـابتها بـأي مـرض مـن الأمراض، ومع ذلك لم يخرجها المستشفى بحجة أن تقـوى صحتها [2].

وانتهت حياة ((مي زيادة)) وهي في ريعان شبابها في إحدى الشقق بالقاهرة، ماتت وحيدة تمامـا بغيـر أحـد جوارها، ماتت بعد أن تركت وراءهـا كتاباتهـا وشـعرها ولوحاتها ومحاضراتها التي ألقتها في بيروت ومصـر عـن الأدب والفن واستقلال المرأة.

([1]) طاهر الطناحي، الساعات الأخيرة، ص ١١١ - ١١٢.

([2]) المصدر السابق.

وتعتبر ((مي زيادة)) واحدة من النابغات في الأدب العربي إلا أنها لم تجن مـن نبوغهـا الفكـري إلا الوحـدة والاتهام بالجنون ثم الموت المبكر.

ولم يكن مصير ((مي زيادة)) المؤلم يختلف عـن مصير أي امرأة رائدة حاولت أن تغيـر نظـرة المجتمـع الرجولي المتخلف للمرأة. ولم يختلف مصيرها كثيـرا عـن النساء الذكيات (الساحرات الحكيمات) اللائي اتهمـن فـي العصور الوسطى بالجنون أو الفسق أو السحر، بل لم يختلف مصيرها كثيرا عن مصير كثير من النسـاء الـذكيات فـي عصرنا الحديث اللائي لا يجنين من وراء ذكائهن إلا الوحدة القاتلة أو الاتهام بالهستريا أو الشذوذ.

المرأة العربية الثائرة

في المجتمعات العربية الزراعيـة كمصـر تعمـل الأغلبية الساحقة من النساء في الحقول جنبا إلى جنب الرجال منذ ألاف السنين، ويعتمد الاقتصاد والإنتـاج علـى عـرق الفلاحين والفلاحات. ولولا خروج الفلاحة من دارها كل يوم قبل شروق الشمس لما كان في استطاعة الرجال المعارضين لتحرير المرأة (وغير المعارضين أيضا) أن ينالوا فطورهم كل صباح ولا أن يجدوا من الملايين ما يستر أجسـادهم ولا أن يجدوا الورق الذي يكتبون عليه أفكارهم والمتخلفة عـن المرأة.

ولا يزال في مجتمعنا العربي حتى اليوم غير قليـل من هؤلاء الرجال الذين يعارضون خروج المرأة من بيتهـا للتعليم أو العمل بدعوى المحافظة على أنوثتهـا أو شـرفها. ويتجاهل هؤلاء الرجال تلك الملايين من النسـاء الفلاحـات اللائي يخرجن كل يوم من بيوتهن للعمل. وربما اعتقد هؤلاء الرجال أن الفلاحات لسن نساء، أو أن العتالات والخادمـات ليس لهن أنوثة أو شرف، وإلا فكيف نفسر صمتهم المطبـق

إزاء خروج هذا العدد الهائل من النساء من بيوتهن كل يوم؟ وكيف يدعي الرجل منهم غيرته على أنوثة المرأة ورقتها في حين أن شعرة واحدة لا تهتز في جسده وهـو يسـير فـي الشارع ومن خلفه خادمته البنت الضعيفة الصـغيرة تحمـل عنه، وهو رجل قوي، الحقائب الثقيلة، ولا يهتز الواحد منهم وهو يرى كل يوم صفوف النساء العتالات والكادحـات فـي الحقول والمشاغل والمصانع حيث تعمـل المـرأة ضـعف الساعات التي يعملها الرجل لأنها تعمل خارج البيت وداخله، بل لا يهتز الرجل منهم وهو راقد في سريره وزوجته تخدمه ولا تكف عن الحركة داخل البيت من أجـل تلبيـة طلباتـه وطلبات الأسرة والأطفال.

وهذا يدل على أن غيرة هؤلاء الرجال على شـرف النساء أو أنوثتهن ومعارضتهم لخروج المرأة لـيس موقفـا أخلاقيا أو إنسانيا ولكنه موقف طبقي استغلالي.

وهذا هو الحال دائما بالنسبة لعمل المرأة في المجتمع الأبوي. وإن هذا المجتمع لا يسمح للمـرأة بالعمـل خـارج البيت إلا من أجل استغلالها بدرجة أشد حيث تعمل أجيـرة بغير أجر كحال الفلاحات اللائي يعملـن لحسـاب الأب أو

الزوج وتحت سيطرته المطلقة، أو من أجل سد النقص فـي الأيدي العاملة في المصانع حيث تعمل المـرأة (والأطفـال أحيانا) بأجر أقل من أجر الرجل، وتحت سيطرته المطلقـة في العمل أو في البيت.

وقد دخلت المرأة الغربية كعاملة في المصـنع بعـد الحرب العالمية الأولى، حين قلت الأيدي العاملة من الرجال، وبدأت الدول العربية شأنها شأن دول العالم تحتاج إلى تشغيل النساء في المصانع، بالإضافة إلى ازدياد نشاط الصـناعات المحلية لانقطاع البضائع المستوردة بسبب الحرب. لم يجذب هذا العمل إلا الفقيرات والمعدمات من النساء والبنات. ففـي هذه الطبقة الفقيرة المعدمة التي تلتقط طعامها اليـومي بـأي وسيلة تسقط جميع التقاليد الأخلاقية أمام الحاجة إلى الطعام، ويضطر الرجل في تلك الطبقة أن يشتري رغيفا يأكله بـدلا من أن يشتري حجابا لزوجته أو ابنته، ويدفعه الفقر إلـى أن يشغل ابنته أو زوجته خادمة في بيت فيه رجـال أو يلحقهـا بمصنع حيث تعمل جنبا إلى جنب الرجال دون أن يفكر فـي تلك التقاليد الأخلاقية التي تحرم الاختلاط. ولهذا لم تعـرف الحجاب أو الانحبـاس فـي البيـوت إلا النسـاء الطبقـات

المتوسطة وفوق المتوسطة أو العاليـة ممـن لا يحتـاجون اقتصاديا إلى تشغيل نسائهم وبناتهم خارج البيوت.

وفي المجتمعات العربيـة تمثـل الطبقـات الفقيـرة الأغلبية من الناس. وقد استغلت الدولة حاجتهم لسد الرمـق ففرضت عليهم أعمالا شاقة نظير أجور زهيدة. أما النسـاء منهم والأطفال فقد فرضت عليه أدنى الأعمال وأقل الأجـور وأسوأ الظروف. وكانت المرأة العاملة منهن تعمل سـاعات أكثر من الرجل وتتقاضى أجرا أقل منـه. ويعـود العامـل ليستريح في بيته على حين تعود العاملة إلى البيـت لتخـدم زوجها وتخدم أطفالها وتطعمهم.

وقد عاشت هؤلاء العاملات ممزقـات بـين العمـل خارج البيت وداخله، وكانت العالمة المتزوجة مهددة بالفصل من العمل في أي وقت بسبب الحمـل والـولادة، ومهـددة بالطلاق في أي وقت إذا لم تخدم زوجها وأطفالهـا الخدمـة الواجبة.

وفي بلد كمصر بلغ عدد هؤلاء العاملات الصناعيات في أول إحصائية سنة ١٩١٤ عشرين ألف عاملـة، بنسـبة ٥% من عدد العمال والرجال. وكانت البنات والزوجات من

الطبقات الفقيرة يتزاحمن في ذلك الوقت علـى العمـل فـي المصانع ومحالج القطن، تعمل الواحدة منهن أكثر مـن ١٤ ساعة في اليوم الواحد، بأجر يومي لا يزيد عن ثلاثة قروش وقد يصل إلى ١٨ مليما فقط. لكن هذا الأجر علـى ضـآلته كان أفضل من الجوع الذي كان يتهددهن. ولم تكـن هنـاك قوانين تفرض على أصحاب المصانع أي شروط صحية وأي حماية للعاملات أو العمال. وكانت أقسام النساء أسوأ حـالا من أقسام الرجال، لانخفاض قيمة النساء، وعـدم تـذمرهن، وتعودهن على قبول الذل والمهانة، ومن شدة سوء الأحـوال والإرهاق وعد التغذية لم تكن العاملة منهن تستمر في هـذا العمل أكثر من أربع أو خمس سنوات ثم يصيبها العجـز أو المرض، فإذا بصاحب المصنع يفصـلها ويلقـي بهـا إلـى الطريق كقطعة للغيار البالية، ويعين مكانها عاملة جديدة من قائمة المنتظرات المتلهفات على لقمة العيش.

وكانت هؤلاء العاملات البائسات المرهقـات جسـدا ونفسا خارج البيت وداخله هن أول النسـاء الثـائرات فـي مصر، وهن أول نساء قمن بالإضراب والاعتصام بالمصانع، والخروج في مظاهرات في الشوارع يطالبن باحترام آدميـة

المرأة العاملة ووضع قانون يحدد ساعات العمـل، وأجـازة وضع. وفي ذلك الوقت لم تكن المرأة العاملة تحصل علـى أي أجازة حمل، ولهذا كانت تسرع إلى علمها في اليوم التالي للوضع، وأحيانا كانت تخفي عن صاحب العمل أنها متزوجة من أجل أن يلحقها بالعمل (كان أصحاب العمـل يفضـلون البنات أو النساء غير المتزوجات) وحينمـا كانـت تحمـل العاملة منهن فهي تخفي مظاهر حملهـا كأنمـا هـو غيـر شرعي، وكان معظمهن يلجأن إلى إجهاض أنفسهن بالوسائل الريفية الخطرة (مثل إدخال عود الملوخية داخل الـرحم) وفي أحيان كثيرة كانت العاملة منهن تفقـد حياتهـا بسـبب النزيف أو الالتهابات المميتة.

وكانت نساء الطبقة الراقية في مصر في ذلك الوقت قد بدأن تكوين أو تنظيم نسائي سنة ١٩٢٣، لكنهن لم يكـن (بحكم الثراء والانعزال عن الطبقات الفقيرة) يدركن شـيئا عن حال هؤلاء النساء العاملات المستغلات أبشع اسـتغلال. وقد ذهبت إحدى مظاهرات هؤلاء النساء إلى مقـر التنظـيم النسائي، لكن النساء الأرستقراطيات لم يظهـرن أي اهتمـام بمثل هذه القضايا الخاصة بالفقيرات،وكان كـل اهتمـامهن

موجها إلى خلع الحجاب وهو أمر لم يكـن يهـم الأغلبيـة الساحقة من النساء لأن العـاملات والفلاحـات كـن دائمـا سافرات.

وقد كانت هـؤلاء النسـاء الكادحـات (عـاملات وفلاحات) هن اللائي اشتركن اشتراكا فعليـا فـي الثـورة المصرية سنة ١٩١٩ وخرجن مع الرجـال إلـى الطـرق الزراعية يقطعن أسلاك التليفون وينزعن قضـبان السـكك الحديدية ليحجزن قطارات السلطات الإنجليزية. وقـد هجـم بعض هؤلاء النساء على المراكز التي اعتقل فيهـا بعـض المواطنين والثوار المصريين وسـقطت بعضـهن قتـيلات وجريحات برصاص الإنجليز.

إن هؤلاء الكادحات الفقراء هن اللائي قدمن شهيدات ثورة ١٩١٩، ومنهن الشهيدة ((شفيقة محمد)) التي قتلهـا الإنجليز يوم ١٤ مارس ١٩١٩، و ((حمدية خليل)) مـن كفر الزغاوي بالجمالية [١] وسيدة حسـن وفهيمـة ريـاض

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، في أعقـاب الثـورة المصـرية، الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية، القـاهرة، ١٩٥٩، ص ٢١١، درية شفيق، ١٩٥٥، ص ١١٩.

وعائشة عمر وغيرهن من مئـات المصـريات الفقيـرات المجهولات.

وقد لعب رجال الطبقة العاملة الكادحـة والفلاحـون أيضا دورا كبيرا في ثورة ١٩١٩، لكن دورهم لم يظهر في التاريخ كما ظهر دور رجال الطبقة العليا، وبالمثل أيضا لـم يظهر في التاريخ دور النساء الكادحات في الثورة كما ظهر دور النساء من الطبقة العالية. وذلك أن الذين يكتبون التاريخ هم الذين يملكون المال والسلطة.

ولم يحصل الرجال أو النساء من الطبقات الكادحـة على شيء يذكر من ثورة ١٩١٩، مع إنهم هم الذين كـانوا وقودها. وذهبت مكاسب الثورة إلى الطبقة العالية. وقد حدث للحركة النسائية في مصر ما حدث للحركة العمالية إذ إنها لم تعبر عن مشاكل الأغلبية الساحقة مـن النسـاء أو الرجـال وانتهى بها الأمر إلى التعاون مع القصـر لخدمـة القصـر والأحزاب الرجعية، كما ظلت تتسم بالابتعاد عن مجال العمل السياسي واقتصر نشاطها على مجال الخدمة الاجتماعية [1].

---

(1) محمد أنيس، السيد رجب حـراز، التطـور السياسـي للمجتمع المصري الحديث القاهرة،ص ١٩٠ – ١٩١.

وقد أسست ((هدى شعراوي)) التنظيم أو الاتحـاد السوفيتي عام ١٩٢٣. ونجح هذا الاتحاد في رفع سن زواج البنت إلى ١٦ سنة في سنة ١٩٢٤ لكنه فشل في تغيير قانون الأحول الشخصية أو منح المرأة حق الانتخاب رغم الجهـود التي بذلها في هذا المجال بقيادة هـدى شـعراوى وسـيزا نبراوي. وبالرغم من مرور أكثر من ٥٣ عاما على إنشـاء الاتحاد النسائي وحماسه المستمر المخلص في هذين المجالين إلا أن معظم جهوده باءت بالفشـل. إذ إن قـانون الـزواج والطلاق في مصر ما زال حتى اليوم يبيح للرجل أن يطلـق زوجته متى شاء ويبيح له تعدد الزوجات. وقد سبقت بعـض البلاد العربية مصر في هذا المجال وطورت هـذا القـانون تطورا يتمشى مع الوضع الجديد الذي حصلت عليه المـرأة العربية. أما حق الانتخاب فلم تحصل عليه المرأة المصـرية إلا في دستور ١٩٥٦.

ولم تكن مصر وحدها هي التي تشهد اشتراك النساء في الثورة ضد الاستعمار الأجنبي أو الظلم الداخلي.

إن المرأة العربية في مختلف أنحاء العـالم العربـي اشتركت مع الرجل في تحرير الوطن وفي الثورة ضد الظلم.

ففي سوريا اشتركت المرأة العربية في الجمعيـات السـرية لمقاومة عملية التتريك عام ١٩١٤، وفي عام ١٩١٩ شاهدت دمشق أول مظاهرة نسائية بسقوط الاحتلال الفرنسي وواجهن رصاص الفرنسيين. واشتركت المرأة فـي ثـورة الشـعب السوري ١٩٢٥، وحملت السلاح في المقاومة الشعبية منـذ إعلان هيئة الأمم تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨.

وفي العراق ناضـلت المـرأة مـع الرجـال ضـد الاستعمار والملكية وساهمت في عمليات التحرير والتطـور وحصلت على حقوقها السياسية كما وصلت إلـى منصـب وزاري.

وفي الأردن، رغم القيود التي تحيط بالنساء، كم من مظاهرات نسائية كبيرة سادت شوارع عمان تحيـي بطولـة النساء والرجال العرب في السجون والمقاتلين الفلسـطينيين الفدائيين.

وفي السودان ناضلت النساء ضد الاحتلال الإنجليزي وكون اتحادهن النسائي الذي اشتهر بنشاطه وتقدمه والـذي قدم نساء بطلات منهن فاطمة إبراهيم.

وفي لبنان خرجت النساء العربيات فـي مظـاهرات كبيرة ضد الفرنسيين للإفراج عن زعماء لبنان الوطنيين سنة ١٩٤٣.

أما نساء الجزائر فقد شاركن مع الرجال في الثـورة ضد الاستعمار الفرنسي وعلى أرض المليون شهيد سـقطت الكثيرات شهيدات، وبعضهن عـذب فـي السـجون ولعـل أشهرهن في هذا جميلة بوحيدر وجميلة بوعزة.

وفي اليمن الجنوبية وقفت النساء والفتيات العربيـات إلى جانب الرجال في الثورة من أجـل الاسـتقلال. وفـي السودان أيضا كانت هناك مناضلات والمقاتلات من الحزب النسائي السوداني. أما نساء وفتيات فلسطين فقد ضربن المثل في البطولات من أجل استرداد وطـنهن مـن بـين أنيـاب المغتصبين وكم من بنات فلسطينيات ذهبن في حملات فدائية داخل الأرض المحتلة فلسطين، وكم من نساء قمن وتظاهرن فوق الأرض المحتلة ذاتها، في القدس ونابلس ورفح والخليل وبيسان، وكم من فتيات ونساء يعملن ويناضلن داخل منظمة التحرير الفلسطينية، وقد عرف العالم ليلـى خالـد وفاطمـة

برناوي وأمينة دحبور وشادية أبو غزالة ومثيلاتهن اللائـي وضعن حياتهن على أكفهن من أجل تحرير الأرض والوطن.

وفي الكويت وفي ليبيا وفي تونس وفي المغرب وفي الصومال، هناك السناء يشاركن في النضال من أجل تحرير الرجال والنساء معا. وقد كسبت المرأة العربية في بعض هذه البلاد مكاسب جديدة في المجتمع وفـي الأسـرة وظهـرت قوانين جديدة تمنع تعدد الزوجات، وتساوي الرجل بـالمرأة في حق الطلاق.

وقد نالت المرأة العربية حق الانتخاب فـي معظـم البلاد العربية. لكنه بالرغم من ذلك فإن نسبة النساء اللائـي يشاركن في المجال السياسي أو الانتخابات ضئيلة. إن النساء المصريات اللائي يشاركن في الانتخابات بالإدلاء بأصواتهن لم يزدن على ١% من عدد الأصوات الكلية للنـاخبين سـنة ١٩٥٦. ارتفعت هذه النسبة ١٩٧٢ إلى ١٢% أمـا نسـبة النساء العضوات في مجلس الأمة فلم تزد عن ٢,٥% سـنة ١٩٧٦.

وقد اتضح أن الاعتراف بحق المرأة في الانتخابـات أو غيره من الحقوق السياسية لا يحدث تغييـرا يـذكر فـي

وضع المرأة الأدنى، وسـواء ذهبـت النسـاء إلـى الإدلاء بأصواتهن أو لم يذهبن، سواء نجحت بعضهن في الوصـول إلى مقاعد في البرلمان أم لم ينجحن فإن وضع المرأة الأدنى لا يتغير كثيرا، وتبعيتها لزوجها لا تمس، وتبعيتها لطبقتهـا الاجتماعية تظل كما هي.

لم يحدث في أي بلد من العالم أن المـرأة حصـلت على المساواة الحقيقية بالرجل لمجرد حصولها على الحقوق السياسية فقط، بالرغم مما يصاحب الاعتراف بهذه الحقـوق من ضجة كبرى عن الديموقراطية وخطب رنانة عن حريـة المرأة. بل إنه اتضح انه فـي ظـل الأنظمـة الإقطاعيـة والرأسمالية الأبوية كثيرا ما تستخدم أصوات النسـاء ضـد مصلحة النساء الحقيقية، بمثل ما تستخدم أصوات الفلاحـين والعمال ضد مصلحة الفلاحين والعمال.

وبالرغم من أن الثورة المصرية (١٩٥٢) منحـت العمال والفلاحين ٥٠% من المقاعد في مجلس الأمة إلا إنها لم تمنح النساء أي عدد من المقاعد. وبـرغم أن الفلاحـين والعمال حصلوا على نصف المقاعد نظريا إلا أن الكـادحين والعمال لم يصلوا أبدا إلى كراسي مجلس الأمة وإنما وصل

إليها رجال من طبقات أعلـى تنكـروا فـي زي الفلاحـين والعمال، وقد كان تعريف العامل والفلاح فضفاضـا يسـمح بدخول أصحاب الدخول الكبيرة ممن لا يفلحـون الأرض أو يعملون بأيديهم في المصانع.

ولا أظن أن وضع المرأة يختلف كثيرا، وربما لـو خصص للنساء بعض مقاعد في البرلمـان لاحتلتهـا نسـاء الطبقة العالية اللائي يؤيدن النظام والسلطة في معظم الأحيان أو ربما تنكر بعـض الرجـال فـي زي النسـاء واحتلـوا مقاعدهن.

وبالرغم من أن المرأة العربية أصبحت وزيرة لأول مرة في مصر سنة ١٩٦٢، وخمس أو سـت نسـاء دخلـن مجلس الأمة إلا أن أغلبية الساحقة من المصريات ما يـزلن حتى اليوم أميات جاهلات يكدحن طوال النهار وجزءا مـن الليل في الحقول والمصانع والمكاتب والبيوت (نسبة الأمية بين الإناث ٨٤% سنة ١٩٦٠، انخفضت سنة ١٩٧٦ إلـى ٧١%) ويعشن ي حال يرثى لها مـن الإرهـاق الجسـدي والنفسي تحت سيطرة الزوج أو الأب أو الأخ أو أي رجـل آخر من أعضاء الأسرة الأبوية. بل إن هذه النسبة الصغيرة

من النساء اللائي حظين بالتعليم المتوسط أو العالي ما زلـن أيضا حبيسات التقاليد تحت سيطرة الرجال أيضـا وقـد زاد عليهن عبء جديد هو العمل خارج البيت.

وهذا يدلنا على الخطأ الكبير الذي تقع فيـه بعـض النساء المنتميات إلى حركات تحرير المرأة، حين يتصـورن أن المرأة يمكن أن تتحرر بخوض معركة الحقوق السياسية، أو الاشتراك فـي الانتخابـات أو الأحـزاب السياسـية، أو الصعود إلى السلطة والمشاركة في الحكم مع الرجل.

إن تولي المرأة السلطة أو الحكم في نظام إقطـاعي طبقي أو رأسمالي طبقي لا يغير كثيرا من الاستغلال الواقع على النساء أو الرجال. وسواء كانت هناك امرأة تحكم فـي الولايات المتحدة بدلا من نيكسون أو فورد أو كـارتر فـإن النظام يظل أبويا رأسـماليا طبقيـا قائمـا علـى الحـروب والاستعمار والاستغلال. إن رئاسة جولدا مائير لإسرائيل لم تغير شيئا من النظام القائم على الطبقية والرأسمالية والحرب وإن رئاسة باندرانايكا لسريلانكا أو أنديرا غاندي للهنـد لـم يغير كثيرا من النظام الأبوي القائم على سيطرة الرجل داخل الأسرة ولا تزال الأغلبية الساحقة من نساء سريلانكا والهنـد

مرهقات جسديا ونفسيا بالكدح خارج البيت وداخلـه تحـت سيطرة الأب أو الزوج.

إن تحرير المرأة تحريرا حقيقيا في الشرق العربـي أو الشرق الأقصى أو الغرب لن يتحقق إلا بـالتخلص مـن النظم الطبقية الأبوية سواء كانـت رأسـمالية أو إقطاعيـة، بمعنى آخر أن تحرير المرأة لن يتم إلا فـي ظـل مجتمـع اشتراكي حقيقي وهذا أمر لم يحدث حتى اليوم في أي بلـد، ولا في أي بلد من البلدان التي تسير نحو الاشتراكية. ولكنه سيحدث في المستقبل حينما تصبح النساء قوة سياسية قـادرة على انتزاع حقوقها فالحرية تؤخذ و لا تمنح كما عرفنا مـن التاريخ.

باستثناء الفلاحات والعاملات الكادحات والخادمـات والجواري فقد فرض المجتمع على النساء الانحباس داخـل البيت من أجل خدمة الزوج والأطفال والأسرة بغيـر أجـر اللهم إلا الكساء والطعام والمسكن. ولم تكن المرأة من هؤلاء تخرج من بيتها إلا للضرورة القصوى كـالمرض الخطيـر مثلا وهي تخرج في هذه الحالة محجبة ومعها رجـل مـن الأسرة. وفي بعض الأحيان كانت تمـوت المـرأة دون أن يصرح زوجها بأن يفحصها طبيب رجل.

وقد أدى الفصل بين الجنسين إلى ضرورة خلق مهن نسائية تكون مهمتها رعاية النساء المحجبـات مـن الأسـر العالية والمتوسطة. ومن أوائل هذه المهن مهنـة التمـريض التي لم تقبل عليها إلا البنات الفقيرات، حيث إن عمل المرأة خارج البيت كان عارا على الأسرة التي تسـتطيع أن تـوفر الطعام لنسائها.

وكان الحكـام العـرب ينشـئون مـدارس التوليـد والتمريض من أجل خدمة نساء الطبقات العالية. وقد لاحـظ

((محمد علي)) الذي كان حاكما على مصر في ذلك الوقت أن الأسر المصرية العالية تحتاج إلى نساء يعملن كمولـدات وحكيمات. واشترى ((محمد علي)) [1] لهذا الغرض بعض الجواري السودانيات وعهد إلى ((كلـوت بـك)) مهمـة تعليمهن مبادئ الطب والجراحة، مع ((الأغـوات)) وهـم العبيد الرجال، وأول طلاب عرفتهم مدرسة الولادة الملحقـة بمدرسة الطب البشري بأبي زعبل. وفي هذا الـزمن كـان ظهور المرأة في الطريق يعتبر عملا فاضحا. وكانت مدرسة التوليد تعلـم البنـات شـيئا يتصـل بـالتكوين الجسـدي ((التشريح)) [2]، وقد أظهر الرجال المصريون اسـتياءهم من أن تتعلم بناتهم مثل هذا العلم المنافي للأخلاق.

وفي سنة ١٨٤٢ أنشئت أول مدرسة للمولدات فـي مصرن ثم أشئت أول مدرسة ابتدائية للبنـات (السـيوفية) ١٨٧٣، وكانت تلميذاتها في البداية من الجـواري البـيض

([1]) أحمد عزت عبد الكريم، التعليم في عهد محمـد علـي، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٣٨، ص ٢٩٧.

([2]) إبراهيم عبده، درية شفيق، تطور النهضة النسائية مـن عهد محمد علي إلى عهد فاروق، القاهرة، الآداب، ص٩٤٥، ص ٤١.

المشتغلات في قصور الأسر الحاكمة. ولم تظهر في مصـر من المدارس الخاصة بالبنات قبل هذا العام إلا ما يتولى تعليم بنات الطبقات الفقيرة واليتيمات مـن أجـل تـوفير بعـض احتياجات الأسـر الراقيـة، وبعـض احتياجـات الجـيش كالخياطات اللائي يحكن ملابس الجنود.

وقد فرضت الدولـة المصـرية أول الأمـر علـى الممرضات والمدرسات ألا يتزوجن حتى يتفـرغن للعمـل كاملا، وكانت تأخذ على الواحدة منهن تعهدا كتابيا بأنها لـن تتزوج. وكانت هؤلاء الفتيات لحاجتهن الشديدة إلى الـرزق يوافقن على هذا الشرط. وقد استغلت الدولة حاجتهن للعمـل ففرضت عليهن هذا الشرط، وخلقت منهن طبقة من العوانس الوحيدات التعيسات المريضات نفسـيا، حيـث أن ممارسـة الجنس لم يكن يسمح بها للمرأة إلا داخل الزواج، أو للنسـاء المومسات اللائي ينظر إليهن المجتمع علـى أنهـن نسـاء ساقطات بغير شرف ولا كرامة.

وكان من العار أن ترسل أسرة محترمة بناتها إلـى مدرسة من تلك المدارس، وبقيت هؤلاء البنات في البيوت لا يتعلمن إلا وسائل الإغراء الجنسي من أجل الاحتفاظ بالزوج،

الذي كان يحق لها أن يطلق زوجته بسبب أو بغير سبب أو يجمع بينها وبين عدد من الزوجات أو ما ملكت يمينه من الجواري [1].

ولم يبدأ التعليم الرسمي الثانوية للبنات إلا عام ١٩٠٠ حين أنشئ قسم معلمات السنية. (أنشئ التعليم الثانوي للبنين سنة ١٨٢٥ أي قبل البنات بخمسة وسبعين عاما) أما الجامعة المصرية فلم تفتح أبوابها للمرأة إلا عام ١٩٢٩ ودخلتها أربع طالبات فقط ذلك العام.

وقد تزايد بعد ذك إقبال البنات المصريات على التعليم وخاصة بعد ثورة ١٩٥٢ إلا أن نسبة العاملات بالمهن العلمية والفنية لم تصل إلا إلى ١٨,٩% من جملة العاملات في عام ١٩٦٩. ومعنى ذلك أن الأغلبية الساحقة من النساء المصريات ٨١,١% ما زلن يعملن بالزراعة أو أعمال الخدمة أو الأعمال الكتابية الصغيرة. وقد بلغت العاملات بالتدريس والتمريض في سنة ١٩٦٠ ٧٢,٨%، ٣٨,٧% على التوالي من جملة العاملات بالمهن العلمية

---

(١) زينب فريد، تطور تعليم البنت في مصر في العصر الحديث، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، نوفمبر ١٩٦١.

والفنية [(١)] ويبين تعداد السكان في مصـر لسـنة ١٩٦٠ أن ٨٩,٣% من العاملات المشتغلات بالخدمات يقمـن بالعمـل بالخدمة المنزلية كخادمات. (لا تخفى على أحد الاسـتغلال الذي تتعرض له هـؤلاء الخادمـات اقتصـاديا واجتماعيـا وجنسيا).

ويبين هذا التعداد أن هناك حوالي ١٠ ملايين امـرأة في سن العمل (يدخل ضمن ذلك الطالبات والفلاحات وربات البيوت) ويبلغ مجموع سـكان المـدن مـنهن ٤ ملايـين، والباقيات (٦ ملايين) فلاحات. ويبلـغ مجمـوع النسـاء العاملات بأجر في جميع القطاعات (مـا عـدا الفلاحـات وربات البيوت) ٦% من عدد النساء في سن العمل، وتبلـغ ٦,٥% من القوى العاملة في مصـر. وفـي تعـداد ١٩٧٦ ارتفعت هذه النسبة إلى ٩,٢%.

وعلى هذا فإن الأغلبية العظمى من نسـاء مصـر فلاحات يعلمن بدون أجر لحساب الزوج أو الأسرة، وربات

([١]) المرأة المصرية في عشرين عاما (١٩٥٢ ـ ١٩٧٢) مركز الأبحاث والدراسات السكانية، الجهاز المركزي للتعبئـة العامـة والإحصاء، ص ٥١ – ٧٢.

بيوت يعملن بغير أجر لحساب الزوج أو الأب أو الأسـرة، وينطبق هذا القول على النساء في معظم البلاد العربية. ففي سوريا مثلا تبلغ قوة العمل النسائية [1] من مجموع الإنـاث ١٦,١% ثم إن القسم الأكبر من العاملات وتبلغ نسبة ٨٨% يعملن في الحقول والمزارع كفلاحات الباقيات يعملـن فـي إدارات الدولة ومؤسساتها وفي الخدمات والصناعة والبيـع والتجارة.

إن الفلاحات يمثلن الأغلبية من النسـاء العربيـات العاملات، ولأنهن يعملـن بغيـر أجـر فـإن كثيـرا مـن الإحصاءات تتجاهل وجودهن ضمن قوة العمل النسائية. ففي الإحصاءات تجيء قوة العمل النسائية على أنها ٩,٢% فقـط من القوى العاملة. ولكن إذا أضيفت الفلاحات إلـى النسـاء العاملات بأجر لأوشكت نسبة العاملات في مصر أن تقترب من نصف القوى العاملة في البلاد، وتصبح من أعلى النسب

([1]) الاتحاد العام النسائي، للجنة الدراسات المركزية، المرأة العربية في القطر السوري، ص ٤٩ وحسب إحصائية وزارة التخطيط السوري لعام ١٩٦٨.

العالمية، ولا يزيد عليها إلا نسبة النساء العاملات في الاتحاد السوفييتي.

وقد لعب العمل بأجر دورا في تحرير بعض النساء وخاصة هؤلاء اللائي حظين بقسط من التعليم العالي، ونسبتهن ٠,٣ في الألف فقط من جملة النساء لعام ١٩٦٦. وبالنسبة لمجموع السكان تبلغ نسبة حاملات المؤهلات العليا ١,٢% سنة ١٩٧٦، وكانت ٠,٢% فقط سنة ١٩٦٠، وقد أدى ذلك إلى تحررهن الاقتصادي. واستطاعت بعض الزوجات منهن أن ينتزعن حقوقا جديدة في المجتمع أو داخل الأسرة رغم قانون الزواج الجائر. وبعضهن رفض الزواج حتى لا يخضعن لهذا القانون المتخلف وبعضهن تزوجن ثم طلقن حرصا منهن على الاستقلال والحرية.

ولا يوجد أي نص في القانون المصري اليوم يفرق بين الجنسين في التعليم أو تولي الوظائف. والقانون رقم ٢١٠ لسنة ١٩٥٩ بشأن موظفي الدولة ولم يشترط في الوظيفة سوى أن يكون المرشح لها مصريا حسن السيرة مستوفيا شروط السن و الأهلية والكفاءة (المادة ٦) لكن التفرقة بين الجنسين تحدث في التطبيق العملي لهذا القانون.

مثال ذلك أنه في قانون القضاء رقم ١٨ لسنة ١٩٥٢ تنص المادة ٢ على أنه لا يجوز تعيين أحد في وظيفة قاض إلا بعد التحقق من كفايته وصلاحيته للقضاء، وقد استطاع الرجال المسيطرون على القضاء منع دخول المرأة المصرية فيه حتى اليوم بحجة أن الإسلام جعل شهادة الرجل الواحد تساوي شهادة امرأتين واثنتين، وفسروا هذا بأن المرأة ليست مؤهلة لتولي عمل القاضي، لأن الشهادة لا تزيد عن تقرير حادثة في حين أن القضاء حكم في نزاع.

وبالرغم من أن المرأة المصرية أصبحت وزيرة منذ سنة ١٩٦٢ إلا أنها منعت من أن تكون قاضية حتى اليوم، وما زال الرجال في مصر يناقشون فكرة صلاحية المرأة لتولي منصب القضاء، ولعل آخر ما قرأته بهذا الصدد مقال في جريدة الأخبار في ١٢ يناير ١٩٧٦، حيث يقول الكاتب ما معناه أن منصب القاضي محرم على المرأة ي الإسلام لأنه ((غني عن الإيضاح أن القضاء في الإسلام له شروط عشرة، لا يتم القضاء إلا بها ولا تنعقد الولاية إلا معها، وهذه الشرائط هي:- الإسلام والعقل والذكورة والحرية

والبلوغ والعدالة والعلم وكونه واحدا ثم سلامة حاسة السـمع والبصر ثم سلامة اللسان)) [1].

ولا يجوز للمرأة حتى اليوم تـولي الوظـائف ذات السلطات التنفيذية كمنصب العمدة في القرى [2].

وهذا يدل على التناقض الذي يعيش فيـه المجتمـع العربي الحديث، ففي الوقت الذي يسمح فيها للمرأة أن تصبح وزيرة وتقود وزارة بها الآلاف من الرجال والنساء وتصدر أكبر القرارات وأخطرها، يحرم عليها أن تكون قاضية فـي محكمة صغيرة تبت في بعـض المشـاجرات والمنازعـات الشخصية، ويحرم عليها أن تكون عمدة في قريـة صـغيرة تحكم في بعض المشاكل المحدودة.

وهذا يدل على أن هؤلاء الذي يعارضـون دخـول المرأة العمدية أو القضاء يناقضون أنفسهم، فلـم نسـمع أن واحدا منهم اعترض على تعيين الوزيرة، هـل مسـؤوليات

---

(1) جريدة الأخبار، القاهرة، ١٢ يناير ١٩٧٦ تحت عنـوان ((جولة في طريق التصحيح)) بقلم أحمد فتحي القاضي.

(2) نصار، حقوق المرأة في التشريع الإسـلامي والـدولي المقارن، دار النشر والثقافة، الإسكندرية، مصر ١٩٥٧، ص ١٤٧.

الوزير في نظرهم لا تحتاج إلى سـلامة العقـل والـذكورة والعدالة والعلم وسلامة اللسان؟

أو أن قرار تعيين الوزيرة يصدره رئيس الدولة وهم يعتبرون قرار رئيس الدولة أعلى من القرارات المقدسة التي جاء بها الإسلام؟.

وقد ظلت المرأة المصرية العاملة محرومة من أجازة الوضع حتى سنة ١٩٥٩ حتى تضمن قانون العمل في هـذا العام بعض الأحكام الخاصة بعمل النساء، وحصلت المـرأة على أجازة وضع خمسين يوما بمرتـب قـدره ٧٠% مـن مرتبها الأصلي.

وقد حرم هذا القانون اشتغال النسـاء فـي بعـض الأعمال بحجة أنها ضارة صحيا، وكان هذا التحـريم ضـد المرأة أكثر مما كان في صالحها، لأن كثيرا مـن أصـحاب الأعمال اتخذوا من هذا البند حجة رفـض طلبـات النسـاء للعمل، أو فرضوا عليهن أجورا أقـل أو أعمـالا أدنـى لا تتناسب مع مؤهلاتهن وخاصة في مجال الإنتـاج وبالـذات القطاع الخاص.

وتحصل الموظفات بالحكومة والقطاع العـام علـى أجور متساوية لزملائهن الرجال لكـنهن لا يحصـلن علـى الفرص المتكافئة في الترقية أو التعيين في المناصب الرئاسية أو التدريب على وظائف أعلى.

وفي قانون المعاشات تفرقة واضـحة بـين المـرأة والرجل وقد سمح القانون حاليا للمرأة العاملة أن تجمع بـين مرتبها ومعاشها وبين المعاش المستحق من زوجها في حدود ٢٥ جنيها مصريا كحد أقصى [1].

وتنص المادة ١٩ من دسـتور ينـاير ١٩٥٦ بـأن ((تيسر الدولة للمرأة التوفيق بين عملها في المجتمع وبـين واجباتها في الأسرة)). إلا أن الدولة لم تفعل هذا حتى اليوم، ولا تزال الأغلبية من النساء العـاملات منسـحقات جسـدا ونفسا. تحت وطأة العمل خارج البيت وداخله.

إن مصر وغيرها من البلاد العربية لا تزال ترى أن المرأة خلقت أصلا لتلعب دور الأم والزوجـة مـن حيـث الخدمة في البيت وتربية الأطفال، ولم يسمح المجتمع العربي للمرأة بالعلم إلا من أجل حاجة اقتصادية ملحة للمجتمـع أو

---

(١) قانون المعاشات المصري، رقم ٦٢ لسنة ١٩٧١.

للأسرة فهي تعمل خارج البيت بشرط أن تعود إلـى البيـت لتؤدي واجباتها الأساسية والسودان وغيرها قد رفعت بعض شعارات الاشتراكية إلا أن هذه المجتمعات العربية لم تجـد حلولا لمشاكل النساء العاملات وأولهـا تـوفير الإمكانيـات والمؤسسات في المجتمع التي تحرر المرأة من أعباء الطـبخ والتنظيف والخدمة وتربية الأطفال.

إن توفير مثل هذه الإمكانيات والمؤسسات لا تمثـل أهمية أو أولوية عند الحكام أو الساسة العرب، كما أن النساء العربيات العاملات في أي بلد عربي لا يمثلن أية قوة للضغط على هؤلاء الحكام أو الساسة من أجل توفير هذه الإمكانيات. ولا تزال التنظيمات النسائية في البلاد العربية إما مجموعات من نساء الطبقات العليا المنشغلات ببعض الأعمال الخيريـة السطحية أو أقسام من التنظيمات السياسية المسماة الاتحادات الاشتراكية التي لم تأخذ من الاشتراكية إلا الاسم فقط والتـي لا يعيش داخلها إلا مجموعة سلبية بيروقراطية من الرجـال والنساء تتلقى الأوامر من السلطة.

ولا شك أن عمل المرأة العربية بأجر يساعدها على الاستقلال اقتصاديا عن الأب أو الزوج خاصة وأن جـوهر

الإسلام يعطي المرأة حريتها واستقلالها في شـئون أموالهـا وليس لزوجها أي سلطة على أموالها [1]. ولكن العمـل قـد يكون نوعا جديدا من استغلال المرأة إذا حدث هذا العمل في مجتمع طبقي لا يساوي بين أفراده أو في ظل أسرة يسـيطر فيها الرجل عرفا وقانونا وشرعا على جسد المرأة وعقلها.

وهل يمكن للمرأة المحكومة جسديا، والتي لا تملـك حرية التصرف في جسدها، هل يمكنها أن تتصرف بحريتها في أموالها؟ وهل يمكن للمرأة التي تخشى الطـلاق فـي أي لحظة أن ترفض تدخل زوجها في أموالها؟ وهل يمكن للمرأة التي تساق إلى زوجها بالبوليس أن تملك حرية التصرف في مالها وهي عاجزة عن التصرف في حياتها كلها؟.

ولهذا فإن العمل بأجر لم يحرر المرأة العربية بصفة عامة وإنما أضاف إليها أعباء وهموما ومشاكل جديدة.

([1]) أحمد خيرت، مركز المرأة في الإسلام، دار المعـارف، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٦. علي عبد الواحد وافي، المرأة في الإسـلام، مكتبة غريب، القاهرة سنة ٧١، ص ١٣.

وفي أحد البحوث [1] المصرية أن اشـتغال المـرأة بأجر لم يؤثر في رئاسة الرجل للأسرة، ولم تباشـر المـرأة هذه الرئاسة إلا في حالة غياب الزوج، وإن أهم المميـزات التي يحققها اشتغال المرأة هو ارتفاع متوسط دخل الأسرة.

وأثبت هذا البحث في نتائجه أن المرأة العاملة تستغل اقتصاديا من جانب الزوج والأسرة وتظل بـدون نفـوذ أو سلطة وإنما خاضعة تمام لسلطة الرجل.

وقد ظهر من بحث آخر أن ((وجود المـرأة فـي العمل مع الرجال في مكان واحد أدى إلـى تغييـر الفكـرة التقليدية عن المرأة في أنها لا تصلح إلا للمنزل، فقـد تبـين للرجل من واقع العمل أن المرأة العاملـة كـفء وتتحمـل المسئولية تماما بحيث لا يوجد هناك فرق بين المرأة والرجل فيما يمكن أن يقوم به كل منهما من عمل)) [2].

---

(1) سنية خليل، اشتغال المرأة وأثـره فـي بنـاء الأسـرة ووظائفها ماجستير غير منشـورة. جامعـة الإسـكندرية ١٩٦٣، ص ٥٤٧.

(2) كاميليا عبد الفتاح، سيكولوجية المرأة العاملـة، مكتبـة القاهرة الحديثة، ١٩٧٢، ص ١٨٤.

وهذا يدلنا على أن المرأة العاملة المصرية تبذل من طاقتها الجسدية والنفسية أكثر مما يبذله الرجل لأنهـا تقـوم بأعباء البيت والأطفال وحدها، بالإضافة إلى أنها لا تتمتع لما يتمتع به الرجل من حريات شخصية للترفيه عن نفسه فـي خارج البيت، أو في محيط العمل فما زال جو العمل رجوليا يظهر عداء وكراهية للمرأة التي تقتحمه خاصـة إذا كانـت ذكية ومؤهلة ومنافسة قوية للرجال.

وفي البحث السابق توصلت الباحثة ((إلى أن هناك تبادلا في علاقة العمل بين الجنسين وليس هناك تبـادل فـي العلاقة الخاصة، إذا فالعلاقة عموما بين الجنسـين محاطـة بالقيود)) [1].

وبرغم أن المرأة في بعض الأحيان تسعى إلى العمل بأجر ((مدفوعة في تأكيد ذاتها وتحقيق إمكانياتها والمساهمة في تطوير المجتمع)) [2] إلا أن ظروف العمل غير المؤهلة لعمل النساء وتقاليد المجتمع والأسرة غير المرحبة باستقلال المرأة عن سيطرة الرجل أو تقصيرها في واجباتها المنزليـة

---

(1) المصدر السابق، ص ١٨٦.

(2) المصدر السابق، ص ٢٦٢.

كل ذلك لم يسمح للمرأة العاملة في معظم الأحيـان أن تجـد الفرصة لتحقيق ذاتها أو ممارسة إنسانيتها على نحـو أكثـر تحررا.

إن العمل لأي فرد كان (رجلا أو امرأة) لا يمكـن أن يحقق التحرر المنشود عقلا وجسدا إلا في ظـل مجتمـع يساوي بين أفراده ويعطي الفرص المتكافئة للجميـع حسـب القدرة الشخصية والفكرية وليس حسب الانتمـاء لطبقـة أو جنس.

وبالرغم من الازدياد المستمر فـي أعـداد النسـاء المتعلمات والعاملات بأجر في البلاد العربي إلا أن الغالبيـة العظمى لا تزال ترزح تحت وطأة الأمية [1]. كما أن التعليم نفسه لا يلعب دورا كبيرا في القضاء على الأفكـار الباليـة والتقاليد التي لا تزال متفشية بين النساء والرجـال، وتظـل

([1]) في تعداد ٦٦ في مصر وجد أن جملـة عـدد النسـاء (١٠,٥٦٣,٣٥٨) والأميات، منهن عددهن (٨,٣٣٥,٢٩٠) أي نسبة الأمية بين النساء المصـريات ٧٨,٩ بالمائـة، وفـي تعـداد ١٩٧٦ انخفضت نسبة الأمية بين الإناث إلى ٧١ بالمائة.

أغلبية المتعلمات والمتعلمين يرزحون تحت وطـأة التخلـف والخزعبلات التي سمعوها من آبائهم وأجـدادهم، والتـي لا يزال يرددها كثير من الحكام والساسة العرب بهدف تضـليل الشعوب من أجل الاستغلال المستمر.

كما أن معظم الأنظمة في البلاد العربية لا تزال أبعد ما تكون عن الاشتراكية أو العدالة، ولا تزال تتآزر بشـكل علني أو خفي مع النظم الاستعمارية العالميـة، وهـذا كلـه يستدعي أجهزة أعلام وثقافة سطحية مضللة، كمـا أن نظـم التعليم تظل عتيقة غير متطورة، منفصلة عن واقع المجتمـع وحاجاته، معتمدة على حشو الأدمغة بغير فهم ولا ربط بـين العلوم، ولا نظرة شاملة تفسر الظواهر والمشاكل التي تعاني منها الأغلبية تفسيرا صادقا أو حقيقيا، ولا مناقشة أو تحليـل أو إقناع وإنما هي الطاعة والتلقي السلبي من أجـل تخـريج جيوش من الموظفين البيروقـراطيين المطيعـين للرؤسـاء والسلطة الحاكمة أو الموظفات المطيعات للأزواج والرؤساء.

وقد استطاعت بعض البلاد العربية من خلال ثورات تحريرية شعبية أو عسكرية أن تتخلص من بعـض الحكـام والأنظمة الاستغلالية الرجعية والاستعمارية القديم والجديـد،

إلا أنه كثيرا ما تحدث الانتكاسات، وبعد أن يسـير الشـعب خطوات نحو الاشتراكية والحرية إذا به يتلقى ضربة جديـدة قد تسدد إليه من قوى الاستعمار الخارجي أو قـوى الحكـم الداخلي أو كليهما معا.

ومن أهم المشاكل التي تزال تعترض المرأة العربية بالنسبة للعمل هو قوانين الزواج المتخلفة التي لا تزال تعطي الزوج حق منع زوجته من العمل أو السفر أو الخروج مـن البيت حينما يردي، وتقف المجتمعات العربية من المرأة فـي هذا موقفا متناقضا استغلاليا، ففي الوقت الذي تدفع فيه النساء الكادحات إلى العمل في الحقول والمصانع والمكاتب يتـركن تحت رحمة أزواجهن بشأن السماح بهذا العمل حسب رغبـة الزوج ومصلحته، وعلى هذا تستغل السناء من جانبين مـن جانب الدولة ومن جانب الزوج معا.

ونظرا لشدة حاجة الدول العربية (وبالذات الـدول التي تحتاج إلى سواعد النسـاء فـي الحقـول والمصـانع والمكاتب) إلى عمل النساء فقد ترددت هذه الدول في إعطاء الزوج السلطة الكاملة لمنع زوجته مـن العمـل، فلـو نفـذ الأزواج هذا الحق ومنعوا زوجـاتهم مـن العمـل لانهـار

الاقتصاد في تلك الدول بسـبب احتمـال بقـاء الفلاحـات والعاملات والموظفات في بيوتهن، ومن هنا ذلك التنـاقض الواضح الذي نجده في قوانين العمل وقـوانين الـزوج فـي معظم المجتمعات العربية.

إن قوانين العمل في كثير من الدول العربية مصـر وسوريا والعراق وغيرها تسمح للمرأة بالعمل على حـين أن قوانين الأحوال الشخصية حتى اليوم تعطي الزوج سلطة منع زوجته من العمل ومن السفر ومن الخروج مـن البيـت إذا أراد.

ويتعارض موقف الدول العربية من عمـل المـرأة وميثاق حقوق الإنسان الذي ينص على حق العمـل كأحـد الحقوق الأساسية للإنسان ويتعارض أيضا وجميع الشـرائع السماوية وغير السماوية التي نصـت علـى حـق العمـل وتضمنت حثا على العمل وتكريما للعمل، ويتعارض أيضـا وما تعلنه هذه الدول العربية في المحافل الدولية وغير الدولية من أن المرأة العربية تحررت ونالت حقوقها.

وتتناقض الدول العربية مع نفسها ومع قراراتها فـي هذا الشأن. فقد شكلت هذه الدول لجنة خاصة بمركز المـرأة

العربية في قوانين الأحوال الشخصية وعقدت هذه اللجنة في جامعة الدول العربية وكان من أهم قراراتها هـذا الـنص: ((أن يكون للزوجة حقها الكامل في العمل ما لـم يشـترط الزوج في عقد الزواج خلاف ذلك، ومع هذا فللزوجة رغـم قيام هذا الشرط أن تلجأ إلى القاضي ليأذن لها بالعمل إذا جد من الظروف ما يقتضي ذلك)).. ورغم ضعف هذا الـنص من حيث عدم إطلاق الحرية الكاملة للزوجة لأن تعمل بغير قيد أو شرط إلا أن قوانين الأحوال الشخصية لم تتغير لتشمل هذا التطوير في معظم البلاد العربية، حتى تلك البلاد التـي سارت في طريق الاشتراكية. ففي سوريا مـا زال الاتحـاد العام النسائي يطالب للمرأة السورية بالحق للعمـل خـارج المنزل وألا تسقط حضانتها لأولادها إذا عملت [١].

وما زال قانون الأحوال الشخصية المصري يعطـي للزوج سلطة منع زوجته من العمل إذا أراد، وفي المشروع

---

(١) الاتحاد العام النسائي، المرأة العربية في القطر العربـي السوري، المطبعة والجريدة الرسمية ١٩٧٤، ص ٢٨.

الجديد [1] الذي لم يصبح قانونا بعد، والـذي اشـتمل علـى تعديلات طفيفة لا تمس جوهر سلطة الرجل على زوجتـه، ورد نص جديد خاص بعمل المرأة يقول إن من حق الـزوج أن يمنع زوجته من العمل إلا إذا اشترطت هـي فـي عقـد الزواج على العمل، وفي هذه الحالة ليس من حق الزوج أن يمنع زوجته من العمل إلا إذا طرأ ذلك ما يجعـل الشـرط منافيا لمصلحة الأسرة.

ومن هنا يتضح لنا كيف تتردد الدول العربيـة فـي إعطاء الزوجة حق العمل الذي منح لها بصفتها إنسانية فـي جميع المواثيق والشرائع واللجان والدول بما فيهـا جامعـة الدول العربية وكلنا يعرف كيف يسـتغل الأزواج حقـوقهم، وكيف يتحايل الزوج باسم مصلحة الأسرة والأطفـال علـى سلب حقوق المرأة، وهو في الحقيقة يعمل لصالحه وحده ضد مصلحة الأطفال بل مصلحة المجتمع، وكم من زوج يسـتغل حقه في حرمان حقه في حرمان زوجته من العلم أو دفعهـا إلى العمل واستغلال أجرها وتسخيرها خارج البيت وداخله.

---

(1) نشر هذا المشروع الجديد في جريدة الأهرام، القـاهرة، ٢٩ فبراير ١٩٧١.

ومن أهم الأسباب التي تدعو الزوج إلى منع زوجته من العمل هو رغبته في إخضاعها وحرمانها من أجرها الذي قد يحقق لها نوعا من الاستقلال الاقتصـادي فتسـتطيع أن تشعر بكيانها وكرامتها وترفض إهانته لها أو ضربه لهـا أو عربدته مع النساء أو زواجه من امرأة أخرى أو على الأقـل ترفض الفارغ والخمول في البيت بغير عمل منتج يشـعرها بكرامتها الإنسانية.

وكثيرا ما قرأنا عن هؤلاء الأزواج الذين يتلاعبـون بزوجاتهم من أجل استغلالهن أو إخضاعهن، ولعل آخر مـا قرأته في هذا الشأن ما نشر في جريدة أخبار اليـوم تحـت عنوان ((إنذار من الزوج لزوجته: اتركي الوظيفـة فـورا. والمحكمة تقول: العاملة بـدون إذن زوجهـا ناشـز))[1]. وملخص القصة أن إحدى الفتيات زوجهـا أبوهـا بعـد أن حصلت على الثانوية العامة ولم يكمـل لهـا تعليمهـا كـي يزوجها، وعاشت الزوجة مع زوجها عشر سنوات ثم شعرت بالفراغ فبحثت عن عمل واستطاعت الحصول على وظيفـة، لكن الزوج اعترض وطلب منها أن تترك العمل فـورا لأن

([1]) جريد أخبار اليوم، القاهرة، ٢٦ يوليو ١٩٧٥، ص ١٠.

الزوجة التي تخرج للعمل بغير إذن زوجها تعتبـر ناشـزا وأيدت المحكمة قول المحامي وقررت أن الزوجة ناشز لأنها تعمل بغير إذن زوجها.

أما ذلك النص الخاص بأن مـن حـق الزوجـة أن تشترط على زوجها قبل الزواج بأن يكون لها عمل خـارج البيت فهو نص لا ينفع إلا القلة النادرة من النساء المستقلات اقتصاديا ونفسيا وأخلاقيا عن المجتمع والأسرة وهـو أمـر تعجز عنه الأغلبية الساحقة من البنات قبـل الـزواج حتـى هؤلاء اللائي حظين بالتعليم أو العمل بـأجر نظـرا لتقاليـد المجتمع والأسرة. ويشبه هذا النص إلى حد كبير ذلك النص القديم في القانون في قانون الزواج الذي يعطي الزوجة الحق في الطلاق وذلك باشتراط هذا الحق في عقد الزواج قبل أن تتزوج، (أي أن تأخذ العصمة بيدها) ورغم أن هذا الحق لا يلغي حق الزوج قبل في تطليق زوجته حين يشاء وكل مـا يفعله هذا النص هو إعطاء الزوجة مثل هذا الحق إلا أن قلة نادرة من النساء استطاعت أن تستخدم هذا الحق، فإن التقاليد العربية كانت ولا تزال تنظر بازدراء الرجل الـذي يتـزوج امرأة تأخذ العصمة بيدها، أو تشرط عليه قبل الـزواج، أن

العكس هو الصحيح دائما، فوضع الرجل المتقدم للزواج هو الأعلى، وهو المرغوب والمنشود بل والمطارد ولذلك فهـو الذي يضع الشروط قبل الزواج وليست البنت الصغيرة التي يفرض عليها الزواج بواسطة الأب أو الأسرة وليس لهـا أن تختار زوجها في معظم الأحيان، فما بال أن تشـرط عليـه الشرط قبل الزواج.

هذا ولا يزال عمل الزوجة خارج البيت في نظر كثيـر من الرجال العرب إهانة لرجولة الرجل، إذ تقتضـي الرجولـة، وعلى الأخص الرجل ((النزق)) أن يكون قادرا علـى إعالـة زوجته وعدم السماح لها بالاختلاط بالرجـال فـي المكاتـب أو الشوارع أو المواصلات العامة، وقد تغلب الرجل العربي المثقف المتحرر على هذه العقدة، لكن معظم الرجال ما زالوا أسرى لهذه الفكرة وقد يضطر الواحد منهم إلى تشغيل زوجته خارج البيـت لحاجة اقتصادية ملحة، لكنه يظل يعاني نفسيا من قدرتـه علـى إعالة الأسرة وحماية زوجته داخل البيت، بل إن الزوجة نفسها قد تشعر بازدراء لزوجها بأنه يشغلها، أو تتباهي بـأن زوجهـا لا يسمح لها بالخروج للعمل، إلا أن الحاجة الاقتصادية في السـنين الأخيرة قد أجبرت الشباب العرب اليوم على تفضـيل الزوجـة العاملة بأجر لتساعده على النفقات.

عمل المرأة داخل البيت

هناك فئة كبيرة من النساء المضطهدات في قانون العمل وهن النساء العاملات داخل البيت، ويطلق عليهن ((ربات البيوت)).

إن عمل المرأة داخل البيت غير منظور وغير معترف به ضمن أعمال الإنتاج في المجتمع، ونحن لا نطلق على المرأة التي تعمل في البيت اسم امرأة عاملة مع أن عمل المرأة في البيت عمل إنتاجي مائة في المائة، لكنه عمل بغير أجر، وبغير مقاييس اقتصادية واجتماعية، في حين أن عمل المرأة داخل البيت يبدأ أول النهار وينتهي في أخره، أي إنه بمقاييس العمل يزيد عن أي معدل لأي عمل آخر خارج البيت، (هذا باستثناء النساء العاطلات في البيوت من الطبقة القادرة على استئجار الخدم والطباخين ومربيات الأطفال وهن يمثلن فئة صغيرة من المجتمع العربي بصفة عامة).

وعمل المرأة داخل البيت أيضا يشتمل على عدة وظائف وعدة تخصصات، فهي تقوم بوظيفة الطباخ والخادم والممرضة والمرضعة والغسالة والنادلة ومربية الأطفال

والمدرسة والمرفهة النفسية والمواسية والمشجعة والمشـبعة جنسيا والمنفسة عن غضب الـزوج أو فشـله أو تـوتره أو إحباطه.

تقوم المرأة داخل البيت بجميع هذه الوظائف بغيـر أجر، وبغير أن يعترف بعملها ضمن الأعمال الإنتاجية فـي المجتمع، أي أن المرأة العاملة داخل البيت مستغلة اقتصـاديا وإنسانيا، لأن الإنتاج هو الذي أعطى البشر صفة الإنسـانية، فالفرق بين الإنسان والحيوان هو والإنتـاج. وقـد توصـل الإنسان للإنتاج لأنه هو وحده دون سائر الحيوانـات الـذي اكتشف الأدوات أي وسائل الإنتاج.

الإنتاج إذن عمل خـاص بالإنسـان وحـده، أمـا الاستهلاك فتقوم به جميع المخلوقات والكائنات.

إن سلب إنتاجية المرأة العاملة فـي البيـت سـلب لإنسانيتها، وإن سلب أجرها وفرض هذا العمل عليها بغيـر أجر إنما هو سلب لحقوقها الاقتصادية الأساسـية، كمـا أن فرض هذا العمل عليها يحرمها من حرية اختيار عمل آخر، والمفروض أن الإنسان هو الذي يختار عمله لا أن يفـرض عليه لأنه ولد أنثى، وإن وظيفة تنظيـف البيـت يجـب ألا

تفرض على المرأة لمجرد أنها أنثى، كما أن وظيفة تنظيـف الأحذية يجب ألا تفرض على الزنجي لمجرد أنه ولد أسـود اللون.

وعلى هذا فإن الاضطهاد الواقع على المرأة العاملـة في البيت اضطهاد مضاعف ثلاث مرات كالآتي:-

١ - حرمانها من شرف الإنتاج كإنسـان وتجاهـل عملهـا بمقاييس العمل المنتج.

٢- حرمانها من الأجر.

٣- فرض عمل البيت عليها والخدمة فيه لمجرد أنها أنثى.

ويمكن لنا أن نتصور الأموال التي توفرها أي دولة بتسخير النساء في العمل داخل البيوت بغير أجر، حين ندرك النفقات الباهظة والتي تتطلبها هذه الوظائف في المجتمعـات الاشتراكية التي حاولت أن تحرر نساءها العـاملات خـارج البيوت من الأعمال المنزلية وخدمة الأطفال، إلى الحد الذي جعل معظم البلاد الاشتراكية عاجزة عن تحرير الأغلبية من نسائها من هذه الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال، إن الاتحاد السوفييتي مثلا لم يوفر من دور الحضانة إلا ٢٥% فقط مما

يمكن أن يكفي أطفال الأمهات العاملات، وألمانيا الشرقية لم توفر إلا ٣٠% فقط.

أما في المجتمعات الرأسمالية مثل الولايات المتحـدة فإن النسبة لا تزيد عن ٣% رغم ثراء المجتمع النسبي.

لكن المجتمع الرأسمالي قائم أساسـا علـى الـربح ومضاعفة رأس المال، ومثل هذه الخدمات الضرورية للنساء العاملات لا تمثل للمجتمع الرأسمالي ضرورة فهي مصاريف ونفقات باهظة بغير عائد مباشر.

ويتجاهل المجتمع الرأسمالي العائد من وراء عمـل النساء في البيوت، إذ لولا عمل النساء في البيـوت لانهـار الاقتصاد الرأسمالي، فكيف يعمل العامل إذا لم تكن له امرأة في البيت تطعمه وتغسل ملابسه وتربي أطفاله، وكيف يـدبر المجتمع الرأسمالي الأيدي العاملة الجديدة إذا امتنعت النسـاء عن ولادة الأطفال أو عن رعايتهم؟.

ومن هنا ذعر المجتمع الرأسمالي من قـوة النسـاء الصاعدة الجديدة التي قد تفرض على المجتمع شروطا جديدة للعمل في البيت وتطالب بأجر عن عمل البيت وعن الحمـل والولادة والرضاعة أو أن تثور النساء ضد كل هذه الوظائف

المفروضة، وترفض الزواج والحمل وتسعى إلى منع الحمل والإجهاض وهذه كلها حقوق مسلوبة من النساء لأن النساء لم يمثلن في يوم من الأيام قوة ضاغطة على أي نظام أو حكم.

وبرغم أن الاشتراكية سعت إلى تحرير المرأة وذلك بأن تعمل المرأة مثل الرجل وتتقاضى أجرا مساويا له عـن العمل نفسه، إلا أن الاشتراكية دفعت أعـداد متزايـدة مـن النساء للعمل دون أن تحررهن من عمـل البيـت ورعايـة الأطفال إلا بنسب صغيرة.

كما أن النظرية الاشتراكية الخاصة بفائض القيمة لم يطبقها الاشتراكيون على الإنتاج داخل البيت وإنمـا طبقـت هذه النظرية على الإنتاج في المجتمع، ولذلك تـم الكشـف الواضح عن مدى الربح الذي يجنيه الرأسماليون مـن وراء عمل النساء في البيوت.

وفي مجتمعاتنا العربيـة لا تـزال معظـم النسـاء مسخرات للعمل داخل البيـت بالمجـان، ودون الاعتـراف بدورهن الهام في الاقتصاد والإنتاج. أما النسـاء العـاملات خارج البيت فإنهن يجمعن بين العملين داخل البيت وخارجه في معظم الأحيان مما يسبب الإرهـاق الجسـدي والنفسـي

لمعظم الأمهات العاملات بالإضافة إلى مشاكل الأطفال الذين تركوا بغير رعاية الأم أو الأب وبغير رعاية الدولة.

ولا يمكن للنساء العربيات أن يعالجن مشاكلهن وهن أفراد متفرقات، إن الذي عطل حصول النساء على حقـوقهن هو إنهن لم يكن أبدا مجموعة قوية متماسكة، ولم يكن لهـن في أي مجتمع حزب سياسي يناضل مـن أجـل تحريـرهن ويفرض شروطهن بالاقتناع والمنطق أو الإضراب والضغط فبغير القوة الضاغطة الاجتماعية والسياسـية لا يمكـن لأي مجموعة من البشر أن تنال حقوقها في ظل أي نظام أو حكم.

إن المهام الملحة المطلوبة من حزب النساء السياسي مثلا هي وضع خريطة جديدة لقوة العمل النسـائية المنتجـة بحيث تضم الفلاحات وربات البيوت، إن إحصاءاتنا الرسمية تقول إن قوة العمل النسائية هي ٩,٢% فقط، وهي لا تحسب الفلاحات ضمن هؤلاء وإنما تحسب النساء العاملات بـأجر فقط، لكن الفلاحة المصرية منتجة مائة فـي المائـة لكنهـا محرومة من الأجر ومحرومة أيضا من شرف الدخول فـي قوة العمل المنتجة لمجرد أنها لا تتقاضى أجرا.

وإني أتصور أن من المهام المطلوبة أيضا من حزب النساء السياسي هو موضع مقاييس لعمل المرأة فـي البيـت حسب مقاييس العمل والإنتاج في المجتمع، بحيـث يصـبح عمل ربة البيت ضمن أعمال الإنتاج في المجتمـع، بمعنـى آخر إعطاء صفة الإنتاجية الاقتصادية لربات البيوت، فـذلك يمنحهن الشرف الإنساني كأعضاء منتجـات فـي المجتمـع (وليس مستهلكات فقط) بالإضافة إلى الحصول على أجـر مساو لما يحصل عليه شخص آخر يقول بالعمل نفسه.

ومن مهام الحزب أيضا تحرير النسـاء المشـتغلات خارج البيت من العمل في البيوت وذلك بأن تـوفر الدولـة المطابخ والمغاسل ودور الحضانة، وبأن يكون لتوفير هـذه الدور والمؤسسات أولوية في ميزانيـة الدولـة؛ لأن عـدم توفيرها يسبب المشاكل والأزمات العديدة للنساء والأطفال بل والرجال أيضا.

والذين يقولون إن هذه المشاكل يمكن أن تحل بعودة المرأة إلى البيت لا يدرسون الواقع دراسة علمية موضوعية، لأنهم لو فعلوا ذلك لوجدوا أن الذي يدفع الأغلبية الساحقة من النساء العاملات في الحقول والمصانع والمكاتب هو الحاجـة

الاقتصادية للمجتمع والحاجة الاقتصادية للأسرة. إن أغلبيـة نساء مصر مثلا فلاحات يخرجن إلى العمل كل يـوم منـذ آلاف السنين، ولولا خروج الفلاحة المصرية من دارها لمـا وجدنا الخبز الذي نأكله ولا الملابس التي نلبسها. إن الفلاحة المصرية عاملة منتجة مائة في المائة، ولا تكاد تستهلك شيئا وإن أغلبية النساء العاملات في غيـر الزراعـة عـاملات كادحات في المصانع أو الخـدمات أو المهـن الضـرورية وكلهن يعملن من أجل توفير القوت الضـروري لأسـرهن وأطفالهن.

وإن نسبة ضئيلة جدا من جملة النساء اللائي يخرجن للعمل لأسباب غير اقتصادية ضرورية، وحتى بالنسبة لهـذه الفئة القليلة فإن أسباب العمل ضرورية وإنسانية.

فمن قال إن الهدف الوحيد مـن العمـل فـي حيـاة الإنسان هو الحصول على القوت الضـروري؟ إن الإنسـان العاطل بغير عمل يفقد مع فقدان العمـل إنسـانيته وشـرفه بسواء.

وقد كتب أحد كتابنا وهو توفيق الحكـيم يقـول: إن الرجل إنتاج والمرأة استهلاك وهذه هو التقسيم الاقتصـادي

في الفكر الرأسمالي الذي يحرم المرأة شرف الإنتـاج رغـم إنها منتجة مائة في المائة، فإن أغلبية النساء فلاحات منتجات مائة في المائة وأغلبية العاملات فـي المصـانع والمكاتـب منتجات، والنساء العاملات في البيوت فقط منتجات أيضـا، وإنتاج المرأة العاملة أكثر من إنتاج الرجل لأنها تعمل فـي وظيفتين داخل البيت وخارجه، أما المرأة المستهلكة فهـي لا تمثل إلا نسبة ضئيلة جدا من المجتمع واستهلاك الرجل فـي هذه الفئة مثل استهلاك المرأة وأكثر.

المرأة العربية والاشتراكية

ليس من السهل على أحد أن ينكر الدور الهام الـذي لعبه المفكرون الاشتراكيون في كشف الأسباب الحقيقية التي دعت إلى اضطهاد المرأة في تاريخ البشـرية، ولـيس مـن الصعب على أي دارس أن يلحظ العلاقة الوثيقة بين درجـة تحرير النساء وبين درجة تحول المجتمع إلـى الاشـتراكية، كلما زادت درجة تحول المجتمع إلى الاشتراكية الحقيقية زاد تحرر النساء بالمعنى الحقيقـي للتحـرر، أعنـي التحـرر الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي.. أي أن تكـون المـرأة مستقلة اقتصاديا، لها عمله الذي تختاره والذي تأخـذ عنـه أجرا مساويا لأجر الرجل، ولها جسدها الذي تملـك حريتـه بالكامل فتحمل حين تريد وتجهض نفسها حين تريد، وتمـنح اسمها لطفلها حين تريد، وتختار شكل العلاقة الشخصية بينها وبين الرجل، وتتزوج حين تريد وترفض الزواج حين تريد، وتتحرر من أعباء عمل البيت وتربية الأطفال حـين تريـد، تفعل كل ذلك باختيارها وإرادتها وهي تتمتع بكامل كرامتهـا وشرفها في المجتمع.

إن هذه الحريات والحقوق الأساسية لأي إنسان لـن تستردها المرأة إلا في ظل مجتمع نجح في الـتخلص مـن النظم الطبقية والأبوية معا، وهو أمر لم يحدث بعد فـي أي مجتمع اشتراكي. إن المجتمع الروسي حتى اليوم لم يحقـق للأغلبية من نسائه هذه الحريات والحقوق الأساسية مع أنـه أول مجتمع في العالم حدثت فيه الثورة الاشتراكية. فقد كانت أفكار إنجلز الاشتراكية لا تزال تدوي، وقد كشف عن العلاقة الوثيقة بين الاضطهاد الجنسـي والاضـطهاد الاقتصـادي، وأوضح أن أول اضطهاد طبقي حـدث فـي التـاريخ هـو اضطهاد الرجل للمرأة، وأن الاضطهاد الذي وقع على المرأة كان مضاعفا، فالرجل العامل يعاني من اضـطهاد صـاحب العمل أما المرأة فتعـاني مـن اضـطهاد صـاحب العمـل واضطهاد زوجها، وأوضح أن غاية الاشتراكية هي تحريـر العامل (الصناعي أو الزراعي) وتحرير المرأة، وأكـد أن تحرير المرأة لا يتم ميكانيكيا بعد تحرير العمال والفلاحـين، أو بعد التحرير الاقتصادي، لكن التحرير الاقتصادي شـرط ضروري لحدوث التحرير الإنساني، وبغير التحرير الإنساني يتحول الإنسان إلى أداة للعمل فحسب.

إلا أن الفكر الستاليني الجامد اتهم إنجلز بأنه بالغ في تقدير أهمية تحرير المرأة والتحرير الإنساني وسرعان مـا تقهقرت قضية المرأة إلى الوراء. وسلب منهـا كثيـرا مـن الحقوق التي حصلت عليها فـي بدايـة الثـورة الروسـية، وأعادها حكم ستالين إلى حظيرة الأسرة الأبوية والخضـوع لسيطرة الرجل داخل الأسـرة، وأهملـت مشـاكل النسـاء العاملات ولم تتحمس الدولة لتوفير الإمكانيات التـي تسـهل لهن الجمع بين العمل خارج البيت وداخله، وفرضت القيـود من جديد على الطلاق وعلى الإجهاض وعلى الطفـل غيـر الشرعي، وانحصرت الاشتراكية داخـل المفهـوم الضـيق المتعلق بالتحرير الاقتصادي، لكن التحرير الاقتصادي وحده بغير تحرير إنساني وفي ظل حكم سلطوي أبوي لا يقود إلا إلى تحويل الرجل إلى أداة للعمل في المصنع، وتتحول المرأة إلى أداة للعمل في المصنع وفي البيت أيضا، وهذا هـو مـا حدث للمرأة والرجل الروسي في عهد ستالين.

وبالرغم من إنهاء حكـم سـتالين ١٩٥٣ وتجـاوز المجتمع السوفيتي للمرحلة الستالينية الجامدة وتحقيقه للمزيـد من حريات وحقوقا المرأة إلا أنني لا أسـتطيع أن أقـول إن

أغلبية نساء الاتحاد السوفيتي قد تحـررن تحـررا كـاملا، ويكفي أن نعلـم أن ٧٠ – ٧٥% مـن النسـاء العـاملات الروسيات ما زلن يجمعن بين العمل خارج البيت وداخله لأن الدولة لم تنشئ من دور الحضانة إلا ما يكفـي ٢٥ – ٣١% فقط من الأطفال [1] (وهذه النسبة في الولايات المتحدة ٣% فقط) وفي ألمانيا الشرقية تبلغ هذه النسبة ٣٠%.

وإذا عرفنا القيود التي لا تزال تعانيها المرأة داخل الأسرة الأبوية وقيود الإجهاد والعار الذي ما زال يطارد الأم غير المتزوجة أو الطفل غير الحاصل على اسم أبيه، هـذه القيود التي ما زال معظمها يعيش في المجتمعات الاشتراكية، في روسيا وألمانيا الشرقية والصـين وغيرهـا، أدركنـا أن استقلال المرأة الاقتصادي (عن طريق العمل بأجر مسـاو لأجر الرجل) لا يكفي لتحرير المرأة تحريرا حقيقيا.

إلا أن القليل أفضل من لا شيء، ووضع المرأة فـي هذه المجتمعات الاشتراكية أفضل بكثير من وضـعها فـي البلاد الرأسمالية، ويكفي أن ندرك أن حركة تحرير النسـاء

---

(١) Feminism and Socinlism. The Family: by Dianne Feely p. ٨٥ (Psth Finder Press. N. R. ١٩٧٢).

في أمريكا لا تزال تطالب ضمن ما تطالب به بأجر لعمل المرأة مساو لأجر الرجل، وبفرص متساوية للنساء في التعليم العالي وفي الأعمال الهامة والمجالات الإنتاجية، وبتوفير دور الحضانة لأطفال النساء العاملات بأجور بسيطة تتناسب ودخولهن، واستقلال المرأة باسمها وأموالها داخل الزواج والكف عن استخدام المرأة كأداة جنس في التجارة والإعلانات وحوانيت الجنس، وتحرير المومسات.

إن انخفاض مكانة المرأة في المجتمعات الرأسمالية رغم تقدمها العلمي والتكنولوجي وثرائها النسبي يجعلنا ندرك أن الطريق نحو الاشتراكية هو الطريق نحو تحرير المرأة وتحرير الرجال أيضا، لأن الرجل بسلبه إنسانية المرأة يسلب إنسانيته هو أيضا، وبالمثل الإقطاعي أو الرأسمالي الذي يسلب إنسانية العامل إن الشخص الذي يستعبد شخصا آخر لا يمكن أن يكون حرا، فالسيد والعبد كلاهما مسلوب الإنسانية والحرية.

لكن كثيرا من الحكام الاشتراكيين أساءوا فهم هذه المعاني الجوهرية، وفصلوا قضية تحرير المرأة عن قضية تحرير العمال والفلاحين، وتصوروا أن إلغاء الملكية

وقرارات التأميم ستؤدي تلقائيا إلى تحرير الإنسان أو تحرير المرأة، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه معظم الحكام العرب الذين رفعوا شعارات الاشتراكية والتأميم في بعض البلاد العربية.

ولعل أهم ما حققته الثورة المصرية ١٩٥٢ هو قراراتها الاشتراكية الخاصة بتحديد الملكية والقضاء على الإقطاع وتأميم البنوك والشركات الكبرى، ثم الميثاق الوطني في ٢١ مايو ٦٢ الذي اشتمل على هذا النص ((ضرورة إسقاط بقايا الأغلال التي تعوق حركة المرأة الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية في صنع الحياة)).

وبرغم تزايد أعداد البنات والنساء في المدارس والجامعات والعمل في المجتمع إلا أن الأغلال بقيت حول الأغلبية الساحقة من النساء المصريات. وفي بعض البلاد العربية رفع المجتمع شعارات الاشتراكية ونصت مواثيقهم على نصوص مشابهة للنص المصري من حيث إسقاط الأغلال التي تعرقل حركة المرأة وعلمها في المجتمع الاشتراكي إلا أن الأغلبية من النساء العربيات في هذه البلاد لم يتحررن كما يجب، وكان المفروض أن تصدر هذه

الحكومات مع قراراتها الاقتصادية والاشتراكية قرارات جديدة لعلاقة الرجل والمرأة تلغي سيطرة الرجل داخل الأسرة وتعطي المرأة من الحريات الشخصية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ما تعطيه للرجل.

لكن ذلك لم يحدث في أي مجتمع عربي حتى اليوم، وهناك بعض البلاد العربية التي قيدت حرية الرجل في الطلاق، ومنعت تعدد الزوجات إلا أن قانون الزواج والطلاق والنسب والإرث والولاية مازال يعطي الرجل السيادة على المرأة في معظم هذه البلاد.

وقد حصلت المرأة العربية على حقوق جديدة في المجتمع والأسرة بحكم ازدياد وعيها أو تعليمها أو مساهمتها في الإنفاق كصاحبة عمل بأجر إلا أن الأغلبية الساحقة ما زلن أميات كادحات يجمعن بين العمل داخل البيت وخارجه، ويخضعن بحكم الطاعة لقوانين الزواج والطلاق، محكومات في حياتهن داخل الأسرة وخارجها بالتقاليد العتيقة والقيم الأخلاقية المزدوجة التي تدين المرأة وحدها، وتتحمل البنات والنساء سوء العلاقة الزوجية، وفوضى الرجال الجنسية، وتعدد الزوجات، والطلاق بغير سبب ومآسي

العذرية والشرف والختان، والخوف من الحمل داخل الزواج وخارجه، ومشاكل الإجهاض غير القانوني، وعبء تحديد النسل يقع على كاهل النساء وحدهن.

ولا شك أن مشاكل المرأة العربية تختلف باختلاف طبقتها الاجتماعية، وتزيد المآسي والمشاكل كلما هبطت المرأة في السلم الاجتماعي، إلا أن هناك مأساة مشتركة تشترك فيها جميع النساء من كل الطبقات وهي مأساة الزواج والطلاق، إذ بمجرد أن تتزوج المرأة تصبح خاضعة لذلك القانون الذي يطلق عليه اسم قانون الأحوال الشخصية.

وفي بلد كمصر لم ينل قانون الأحوال الشخصية الاهتمام الكافي من رجال السياسة أو الحكم.

الزواج والطلاق في المجتمعات العربية

ظل قانون الزواج والطلاق في مجتمعاتنا العربية من الأمور الثانوية التي تترك لموظفي الشـئون الاجتماعيـة أو بعض الجمعيات النسائية. بل إن بعض القيادات النسائية التي وصلت إلى مقاعد البرلمان أو الحكم كانت تبتعد عن مناقشة هذا القانون حتى لا تـتهم بأنهـا ضـيقة الأفـق محـدودة الاهتمامات بما هو نسائي. وظل رجال السياسة بمـن فـيهم الاشتراكيون ينظرون باستخفاف إلى قضية تحرير المرأة أو تغيير قانون الأحوال الشخصية. أنهم يظنـون أن الأحـوال الشخصية للمرأة والرجل لا علاقة لها بالسياسة العليا التـي تشغلها القضايا الكبرى، وترى الواحد مـنهم منهمكـا فـي اجتماع انتخابي داخل الاتحاد الاشتراكي أو في إحدى قاعات البرلمان أو في إحدى حفلات السفارات والسلك السياسي.

إن السياسة العليا لأي بلد لا تجرى في هذه القاعات والردهات والحفلات الدبلوماسية وإنما هي تجرى في حيـاة الناس الصغير اليومية، في خروج الفلاح إلى عمله صـباح كل يوم بعد أن يبول بغير ألـم أو دم (مـرض البلهارسـيا

يستنزف دم الفلاحين المصري كل يوم ويسـتنزف الـدخل القومي بما يصل إلى ٧٠%)، في تناول العامل كل صـباح قطعة من الجبن أو بعض الفـول المـدمس يسـاعده علـى مواصلة الوقوف أمام الآلة، في خروج الفلاحة إلـى الحقـل دون أن يضربها زوجها حتى تصبح كسيحة، فـي ركـوب الموظفة الأوتوبيس دون أن يدفعها أحد مـن الخلـف، فـي امتناع الزوجة عن ممارسة الجنس مع زوجهـا إذا كانـت متعبة أو مريضة، في رعاية الأب لأطفاله وعـدم الهـروب منهم إلى زوجة ثانية أو عشيقة جديدة.. الخ.

إن هذه الأمور الشخصية والخاصة جدا والصـغيرة جدا كالأكل والتبول وممارسة الجنس والخروج كل صـباح وركوب الأوتوبيس التي تحدث في حياة الرجـال والنسـاء اليومية هي التي تصنع الدولة وهي التي تصنع السياسة العليا في أي دولة، ولا يمكن

لمن يهتم بالسياسة العليا في أي دولة أن يهمل هذه الأمـور الشخصية الصغيرة جدا. لا يمكن للفلاح أن يعمل وينـتج إذا أصيب بألم ونزف دموي في كل مرة يذهب فيها إلـى دورة المياه (البلهارسيا). ولا يمكن للعالمة أو للعامل أن يواصل

العمر من غير أن يرضي رغبته الجنسية، ولا يمكن للزوجة أن تنتج في المجتمع وهي مضطهدة عاطفيا وجنسيا. بمعنى آخر لا يمكن للبشر أن يعملوا وينتجوا بغير أن يفكروا ويشعروا ويمارسوا الجنس. ولا يمكن لهم أيضا أن يفكروا ويشعروا دون أن تكون هناك نتائج اقتصادية. لذلك لا يمكن بحال من الأحوال فصل حياة الناس العاطفية والجنسية عن الحياة الاقتصادية. إن أي فصل بينهما يقود إلى فكر ناقص سطحي ومشوه. إن الذي صنع تاريخ الإنسان ليست هي العلاقات الاقتصادية وحدها كما يؤمن بعض الاشتراكيين وليست العلاقات الجنسية أو الغريزة الجنسية كما يؤمن بعض الفرويديين ولكن الذي صنع التاريخ هما الاثنان معا في وحدة واحدة وفي مستوى واحد كما أثبت التاريخ.

لهذا فإن الاهتمام بقانون الأحوال الشخصية وبقضية مساواة المرأة لا يقلل من قيمة الرجل السياسي الاشتراكي، بل إن الرجل الاشتراكي الحقيقي يعرف من موقفه إزاء قضية المرأة وبقدر ما يكون الرجل اشتراكيا وبقدر ما يكون الرجل إنسانا بقدر ما يكون اهتمامه بقضية المرأة.

وتستقي قوانين الزواج والطلاق في البلاد العربيـة أسسها من الشريعة الإسلامية هذه الشريعة التي ترتكز أساسا على القرآن وأحاديث الرسول محمد وتفسيرات علماء الـدين الإسلامي لهذه الأحاديث والآيات القرآنية.

ولأن أحاديث وآيات القرآن لم تصدر كلها في يـوم وليلة وإنما صدرت في ظروف ومناسبات متعددة ومختلف، ومن أجل أن تتناسب مع المجتمع العربي في زمن معين، كل ذلك جعل هذه الأحاديث والآيات تشتمل أحيانا على أوامـر متناقضة وبالذات فيما يختص بحياة المرأة.

وتنص الشريعة الإسلامية على قطع يد السارق، لكن قانون العقوبات في البلاد العربية ومنها مصر لا ينفذ هـذه الشريعة وإنما وضع قوانين أخرى لعقاب السـارق. والـذي يدرس تاريخ البلاد العربية يدرك أن السلطة السياسية في أي بلد استطاعت في كل وقت أن تضع من القوانين ما يخـالف الشريعة الإسلامية، ولم يكن في مقدور أي مؤسسة دينية أن تمنع صدور هذه القوانين، بل كثيرا ما كانت تتعـاون مـع السلطة السياسية وتطوع الدين للسياسة وتستخرج من الآيات أو من الشريعة تفسيرات جديدة تتمشى مع رغبـة الحكـام.

وكما طورت الكنيسة نفسها في أوروبـا لتسـاير العصـر الحديث فقد تطورت المؤسسات الإسلامية ومشايخها أفكارهم وتفسيراتهم لتساير العصر الحديث.

وبقدر ما أسرعت السلطة السياسية في تغيير قوانين الدين لتناسب النظم الاقتصادية المتغيرة من الإقطاعية إلـى الرأسمالية إلى الاشتراكية بقدر ما تلكأت في تغيير القـوانين الدينية المتعلقة بالزواج وحياة المرأة. والسـبب فـي ذلـك واضح، وهو أن السلطة السياسية في كل زمـان ومكـان لا تعبر إلا عن مصالحها ولم تكن هذه السلطة في معظم البلاد العربية وغير العربية إلا سلطة أبوية قائمـة علـى سـلطة الرجال داخل الأسرة وفي المجتمع الخارجي.

وهذا هو السبب في أن أغلبية نساء أوروبا وأميركـا حتى اليوم يفقدن أسماءهن بعد الزواج،وتحمل المرأة مـنهن اسم زوجها. بل إن كثيرات منهن حتى اليوم لا يملكن حرية التصرف في أموالهن إلا بإذن مـن الـزوج. إن الزوجـات العربيات أكثر حظا من الأوروبيات والأميركيات في هـذين المجالين، إذ تحتفظ الزوجة العربية باسمها بعد الـزواج ولا تحمل اسم زوجها، كما أن لها حرية التصرف فـي أموالهـا

بغير إذن الزوج. وليس هذا إلا أحد البقايا الضئيلة المتبقيـة من النظام الأمومي في المجتمع العربي قبل الإسلام، واتساع أفق محمد رسول المسلمين ونظرته المتحررة للمرأة بالنسبة لغيره من الأنبياء أو الزعماء الدينيين أو السياسيين.

ورغم احتفاظ المرأة العربية باسمها بعـد الـزواج (وهو اسم أبيها بالطبع) ورغم حقها النظري في التصرف بأموالها بغير إذن الزوج إلا أن القيـود الموضـوعة علـى الزوجة العربية قانونا وعرفا والتي تجعل زوجهـا صـاحب الأمر والنهي في دخولها أو خروجها من البيت يجعل مثـل هذه الحقوق بغير فائدة فعلية للأغلبية الساحقة من النساء.

وقد استطاعت السلطة السياسية في بعـض الـبلاد الإسلامية مثل تـونس والصـومال أن تخـالف الشـريعة الإسلامية فيما يختص بقوانين الزواج والطلاق والإجهـاض وأن تضع قوانين جديدة تمنع تعدد الزوجات وتحـدد حريـة الرجل في الطلاق وتبيح الإجهاض وتساوي الرجل والمـرأة في الميراث.

ولا تختلف السلطة السياسية في البلاد الإسلامية في تفسير النصوص الإسلامية حسب ظروفها الاقتصادية ولكن

رجال الدين الإسلامي أنفسهم يختلفون في تفسير الدين حسب مصالحهم ومدى ارتباطهم بالسـلطة السياسـية، أو حسـب مستوياتهم الثقافية أو الفكرية.

وقد كان الإمام الشيخ محمد عبده مـن رواد القـرن العشرين من رجال الدين الإسـلامي الـذي حـارب تعـدد الزوجات وقال إنه إذا كانت له فوائد في صدور الإسلام فقد أصبح ضررا على الأمة الإسلامية. والشيخ أحمـد إبـراهيم الذي قال: ((يجب أن نبادر إلى وضع قانون شامل لمسـائل الأحوال الشخصية وعرض آراء أصحاب المذاهب وأقـوال الفقهاء من غيرهم عرضا جديدا علـى مقتضـى الشـريعة الإسلامية المطهرة، وفقه يلم بأحوال الناس ويساير ما أثبتـه العلم في مختلف ظروف الزمان والمكان)) [١].

ويعتبر الإسلام من أكثر الأديان مرونة ليتمشى مـع العقل والتطور. وذلك بفتحه باب الاجتهاد. وقـد رأى أئمـة الدين الإسلامي ومنهم الإمام أحمد بن حنبل (وهو صـاحب المذهب الحنبلي أحد مذاهب الإسلام الأربعة وأكثرهم تشددا

---

(١) مجلة كلية الحقوق للمباحث القانونية والاقتصادية، السنة الأولى، العدد الأول الذي صدر بالقاهرة عام ١٩٤٥.

وتزمتا) أن الاجتهاد ضروري، وأن وجود المجتهد المستقل المطلق فرض كفاية لا يصح أن يخلو منه أي عصر. ورأى ابن تيمية فتح باب الاجتهاد لكل قادر دون الالتزام بمـذهب معين. وقد قال في حرية الاجتهاد واستقلال المجتهدين عـن الأئمة: ((هذا اختلاف زمان وليس اختلاف برهان. ولو كان الإمام في عصرنا لقال مثل قولنا)).

وإن الذي يبحث في الدين الإسلامي حول موضـوع كتعدد الزوجات مثلا يرى أن آراء علمـاء الـدين اختلفـت اختلافا عظيما، فريق من هؤلاء يرى أن الـدين الإسـلامي يمنع تعدد الزوجات، ويستند في ذلك إلى ما جاء بالقرآن في سورة النساء:

﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النسـاء مثنـى وثـلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة..﴾ [1].

ويقول هؤلاء إن هذه الآية تحرم تعدد الزوجات لأنها تشترط العدل بين الزوجات وهو شرط يستحيل على الرجـل تحقيقه لأن معنى التعدد هو التفضيل، تفضيل الزوجة اللاحقة على الزوجة السابقة،ويكفي هذا التفضيل أنه جعـل العـدل

([1]) القرآن – سورة النساء، الآية ٣.

مستحيلا على أي رجل وإن كان نبيا. بل إن النبـي نفسـه محمد رسول الله لم يستطع أن يعدل بين زوجاتـه إذ كـان العدل يقضي منه أن يقسم لياليه بالتساوي بين زوجاته بحيث لا تجور واحدة على ليلة الأخرى. إلا أن محمدا كان بشـرا ولم يكن في وسعه دائما أن يحقق هذا التقسيم العادل. فقد كان يفضل زوجته عائشة ويحبها أكثر من زوجاتـه الأخريـات. وعن عائشة قالت: ((كانت سـودة بنـت زمعـة (إحـدى زوجات الرسول) قد أسنت. وكان رسول الله ﷺ، لا يستكثر منها، وقد علمت مكاني من رسول الله وأنه يسـتكثر منـي، فخافت أن يفارقها وضنت بمكانها عنده فقالت: يا رسول الله يومي الذي يصيبني لعائشة وأنت منه في حل فقبله النبي ﷺ، وفي ذلك نزلت الآية القرآنية: ﴿ وإن **امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضها** ﴾ [1].

وأكثر من هذا ما جاء في كتاب الطبقات الكبرى أن حفصة ((زوجة النبي)) ((خرجت من بيتها فبعث رسـول الله إلى جاريته فجاءت إلى بيت حفصة، فدخلت عليه حفصة وهي معه في بيتها فقالت: يا رسول الله في بيتي وفي يومي

([1]) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ٢٦.

وعلى فراشي، فقال رسول الله: اسكتي فلـك الله لا أقربهـا أبدا، ولا تذكريه))[1].

وهناك علماء في الدين الإسلامي يرون أن الطـلاق في الإسلام ليس حقا مطلقا للزوج كما هو في قوانين معظـم البلاد العربية ومنها مصر، وأنه لا بد من أن يرجع الـزوج إلى القاضي ولا يستقل بإيقاع الطلاق متى شاء كما هو الحال اليوم.

وتقف تونس في مقدمة البلاد العربية التي طـورت قانون الزواج والطلاق في ١٩٥٦ حيث تنص المادة ١٨ منه على منع تعدد الزوجات. وبالنسبة للطلاق تنص المـواد ٣٠ وما بعدها على أن الطلاق لا يقع إلا لدى المحكمة بناء على طلب الزوج أو الزوجة. وقانون سوريا للأحوال الشخصـية سنة ١٩٥٣ اشترط في المادة ١٧ على أن: ((للقاضي أن لا يأذن للرجل أن يتزوج على امرأته إذا تحقق أنه غير قـادر على نفقتها)). وبالنسبة للطلاق ضمن القانون السوري فـي

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار التحرير، القاهرة. ١٩٧٠، ص ١٣٤- ١٣٥.

المادة ٢٧ مبدأ تعويض الزوجة إذا ما تعسف زوجهـا فـي استعماله لحقه في الطلاق، وهو ما يعرف بمتعة المطلقة.

وقـانون الأحـوال الشخصـية لجمهوريـة الـيمن الديمقراطية لسنة ١٩٧١ تضمن نصا مماثلا تماما لمـا ورد بالقانون السوري. وقانون الأحوال الشخصية للعراق لسـنة ١٩٥٩ نص بالفقرة الرابعة من المادة الثالثة بخصوص تعدد الزوجات على إنه ((لا يجوز الزواج بأكثر من واحـدة إلا بإذن القاضي)) ويشترط لإعطاء الإذن تحققي شرطين.

أ – أن تكون للزوج كفاية مالية لإعالة أكثـر مـن زوجة واحدة.

ب _ أن تكون هناك مصـلحة مشـروعة. ونـص بالفقرة الخامسة على أنه إذا خيف عدم العدل بين الزوجـات فلا يجوز التعدد ويترك تقدير ذلك للقاضي.

ونص بالفقرة السادسة على أن ((كل مـن أجـرى عقدا بالزواج بأكثر من واحدة خلافا لما ذكر بـالفقرتين ٤ و ٥ يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنة أو بالغرامة بمـا لا يزيد عن مائة دينار أو بهما معا)). ومؤدي هذه النصـوص هو تحقيق الرقابة القضائية على التعدد بشروطه الثلاثة فلـم

تقتصر هذه الرقابة على القدرة المالية فحسب – على ما جاء بالقانون السوري – وإنما تخطاها إلى شرطي العـدل بـين الزوجات وقيام المصلحة المشروعة إلى العذر والضـرورة. هذا إلى جانب ما تقرره هذه النصوص من تأثيم فعل الزوج الذي يخالف الالتزام بالرجوع إلى المحكمة لاسـتئذانها فـي طلب التعدد. وبالنسبة للطلاق فإن المادة ٣٩ مـن القـانون العراقي تقضي بوجوب رفع الدعوى بطلب إيقـاع الطـلاق والحصول على حكم به. وإذا تعذر ذلـك وجـب تسـجيل الطلاق بالمحكمة خلال مدة العدة، وتبقى حجة الزواج قائمة في هذه الحالة ما لم تبطلها المحكمة.

وقانون الأحوال الشخصية للمملكة المغربيـة لسـنة ١٩٥٧ تنص بالفقرة الأولى من الفصل الثلاثين علـى عـدم جواز التعدد إذا خيف عدم العدل بين الزوجات كمـا تـنص بالفصل الواحد والثلاثين على أن للمتزوج عليهـا أن ترفـع أمرها للقاضي لينظر في الضرر الذي لحق بها بسبب التعدد.

وقانون الأحوال الشخصية بباكسـتان لسـنة ١٩٦١ يقضي بالنسبة لتعدد الزوجات والطلاق بوجـوب اسـتئذان مجلس التحكيم بطلب يقدم إليه متضمنا الأسباب التي تبرره.

فإذا لم يستأذن الزوج مجلس التحكيم قبل التعاقد على الزواج الذي يؤدي إلى تعدد الزوجات أو قبل أن يوقع الطلاق، فإنه يلتزم بتعويض زوجته، فضلا عن الحكـم عليـه بـالحبس والغرامة أو إحدى العقوبتين. وقـد تضـمن قـانون ١٩٦٧ أحكاما مماثلة تقريبا لما يقتضي بها قانون الأحوال الشخصية بباكستان من حيث ضرورة الحصول على الإذن قبل التعاقد الذي يؤدى إلى التعدد وقبيل إيقاع الطلاق.

وفي ضوء ما سبق يعتبر قانون الـزواج والطـلاق المصري من أكثر القوانين تخلفا في البلاد العربية وأكثرهـا تعسفا بالمرأة، هذا القانون الذي صدر في سـنة ١٩٢٩، أي مضى عليه حوالي نصف قرن وما زال يتحكم في مصـائر النساء ويتيح للأزواج استغلالهن.

وقد ناضل الاتحاد النسائي المصري من أجل تغييـر هذا القانون، كما ناضلت مجموعات من النساء والرجال من ذوي العقول المستنيرة لتطوير هذا القانون دون أثر يذكر.

ويتصور بعض الناس أن الشريعة الإسـلامية هـي التي تقف عقبة في وجه تطوير هذا القانون، لكـن الشـريعة الإسلامية نفسها لم تمنع تغيير هذا القانون في بلاد إسـلامية

أخرى، بل إن الشريعة الإسلامية لم تمنع تغيير قوانين أخرى في مصر بعد ثورة ١٩٢٥، ومنها قـوانين تحديـد الملكيـة وبعض بنود قانون العقوبات كعقوبة السـرقة والزنـا ممـا يخالف الشريعة.

إن قانون الزواج والطلاق في مصر ما زال حتـى اليوم يمنح الرجل حرية الطلاق وتعدد الزوجات، وفي إمكان أي زوج له زوجة ومن الأطفال عشرة أو أكثر ثـم تقابلـه امرأة صدفة في الطريق يعجبه شكلها فـإذا بـه يتزوجهـا ويطلق زوجته القديمة ومعها أطفالها العشرة. إن مثل هـذه المآسي تحدث في مجتمعنا المصري. ولعل آخر ما قرأته في هذا الصدد ما نشر في جريدة أخبار اليوم [1] تحت عنـوان ((ذهب الأب إلى مجلس الآباء، فخرجت زوجته وأولاده من البيت)). ونشرت الجريدة ما يأتي (انشغل الموظف الكبير بالمشرفة نفسها ولم يتتبع حديثها، وكان قـد تلقـى دعـوة لحضور مجلس الآباء في المدرسة التي تدرس فيهـا ابنتـه.

([1]) انظر: جريدة أخبار اليـوم الصـادرة يـوم ٦ مـارس ١٩٧٦، الصفحة العاشرة تحت عنوان: ذهب الأب إلى مجلس الآبـاء فخرجت زوجته وأولاده من البيت.

وعندما ذهب إلى هناك قابلته المشـرفة علـى المجلـس... وأخذت تتحدث عن مجلـس الآبـاء والأمـور التـي تهـم الطالبات.. ولكنه غاب عن الحديث في التطلـع إلـى وجـه المشرف في إعجاب – وعاد إلى المدرسة بعد ذلك مرارا.. كانت حجته السؤال عن ابنته. وكان هدفه أن يرى المشـرفة – وفوجئت زوجته وهو يدخل البيت ومعه المشـرفة التـي تزوجها.. فحملت حقيبتها وأخذت أولادها وذهبت إلى بيـت أسرتها.. وأمام المحكمة وقفت الزوجة الأولى تطالب بالنفقة وتقول أن له ٣ أولاد أكبرهم في نهائي طب والثانية بكليـة التجارة والثالثة بالثانوية. وحكمت المحكمة بأن يدفع الـزوج نفقة للزوجة والأولاد قدرها ٧٠ جنيها في الشهر.

هل هناك فوضى جنسية أكثر من هذا؟ أي دين مـن الأديان يمكن أن يدافع عن مثل هذه النزوات الجنسية غيـر المسئولة؟ وهل من حق كل زوج ينجذب إلى أي امـرأة أن يطلق زوجته ويشرد أطفاله؟ وهل ينتهي كل شيء بأن يدفع الرجل نفقة سبعين جنيها في الشهر أو سبعين مليما حسـب دخله الشهري؟

هذا هو الحال الذي يعيشه الرجال في مصر وبعض البلاد العربية حتى اليوم. وقد صدر فـي الأيـام الأخيـرة مشروع جديد لتطوير هذا القانون في مصر قالت الصـحف إنه ظل سنوات عديدة يناقش من رجال الـدين. وانـه فـي النهاية عرض على أكبر هيئة علمية إسلامية هـي مجمـع البحوث الإسلامية. ونشرت التعديلات المقترحة في جريـدة الأهرام في ٢٩ فبراير ١٩٧٦، ومنها نرى أن جوهر القانون القديم لم يمس، وأن حق الرجل في النزوة الجنسية مـا زال موجودا بوجود حقه غير المسئول فـي الطـلاق. إذ يقـول المشروع إن الرجل هو الذي يطلق فقط، ويشـترط لوقـوع الطلاق أن يكون الزوج عاقلا ليس مجنونًا ولـيس سـكران وليس مدهوشًا وليس غضبانا. والزوج هو الذي يحدد حالتـه حين وقوع الطلاق (لا أدري كيف يحكم الشخص على نفسه ويصبح هو الخصم وهو الحكم في وقت واحد) ومن بنـود المشروع الجديد أيضا أن الزوج يمكن أن يطلق زوجتـه إذا قال لها ((أنت طالق أنت طالق. أنت طالق)) فـي مجلـس واحد ويعتبر ذلك طلقة واحدة فقط. مثلما يقول لها أنت طالق ثلاثًا، فهذه أيضا طلقة واحدة... والزوج يملك على زوجتـه

ثلاث طلقات وزواجها برجل آخر يهدم طلقاته فـإذا عـادت إليه ملك عليها ٣ طلقات جديدة.

ومن الغريب أن يتكلم المشـروع بعـد ذلـك عـن إجراءات توثيق الطلاق فيقول: إنه في حالـة عـدم اتفـاق الزوجين على الطـلاق ولا يوثـق الطـلاق إلا إذا تمـت إجراءات التحكيم المنصوص عليها في القرآن الكـريم، ثـم ثبت عدم نجاح التحكيم في الإصلاح بينهما، ولكن لا يعتبـر التوثيق شرطًا لوقوع الطلاق، ومعنى هذا أن الطـلاق يقـع بدون التوثيق، وبدون إجراءات التحكيم المنصوص عليها في القرآن الكريم فكيف يكون ذلك؟ وكيـف ينـاقض المشـرع القرآن الكريم، و ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما** ﴾، وكيف يشتمل المشروع على عبـارتين متناقضـتين تمـام التناقض وكل منهما تلغي الأخرى، لكن الطلاق في النهايـة يقع بتوثيق لمجرد أن يقول الزوج لزوجته أنت طالق.أنـت طالق. أنت طالق في مجلس واحد. ويعتبر ذلك طلقة واحـدة فقط، وتبقى من حق الزوج بعد ذلك طلقتان أخريـان لأنـه يملك ثلاث طلقات على زوجته، وهو يملك أيضا أن يتـزوج

عليها أربعا أخريات. وقد كسبت الزوجـة فقـط فـي هـذا المشروع حق الامتناع عن السكن في بيت واحد مع ضرتها (الزوجة الأخرى) وكسبت حقًا آخر جديدا وهو أن تطلـب الطلاق من زوجها إذا تزوج عليها مرة أخرى. وإذا نظرنـا إلى حال معظم الزوجات وبالذات الفلاحات اللائـي يعملـن بغير أجر لحساب الزوج والأسرة فمن هي تلك الزوجة التي سوف تستخدم هذا الحق وتطلب الطلاق لتخرج إلى الشـارع بغير رجل (ظل رجل ولا ظل حيطة) وتتعرض للتشـرد الأخلاقي والاقتصادي معا في ظل تقاليد تدين المرأة المطلقة ومجتمع يستغل جهود النساء في الحقول والبيوت بغير أجر.

ومن الحقوق التي كسبتها المرأة أيضـا فـي هـذا المشروع أنها يمكن أن تسافر إلى الحج فقط بغير إذن مـن زوجها بشرط أن يسافر معها محرم (أخوها أو أبوها) وهي ملزمة بالسفر مع زوجها إلى أي مكان يذهب إليـه. وفيمـا يخص بيت الطاعة فلا يجوز تنفيذ حكم الطاعة على المـرأة بواسطة رجل البوليس. وهذا كله في رأيي تعديلات طفيفة لا تمس جوهر بيت الطاعة ولا تمس جوهر الظلم الواقع علـى

المرأة المتزوجة وهي تناقض روح الشريعة الإسلامية التي مبدؤها المعاشرة بالمعروف أو التسريح بالمعروف.

إن مشكلة الطلاق وتعدد الزوجات في مصر ليست مشكلة المرأة فحسب ولكنها مشكلة الرجال والنساء والأطفال. وكم سمعنا عن قصص مؤلمة لأطفال شردهم الطلاق ولنساء مطلقات لم يجدن من وسيلة للعيش سوى بيع أجسادهن، وبنات صغار انصرف عنهن الأب إلى عشيقات أو زوجات جديدات.

والطلاق قد يكون أحيانًا ترفًا (بالنسبة لمآسي الزوجة) لا تحصل عليه الزوجة أبدا، وقد يكون محنة سرعان ما تحصل عليها وفي كلا الحالين فإن الأمر بيد الزوج وحده الذي يطلق بكلمة، وقد لا يطلق أبدا عنادا وتجبرا واستغلالا لحق قانوني جائر، وقد يطلب زوجته في بيت الطاعة ويحضرها له البوليس، فإذا بها تجد زوجة أخرى مع زوجها.

وتحدث المأساة حين تصبح المرأة مطلقة وليس لها عمل أو إيراد تعيش منه، ولا يصبح أمامها إلا النفقة التي تحصل عليها بمشقة من زوجها وقد لا تحصل عليها في

معظم الأحيان بسبب تحايل الأزواج على القانون، أو بسـبب ضعف القانون وتشجيعه لتحايل الأزواج وهروبهم من النفقة.

ولعل من أغرب ما قرأت أخيرا حول موضوع النفقة وحق المرأة فيها هو ما نشر في جريدة الأخبار ٢١ سـبتمبر سنة ١٩٧٥ تحت عنوان ((لا نفقة للسيدة)) التي تحج دون أذن زوجها [1].

تقول الجريدة:-

أصدرت محكمة مصر القديمة للأحوال الشخصـية ثلاثة أحكام هامة في ٣ قضايا أحوال شخصية....

الحكم الأول:

لا نفقة للسيدة التي تحج دون إذن من زوجهـا.. لأن النفقة تعطى للزوجة مقابل الاحتباس.. ولا نفقة للزوجة التي تحج دون إذن زوجها عن فترة الحج.. كانت إحدى الزوجات رفعت دعوى نفقة عل زوجها الموظف الكبير. قالت أنه منع عنها النفقة عن فتر أدائها فريضة الحج، وأصدرت المحكمة بعدم أحقية الزوجة للنفقة الشرعية عن فترة أدائها لفريضـة

([1]) انظر جريدة الأخبار ١٩٧٥/٩/٢١ الصفحة السادسة.

الحج التي قامت بها بدون إذن من زوجها لأن النفقة واجبة على الزوج مقابل احتباس زوجته.

الحكم الثاني:

أقامت مطلقة دعوى ضد زوجها المهندس قالت إنه بعد طلاقها وضعت في مستشفى خاص، وتكلفت الولادة ومصروفات العلاج بعد الولادة ٥٠٠ جنيه وقدمت بها قوائم رسمية.. وقضت المحكمة برفض الدعوى.. واستندت المحكمة في حكمها بعد أحقية المطلقة لمصروفات الولادة على فتوى تقول إن: ((أجر القابلة على من استدعاها)) فالزوج المطلق غير ملزم بدفع مصروفات الولادة... أما العلاج لفترة النفاس فهو علاج مرضي وليس على الرجل المطلق سداد هذه النفقات.

ولست بصدد الدخول تفصيلا في مهزلة النفقة، والتي إن حظيت بها المرأة المطلقة فهي نفقة مؤقتة لفترة قصيرة محدودة، ثم تصبح المرأة بغير عائل وبغير مورد.

والعمل المنتج بأجر يحمي المرأة بالطبع ويمنحها إيرادا شهريا يسد رمقها. لكن المرأة العاطلة تصبح في الشارع بغير عمل وبغير إيراد وعليها وحدها أن تنتزع لقمة

عيشها من أنياب المجتمع، عليهـا أن تسـرق (إذا تعلمـت السرقة) أو عليها أن تبيع جسدها وهي فـي كـلا الحـالين (السرقة والبغاء) معرضة للسجن. وفـي سـجن القنـاطر التقيت بنماذج متعددة من هؤلاء النسـاء التعيسـات اللائـي حرمن نمن التعليم والعمل بسبب التقاليد القديمـة أو لسـبب آخر، وحرمن من الزواج بسبب تطليق الزوج لهن بسبب أو بغير سبب، وحرمن حتى من العدالة القانونيـة لأن القـانون يعاقب المرأة البغي ولا يعاقب الرجل.

أما هؤلاء اللائي لم يتعرضن لمثل هـذه الظـروف التعيسة فإنهن بسبب فقدان المورد الاقتصادي الكافي يعشـن حياة ذليلة، وكم من امرأة مطلقة لم تجد المأوى بعد أن نفدت النفقة التي حصلت عليها وأصبحت حائرة بين أهلها وأقاربها وتتسول لقمة العيش أو تعمل خادمة في بيت تتعرض لمشاكل وإهانات لا حصر لها.

وقد تعرض مشروع الأحـوال الشخصـية الجديـد لموضوع النفقة لتعديلات طفيفة لم تحل جوهر المشكلة اذكر منها ذلك النص: إذا طلق الرجل زوجته دون رضاها ولم تك الإساءة منها فإنها تستحق مبلغًا إضافيا بخلاف النفقة يسـمى

((المتعة)) ويقدر بما لا يجاوز نفقة سـنة حسـب حالـة الزوج. ومن هنا نفهم أيضا أن الرجل يطلق زوجته بـدون رضاها وبدون خطأ منها نظير أن يدفع شيئًا إضـافيا مـن المال. وبهذا يعطى الرجل الغني حرية أكثر من الرج الفقير لإرضاء نزواته الجنسية، ثم ماذا تفعل نفقة سنة واحدة لامرأة بغير إيراد طلقها زوجها دون رضاها ودون خطـأ منهـا؟ وماذا تفعل نفقة سنة أو سنتين لامرأة عاشت مـع زوجهـا عشر سنوات أو ثلاثين سنة وأعطته جهدها وشبابها وأطفالها ثم خرجت إلى الشارع بنفقة إن أطعمتها سنة فلـن تطعمهـا السنة الثانية. وفي ظل إمكانيات العمل المحدود في المجتمع وكثرة المتعطلين بغير عمل لا تجد مثل هذه المرأة إلا تجارة الجسد بل إن مثل هذه المرأة قد لا تصلح لتجارة الجسد أيضا بعد أن استهلك زوجها جسدها وشبابها ثم ألقـى بهـا فـي الشارع قبة ممصوصة.

وقد وجد أن عددا من البنات الصغار اللائي لجـأن إلى تجارة الجسد هن ضحايا آباء تركوا زوجاتهم وأولادهـم من أجل رغبة جنسية جديدة. وقد ثبت أن الأم بعد الطـلاق هي التي تتحمل هم تربية الأطفال بسبب وضعها الأدنى فـي

المجتمع، وبسبب حرصها على المسـئولية الأمومية التـي فرضها عليها المجتمع، وبسبب خوفها من ألسنة الناس التـي تهاجم المرأة التي تهمل أطفالها أكثر من مهاجمة الرجل الذي يهمل أطفاله، وبسبب حبها لأطفالها كإنسانة وأم، وبسبب عدم وجود فرص كثير للمرأة المطلقة من الزواج مـرة أخـرى (الزواج بمطلقة مثل أكل الطبيخ البايت)، وبسـبب القيـود على حريات المرأة الاجتماعية والشخصية، وبسبب انطـلاق الرجل المطلق حرا يعربد كما يشاء أو يتزوج كما يشاء دون أن يحمل هم أولاده أو بناته. كل ذلك جعل من المرأة المطلقة أكثر التصاقًا بأطفالها وأكثر رعاية لهم وأكثر مسئولية نحـو مصالحهم، بعكس الرجل، فلم نسمع إلا نادرا عن هذا الرجل الذي طلق زوجته ثم بذل الجهود لرعايـة أولاده أو بناتـه، بالإضافة إلى أن الرجل في معظم الأحيان لا يطلق زوجتـه إلا من أجل الزواج بامرأة أخرى، وكم يتخلص الرجال مـن أولادهم وبناتهم من أجل الزوجة الجديدة، وإذا لـم يسـتطع التخلص منهم فكم من عذاب يراه أولاده وبناتـه علـى يـد زوجة الأب، وكم من آباء ينحازون إلـى صـف الزوجـة الجديدة المدللة ضد مصلحة أولادهم وبناتهم.

ومع كل ذلك يأتي المشروع الجديد لقانون الأحوال الشخصية فينزع من الأم حضانتها لأطفالها في سن ٧ سنوات للصبي، و ٩ سنوات للبنت، ويفرض على البنت التي عمرها تسع سنوات أن تعيش مع أبيها بالقوة وبدون رغبتها أما الصبي فهو حر منذ سبع سنوات وله أن يختار الحياة مع أبيه أو مع أمه حسب رغبته.

ولا أدري أين العدالة هنا؟ بل لا أدري أين مصلحة الطفلة البنت هنا حين تساق إلى أبيها وزوجة أبيها بالقوة وهي تصرخ للتشبث في حضانة أمها؟!

ويقولون إن البنت في حاجة أكثر من الصبي لرعاية الرجل. لذا فإن الذين يدرسون حياة الأطفال يدركون أن الاعتداءات الجنسية على الأطفال الذكور لا تقل عن الأطفال الإناث أن لم تزد. وإن الذي يدرسون حياة الآباء والأمهات يدركون أن الأم دون الأب؟ ثم إن الذين يدرسون ظروف البنات الصغار اللائي لجان إلى تجارة الجسد يجد أن معظمهن ضحايا آباء أهملوا الإنفاق على بناتهم بسبب الزوجة الجديدة أو العشيقة الجديدة، وكلهن ضحايا أسر فقيرة مزقها الطلاق وتعدد الزوجات.

ويقول المشروع الجديد أيضا في تعديلاته المقترحـة إن مدة حضانة الأم للطفل قد تطول مدة إضافية إذا اقتضـت مصلحة الطفل ذلك، لكن المشروع نص على عدم اسـتحقاق الأم الحاضنة للأجر عن هذه المدة الإضافية. والسؤال هنـا هل الحضانة مسألة ضيافة حتى يتكاف بها المضيف أم هـي مصلحة الطفل التي اقتضت إطالة مدة حضانة الأم وإذا كان كذلك فلماذا تحرم من أجر الحضانة؟

ولا شك أن الفقر وانعدام المورد الاقتصادي يلعـب دورا خطيرا في مآسي الأمهات المطلقات الحريصات علـى صالح أطفالهن ولهذا فإن أول خطوة لتحرير المرأة من الظلم والقهر الجنسي والاقتصادي هو أن تعمل وتنال عن عملهـا أجرا من الدولة وليس من الزوج.

ولعل أعجب شيء في قانون الزواج والطـلاق فـي مصر وعدد من البلاد العربية هو ذلك الذي سمي ((بيـت الطاعة)) وتلك الصفة التي تطلق على الزوجة أحيانًا وهـي ((النشوز)).

وإن كلمة ((ناشز)) من الكلمـات الشـائعة فـي مجتمعنا، تلصق بالمرأة التي تعصي أوامر زوجها وإن كان

هذا الزوج سكيرا أو عربيدا أو قـوادا أو لصـا أو مهـرب مخدرات.

وإذا ضرب الزوج زوجته بسـبب أو بغيـر سـبب فهربت من ه إلى بيت أهلها وطلبت الطلاق فهو قـادر (إذا أراد) أن يرسل إليها (بسلطة قانون بيت الطاعـة) رجـل الشرطة ليجرها من يدها بالقوة إلى بيت زوجها فإن رفضت وامتنعت عن الذهاب أصبحت في نظر القانون ((ناشزا)).

وقد سبق كثير من الدول العربية والإسلامية مصـر في البغاء بـين الطاعـة وفـي تطـوير قـوانين الـزواج والطلاق،ولكن مصر التي هي رائدة الوطن العربي في التقدم ورائدة العالم في الحضارة لا يزال فيها حتـى اليـوم بيـت الطاعة.

وقد نشر في جريدة الأخبار الصادرة فـي يـوم ٢٥ فبراير سنة ١٩٧٤ في صفحتها الأولى موضوعا بعنوان مبدأ في الأحوال الشخصية:

للزوجة عدم الطاعة إذا كان بيت الطاعة في جبـل درنكة، وكتبت الجريدة ((إن محكمة الاسـتئناف للأحـوال الشخصية بأسيوط أصدرت مبدأ هاما قضـت بإلغـاء حكـم

الطاعة على زوجة مزارع لأن منزل الزوجية أعده الـزوج في جل درنكة الذي لا يزال مأوى للهـاربين مـن القـانون والمجرمين، وكان الجبل مأوى ((الخط)) الشـهير زعـيم العصابات في الأربعينيات.. قالت المحكمة ((لا يصلح هـذا المكان للطاعة لأنه يشترط أن يكون بيت الطاعة بين جيران تأمن فيه الزوجة على نفسها وليس لهذا البيت فـي الجبـل جيران.. صدر الحكم برئاسة عبد الوارث عبد الحليم عبد الله رئيس المحكمة)).

وإنه لواضح أنه لم يطرأ علـى بـال المحكمـة أن تناقض فكرة إجبار الزوجة على العيش مـع زوج لا تريـده ولكن كل ما تناقشه هل بيت الطاعة أو المكان الذي سـتجبر على العيش فيه له جيران أم ليس له جيران؟

والذين يقولون إن بيت الطاعـة نـابع مـن الـدين الإسلامي يغالطون لأن رسول المسلمين نفسه كثيرا ما ذكـر في أحاديثه أن المرأة لا تجبر على العيش مع زوج لا تريده أو تكرهه بل إن من حقها قبل الزواج أصلا أن تختار الـرج الذي ترغب فيه.

والمرأة أيضا في الإسلام لها أن تفصح عقد الـزواج إذا خدعت فيه أو أكرهت عليه. وليس لامرئ أن يقودها إلى من لا تريده. فلقد فصم الرسول محمد زاج خنساء بنت خدام الأنصارية، لأن أباها زوجها وهي كارهة [1].

إن قانون الزواج والطرق في مجتمعنا العربي لـيس إلا أحد بقايا قوانين الإقطاع الأبوية التـي تجعـل الزوجـة كقطعة الأرض يمتلكها الرجل ملكية تامة. يفعل بها ما يشاء، يستغلها، أو يضربها أو يبيعها في أي وقـت بـالطلاق، أو يشتري عليها زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعـة. أمـا حقـوق الزوجة فهي أن يعدل الزوج بينها وبين ضـرائرها وبـين الزوجات الأخريات. ولا أدري كيف يمكن أن يعدل الـزوج بين زوجة قديمة وبين عروس جديدة.. ومن الذي يثبت على الزوج العدالة أو عدم العدالة؟..

أما بنود القانون التي تعطى للقاضـي حـق تطليـق الزوجة من زوجها فهي صارمة جدا. يقول القانون ما يـأتي

([1]) انظر: صحيح البخـاري جـ ـ ٨. ص ٦٥ وعبـد الله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها ، وإسلامها الجزء الثاني ص ٦٠.

عن الحالات التي يسمح فيها بالطلاق [1]: ((إذا حبس الزوج ثلاث سنوات فأكثر، يصبح للزوجة الحـق فـي أن تطلـب تطليقها منه، ولا يطلقها القاضي إلا بعد أن يثبت أن الحكـم صدر بالسجن لمدة ثلاث سنوات فأكثر، وأنه أصبح. نهائيا، وأنه نفذ على الزوج، ومضت سنة فأكثر من تاريخ تنفيـذه، وتطلب الزوجة الطلاق في حالة عدم إنفاق الزوج عليهـا أو مرض الزوج بالجنون أو البرص أو ضرب الزوج لزوجتـه إلى حد الإضرار بها (معنى ذلك أن الضرب إلى حد عـدم الإضرار مسموح به) أو غياب الزوج عـن زوجتـه مـدة طويلة، وهذه الحالات كلها تترك للقاضـي ليتثبـت منهـا. وتتشدد بنود القانون في هذه الحالات بحيث يصبح الطـلاق صعبا جدا، مثال ذلك النص بأن مرض الزوج بـالجنون أو البرص أو الجذام لا يعطي الزوجة الحق في طلب الطـلاق إذا تزوجته وهي عالمة بالعيب: أو حدث العيب بعـد عقـد الزواج ورضيت به.

---

(1) انظر: أحكام الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية، عبد الوهاب خلاف، مطبعة دار الكتب المصرية (الطبعـة الثانيـة) ١٩٣٨. ص ١٦٥.

هذا هو قانون الطلاق المفروض على النساء العربيات في معظم البلاد العربية حتى اليوم. وقد يختلف القانون من بلد إلى بلد اختلافًا سطحيا أما الجوهر فإن الرجل العربي له حق الطلاق في أي وقت وبإرادته وبغير علم الزوجة أحيانًا. وفي مصر قد يرسل الزوج لزوجته ورقة الطلاق بالبريد دون سابق علمها.

وفي البلاد العربية التي حاولت تقييد حرية الرجل في الطلاق لم تضع قرار الطلاق في يد القاضي كلية كما هو الحال عند الزوجة ولم تفرض عليه الشروط المشددة مثلها. ثم ما هو القاضي؟ أليس هو رجلا من رجال المجتمع الأبوي الطبقي الإقطاعي أو الرأسمالي؟ أليس القضاء كالبوليس جهازا من أجهزة الحكم الطبقي وفرض العدالة الأحادية النظرية. عدالة من وجهة نظر الحكام فقط؟

ولست أظن أن الزوجة العربية يمكن لها أن تتساوى مع الرجل في حق الطلاق ما دام المجتمع طبقيا أبويا. إن مؤسسة الطلاق، كمؤسسة البغاء كمؤسسة الأطفال غير الشرعيين، إحدى المؤسسات اللازمة لنشوء واستمرار المجتمع الطبقي الأبوي. لقد أوجد الطلاق ليتخلص الرجل

من زوجته غير المرغوب فيها بأقل تكاليف ممكنة (ما سمي بالنفقة) أو مؤخر الصداق وبحيث يضمن حصـوله علـى أطفاله منها إذا كانت حاملا حين طلقها، ومراقبة ذلك العلـم لمدة معينة حددها العرب بثلاثة شهور وسموها العدة حتـى لا يتسرب إلى حظيرته طفل رجل آخر يقتسم مـع أطفالـه أمواله وتركته.

في كل الأنظمة الاجتماعية منذ نشوء الأسرة الأبوية والطبقات والعبودية ثم الإقطاع لم يكن حق الطلاق إلا فـي يدا لرجل. فالمجتمع الطبقي الأبوي جعل من المـرأة سـلعة تشترى بالمهر أو الصداق وتباع بمؤخر المهر والنفقة. ولقد حرر المجتمع الرأسمالي الفلاحين من عبودية الإقطاع. ليس لأسباب إنسانية تحريرية بل لأن الرأسمالية كانت في حاجـة إلى سواعد الفلاحين في الصناعات الجديـدة، وقـد حولـت سواعد الفلاحين إلى عمال أو قوة عمل. تدخل السوق أيضـا كسلعة تضمن للرأسمالي حرية شرائها بأبخس الأثمان (كما تشترى المرأة بأقل مهر) أو يطردها في أي وقـت بغيـر معاش لتبقى في السوق جائعة تعاني البطالة، كقوة احتياطيـة يمكن أن يستخدمها مرة أخرى بأبخس ثمن إذا احتاج إليها.

وقد يعيد الرجل العربي زوجته التي طلقها خلال مدة ((العدة)) بغير إرادتها، لأنها خلال تلك المدة تكون ملكًا له، فهي زوجة وليست زوجة في الوقت نفسه، حتى لا تستطيع خلال مدة ((العدة)) فإذا لم يردها إليه أصبحت في حل من الزواج برجل آخر.

وبمثل ما حرر المجتمع الرأسمالي الفلاحين من عبودية الإقطاع فقد حرر النساء أيضا من عبودية البقاء في البيت، ليس لأسباب تحريرية إنسانية بل لحاجته إلى سواعد النساء في الصناعة. وإذا كان المجتمع الرأسمالي قد أعطى المرأة حق الطلاق كالرجل في بعض البلاد الصناعية فلم يكن ذلك إلا لتصبح النساء قوة عمل متحركة معروضة أو احتياطية في السوق. وقد اقتضى ذلك إعطاء بعض الحرية للمرأة للخروج من تحت سيطرة الرجل. ونتج عن ذلك قوانين زواج وطلاق جديدة سميت ((بالزواج المدني)) ونجح المجتمع الرأسمالي المتقدم في فصل الزواج عن الدين كما نجح في فصل الدين عن الدولة ليس لأسباب تحريرية إنسانية وإنما لأسباب اقتصادية استغلالية.

وقد يفسر لنا هذا ازدياد معدلات الطلاق في الـبلاد الرأسمالية المتقدمة عن البلاد الإقطاعية المتخلفة. ويفسر لنا ازدياد الطلاق في المدن عن القرى وازدياد معدلات الطلاق بين النساء العاملات بأجرهن عن النسـاء العـاطلات فـي البيوت تحت رحمة الأزواج أو الفلاحات العاملات بغير أجر تحت سيطرة الرجل.

إن معدلات الطلاق في مصر [1] تدل على أن معدل الطلاق في محافظة القاهرة ٢,٩ لكل ألف من السكان وكذلك محافظة الإسكندرية وهما أعلى معدل للطلاق في مصر وهما أكبر مدينتين في مصر وتتركز فيهمـا الشـركات الكبـرى والصناعات والوظائف الحكومية وتعيش فيهما أكبر النسب من النساء العاملات بأجر. ويهبط معدل الطلاق بعد ذلك إلى ١,٢ في كفر الشيخ، ١,٣، وفي سوهاج ١,٤، وفي المنوفية، و ١,٩ في الدقهلية.

---

(1) المرأة المصرية في عشرين عـام (١٩٥٢ – ١٩٧٢) مركز الأبحاث والدراسات السكانية، الجهاز المركزي للتعبئـة العامـة والإحصاء.

ويكاد يكون هذا هو الحال في معظم البلاد العربيـة. ففي سوريا مثلا تزيد معدلات الطلاق بين النساء العـاملات بأجر عن النساء المعتمدات على الرجل في الإعالة. إن معدل الطلاق [1] بين النساء السوريات العاملات بأجر ٢,٢% أمـا معدل الطلاق بين النساء الأخريات فهو ٠,٦% كما أن إقبال النساء العاملات بأجر على الزواج أقل من إقبال النساء غير العاملات. في سوريا نسبة المتزوجات بين النساء العـاملات هي ٤٦,٧% فقط أما بين النساء الأخريات فإن هذه النسـبة ترتفع إلى ٧٨,٢%.

وهذا أمر طبيعي فالمرأة التـي تسـتطيع أن تطعـم نفسها بأجرها المستقل لا تستسلم للعبودية كالمرأة التي تحتاج للزواج لتأكل أو تخشى الطلاق فتفقد موردها الوحيد للطعام. وإذا تركنا موضوع الطعام وتكلمنا عن موضوع الجـنس أو حاجة المرأة لإشباع حاجتها الجنسية فإن الزواج هو الوسيلة الوحيدة أمام المرأة العربية للممارسـة الجـنس. فالعلاقـات الجنسية قبل الزواج ممنوعة تماما بالنسبة للبنت العربية فـي

---

(١) المكتب المركزي للإحصاء (دمشق) المـرأة العاملـة بلغة الأرقام، سلسلة الدراسات ٣٠، دمشق ١٩٧٠، ص ١١ – ٢٩.

أي بلد عربي حتى اليوم. كما أن العـادة السـرية ممنوعـة ومحرمة في المجتمعات الغربية. والمرأة غير المتزوجـة أو المطلقة أو الأرمل لا تسـتطيع أن تمـارس الجـنس إلا إذا تزوجت وإذا لم يتزوجها رجل فهي تظل عذراء أو عزبـاء. وقد تضحي المرأة بسمعتها لتقيم علاقة حرة بالرجل لكنهـا تصبح في نظر المجتمع العربي امرأة محتقرة أقرب ما تكون إلى المومس.

إلا أن المجتمع العربي أصبح يشـهد فـي السـنين الأخيرة قلة من النساء العاملات بأجر والمسـتقلات نفسـيا وأخلاقيا إلى حد كبير وممن يستطعن رفض الـدخول فـي مؤسسة الزواج أو الطرق الأبوية ويخترن طريقة الحياة التي ترضيهن ويفرضن على المجتمع احترامهن أيضا والاعتراف بهن. لكن الأغلبية الساحقة من النساء العربيـات مـا زلـن مدفوعات إلى الزواج من أجـل إشـباع حاجـات الجسـد الضرورية، وما زلن مذعورات من كلمة الطلاق خوفًا مـن الجوع والتشرد وألسنة الناس، يتقبلن أي معاملة سـيئة مـن الزوج دون شكوى أو تذمر. وقد تخدم الواحدة منهن ضرتها (الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة) كما يحدث حتى اليوم

في الريف المصري، بل إن الفلاحة المصـرية قـد تبحـث بنفسها لزوجها عن زوجة أخرى لترضيه أو لتخفـف علـى الأقل من قسوته عليها، أو لتجنب الزوجة الجديدة له طفـلا ذكرا إذا كانت هي قد أنجبت بنات فقط، ومـا أتعـس تلـك الزوجة العربية التي لا تنجب طفلا ذكرا خاصة في الريف. إن أقل ما يمكن أن تتعرض له هو أن يسقط على وجهها من حين إلى آخر حين كف زوجها الغليظ في صـفعات قويـة وبغير سبب، أو صوته الغاضب الخشن يرتفع لأتفه سبب في وجهها صائحا ((علي الطلاق بالثلاثة)).

وقد يبلغ الأمر بالمرأة أن تفضل الطلاق مع الجـوع والعري على الحياة مع زوجها وحينئذ تجد أبـواب الطـلاق كلها مغلقة فالقانون صارم متشدد والقاضي صارم متشدد. بل إن أسرتها نفسها صارمة متشددة وعلى الأخص في الريـف العربي. فالأسرة في معظم الأحيان لا تتكون من الأب والأم والأطفال فحسب (Nuclear family) كما هو الحال فـي المدن أو المجتمعات الصناعية المتقدمة، ولكن الأسرة كبيرة العدد (Extended family) تشمل الجد والجدة وعددا من الآباء والأمهات والأعمام والأخـوان والأخـوة والأخـوات

والأولاد. وهذه الأسر الكبيرة لا تزال تسود في الريف العربي. ولا تزال تمسك بيدها قرار زواج أو طلاق المرأة. وهي في كلا الحالين تأخذ القرار أو لا تأخذه حسب مصلحة الأسرة وليس حسب مصلحة المرأة. فالمرأة قد تطلق من زوج فقير ليزوجوها برجل أخر ثري. والمرأة قد لا تطلق أبدا وتعاد إلى زوجها بالقوة وبالضرب إذا لم يكن في مقدور الأسرة إطعامها وإعالتها هي وأطفالها إذا كان لديها أطفال.

وكم تحدث كل هذه الأعمال الوحشية تحت مظلة كثيفة من القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية وتحت وابل من الألفاظ الرنانة البليغة عن الشريعة الإسلامية وواجب المرأة من حيث الطاعة واحترام زوجها والمحافظة على كيان الأسرة والأطفال.

أما الرجل العربي فهو غير مطالب بالحفاظ على الأسرة والأطفال مع أن الأسرة والأطفال ملك له هو وليس ملكًا للمرأة. ويساعد القانون والعرف والشرع الرجال على العبث بالنساء، إن القانون والشرع قد أباح للرجل المسلم أن تكون له أربع زوجات في وقت واحد، ولكن الرجل يستطيع أن يكون له أكثر من أربع زوجات شرعيات في ظل القانون

نفسه بسبب ((العدة)) وحرية الطلاق وقدرة الـزوج علـى إعادة زوجته إليه في أي وقت قبل انتهاء ((العدة)) (ثلاثة شهور). أن الرجل قد يكون له أربع زوجات فـي البيـت، وأربع زوجات أخريات في ((العدة)) وحين يرد إليه واحدة من ((العدة)) يطلق واحدة من البيت. وعلى هذا النحو قـد يكون للرجل أي عدد من الزوجات في أي وقت عن طريـق إخراجهن من ((البيت)) وإدخالهن ((العدة)) وتطليق مـا يزيد عن الحاجة عند الضرورة. وقد اشتهرت هذه الطريقـة في المجتمع الصومالي الإسلامي بين طبقة الرجال الأثريـاء بعد أن بدأ المجتمع يلغي نظام الجواري والسـراري وممـا ملكت اليمين.

وكم من أشكال مشابهة مـن الـزواج والـلازواج الممنوحة للرجال المسلمين تحت مظلة الشريعة، مثـل مـا سمي ((بمهر شرطي)) في الصومال وغيرها مـن الـبلاد الإسلامية وهو شبيه بزواج المتعة أو الزواج المؤقت. ثم ما سمي ((بالخطبة السرية)) وهي أن يتزوج الرجل سرا حتى لا تغضب زوجته الأولى. وكم من مفارقات تحـدث حـين تلتقي الزوجتان بالصدفة في مكان واحـد أو يلتقـي طفـل

الزوجة الأولى مع طفل الزوجة الثانية في مدرسة واحدة ويكتشف الطفلان أن أباهما واحد.

ويبيح الإسلام للرجل أن يتزوج امرأة غير مسلمة، لكنه يحرم على المرأة الزواج إلا من رجل مسلم.

والزواج من الكتابيات ((اللائي يؤمن بالكتب السماوية الأخرى غير القرآن) أمر ثابت في الشريعة الإسلامية، ومارسه المسلمون منذ صدر الإسلام حتى اليوم. أما المرأة المسلمة فلا تستطيع أن تتزوج إلا رجلا مسلما، وإلا خرجت عن دينها.

وليس في المجتمع العربي ما يعرف في الغرب باسم ((الزواج المدني)). وقد استطاع المجتمع الأوروبي مع التقدم الصناعي والعلمي أن يخرج على احتكار الكنيسة للسلطة الروحية الكنسية التي كانت تستأثر بعقد الزواج بحيث إذا لم يحدث عن طريقها، ووفق مشيئتها، أي بدفع الرسوم المالية المفروضة، فإنها لا تقر الزواج ولا تعتبر عقد الزواج منعقدا.

وحين تخلصت أوروبا من سيطرة الكنيسة شرعت نظام الزواج المدني لكي يتزوج من شاء بمن شاء في مركز الأحوال المدنية بدون تقيد بإرادة الكنيسة.

ويعتبر الزواج المدني من المسائل المطروحة الآن على صعيد العالم الإسلامي والعربي وفي المجتمعات المختلفة التي تضم مسلمين وغير مسلمين. والزواج المدني ما زال ممنوعا في الإسلام، وهو لا يعني إلا شيئًا واحدا هو حرية المرأة المسلمة من الزواج برجل آخر غير مسلم. هذا الحق الذي يعطيه الإسلام للرجل ويمنعه عن المرأة.

وفي مصر عندنا نوع من الزواج يسمى بالزواج ((العرفي)) وهو نوع من الزواج الشرعي بغير عقد رسمي يتيح للرجل أن يحصل على معاش زوجته من الحكومة، إذ أن القانون المصري يحرم المرأة من معاشها حين تتزوج. وقد عرفت عددا من النساء من قريباتي وجاراتي ممن تزوجن زواجا عرفيا وكانت الواحدة منهن تعيش دائما مهددة، فهي تخشى الحكومة، وهي تخشى المجتمع، وهي تخشى زوجها، وهي في النهاية مدفوعة إلى مصيرها هذا بغير حماية من أحد.

إلا أن المرأة العربية الجديدة لم تعد في حاجة إلى حماية من أحد إلا نفسها، طالما أنها تعمل وتنال عن عملها أجرا يضمن لها الاستقلال الاقتصادي والأخلاقي أيضا. وقد أصبحت المرأة العربية العاملة بأجر في مصر والسودان وسوريا والكويت وتونس ولبنان والأردن والمغرب والجزائر واليمن بل والسعودية أيضا أصبحت قادرة أن تعيش في بعض الأحيان بمفردها بغير زوج وأن ترفض الزواج إذا أرادت وأصبحت قادرة على اختيار زوجها، أو تركه حين ترفضه، غير مبالية بنقد المجتمع لها أو هجومه عليها طالما أنها تعول نفسها بنفسها، وطالما أن لما عملا منتجا تحقق به ذاتها وكرامتها، كما أن الأفكار الاشتراكية الجديدة قد غزت المجتمعات العربية وقد غيرت الكثير من عقلية الرجال والنساء معا، وبالرغم من أنها ظلت شعارات جوفاء في أحيان كثيرة إلا أنها تركت من الصدى ومن الأثر ما شجع المرأة العربية على النضال من أجل مزيد من التحرر. وفي اليمن الجنوبية والعراق وتونس والصومال قوانين جديدة تعطي المرأة بعض حقوقها المسلوبة.

ورغم المشاكل والقيود التي لا تزال تعرقل حركـة المرأة العربية إلا أن خروج المرأة للعمل بأجر قـد أصـبح حقيقة في معظم البلاد العربية، كما أن هناك زيادة مسـتمرة في عدد البنات والنساء اللائي يعملن في مختلف المؤسسـات والمهن. وإذا كان عملهن لم يحررهن اقتصاديا كمـا يجـب وإذا كانت حياتهن ما زالت خاضعة لمنطق الرجل إلا أنه لا يمكن أن ننكر أثر حصول المرأة علـى أجـر فـي تغييـر شخصيتها السلبية الخاضعة، واستغنائها التدريجي عن إعالة الرجل لها.

ورغم تواضع هذا الأثر بسبب الضغوط التي لا تزال تحاصر المرأة العربية إلا أنه أثر يزداد وضوحا وقوة بمرور السنين وقد لاحظه بعض الرجال الذين يتابعون تطور الأسرة في المجتمع العربي. إن بعض هؤلاء قد لاحـظ أن المـرأة العربية العاملة أصبحت أقل حرصا على الزواج وأقل خوفًـا من الطلاق بسبب حصولها على أجر يضمن لها اسـتقلالها الاقتصادي عن الرجل.

في تعداد ١٩٧٦ في مصر وجد أن نسـبة الإنـاث اللائي لم يتزوجن قد ارتفعت إلى ١٩,٧%، وكانت في سـنة

١٩٦٠، ١٢,١% فقط، كما أن نسبة المتزوجات انخفضـت إلى ٦٤,٧% سنة ١٩٧٦ وكانت ٦٧,٥% سنة ١٩٦٠.

وقد أجرى في تونس إحصاء بعـد مـرور عشـر سنوات على تنفيذ التشريع الجديد الذي ساوى بين الزوجـة والزوج في حق الطلاق أمام المحكمة فاتضـح أن حـوادث الطلاق [1] زادت كما زادت نسبة الطلاق بـين الزوجـات العاملات بأجر عن الزوجات حبيسات البيوت. ويحذر كثيـر من الرجال العرب من هذه الظـاهرة، ويسـمونها ظـاهرة انحلال الزواج، التي تهدد المجتمـع العربـي كمـا هـددت المجتمع الغربي المتقدم. ((فالمجتمعات الصناعية في رأيهم تحولت من النمط القديم الذي اتصف بتفوق الرجـال علـى المرأة إلى النمط الحديث المسمى بنمط المساواة بين الرجـل والمرأة. وإن هذه المساواة من عوامل انحلال الزواج، فمـا دام الزوج في المجتمع القديم يشعر بتفـوق علـى المـرأة،

([1]) الشيخ عبد الحميد السائح، الإسـلام وتنظـيم الأسـرة، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية، ١٩٧١، جزء ١ ص ١٧٥.

وبمسؤولية أخلاقية تجعله يحميها، فإنه كان يتردد طويلا قبل حل الزواج بالطلاق)) [1].

ويعتقد بعض الرجال والمفكرين العرب أن ازديـاد حوادث الطلاق سببه استقلال المرأة العربية اقتصاديا حيـث تحررت المرأة من قبضة الرجل بحصولها على أجـر مـن عملها خارج البيت [2].

وهذا الاعتقاد صحيح فما الذي يـدفع المـرأة التـي تستطيع أن تعول نفسها بنفسها إلى الخضوع والـذل داخـل الزواج والأسرة الأبوية؟

ويحاول كثير من الرجال العرب مقاومـة التغييـر الاجتماعي والحاجة الاقتصادية التي تدفع بمزيد من النسـاء للعمل في المجالات الإنتاج والصـناعة والتجـارة والمهـن

---

(1) نقله عن جريدة الدستور الأردنية في عددها الصادر في يناير ١٩٧١/٩/٨، الشيخ عبد الحميد السائح، الإسلام وتنظيم الأسـرة، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية ١٩٧١م. الجزء ١، ص ١٧٥ – ١٧٦، المكتب الإقليمي للشرق الأوسط وشمال أفريقيـا، الجـزء الأول، ص ١٧٥.

(2) سيد محمد ظفار، المصدر السابق، ص ٢١٨.

المختلفة. لكن تيار خروج النساء أقوى، وما من قوة تستطيع أن تعيد المرأة إلى حظيرة البيت.

ومن الحقائق الواضحة أن الأسرة العربيـة الكبيـرة القديمة قد تخلت عن كثير من وظائفها لمؤسسـات الدولـة الحديثة. فالمجتمع العربي لم يعد قبائل أبوية. انتزعت الدولة كثيرا من سلطات الأب والزوج في الأسرة. وسوف تـتقلص وظائف الأسرة على الدوام وتتقلص معها سلطة الرجل فـي الأسرة.

إن الرجل العربي هو الذي كان مكلفًا بحماية أسرته وأمنها. لكن الدولة اليوم أنشأت جهاز الأمن والبوليس الـذي يتولى عن الرجل الحماية والأمن وعقاب القتلة.

ومن الصراع الذي ما زال دائرا بين الرجال والدولة هو الصراع حول الثأر الذي ما زال موجـودا فـي صـعيد مصر. إذا قتل رجل في أسرة صعيدية فلا بد أن يقتل قاتلـه أو رجل آخر مقابل له في الأسرة الأخـرى. والثـأر عنـد العرب لا شأن له بالنساء مما يدل على أنهن لسن أشخاصـا حقيقيين في الأسرة بل مجرد أشياء. المرأة قد تكون سـبب

النزاع الذي يولد الثأر فيما بعد، لكنها لا تكون أبدا ((الدم)) الذي يطالب بالتعويض أو بالثأر له.

وما زال الرجل المصري الصعيد يعتقد أن من العار أن يثار بوليس الدولة له، وأن الشرف هو أن يثـأر الرجـل دون حاجة إلى جهاز أمن الدولة.

ومن الصراع الذي مازال دائرا بين سـلطة الـزوج وسلطة الدولة هو عمل الزوجة وقد رأينا كيـف تتعـارض قوانين العمل وقوانين الزواج في هذا الشأن.

إلا أنه رغم ذلك فإن الأسرة الأبوية تتخلى شيئًا فشيئًا عن وظائفها القديمة مثل الإنتاج والتشريع والتعليم والعقـاب وتنظيم الأسرة وغيرها [1].

وتدل الظواهر في المجتمع الغربي الصناعي المتقدم على أن الأسرة مهددة بالزوال تمـام بعـد تلـك التجـارب المستمرة على الإنجاب الصناعي الـذي سـيحطم الأسـس

---

(1) صلاح قنصوه، ((احتمالات زوال مؤسسة الأسرة فـي مجتمع الدولة)) كلية الآداب، جامعة صنعاء، دراسة قـدمت للحلقـة الدراسية عن الأسرة والقرابـة بالكويـت (٢٧ – ٣٠ نـوفمبر سـنة ١٩٧٦).

الموروثة للقرابة وعلاقات الدم. وهناك كثيـر مـن أشـكال الزواج غير القانوني والعلاقات بين الرجال والنسـاء التـي تسن لنفسها قوانينها ومبادئها الجديدة.

وكل ذلك يدل على أن الأسرة الأبويـة الكبيـرة أو الصغيرة في المجتمعات النامية أو المجتمعات المتقدمة إنمـا هي مؤسسة ذات قيم ومعايير غير ثابتة [1].

وهذه حقيقة يجب أن توضح لهؤلاء الرجال العـرب الذين يتصورون أن الأسرة مقدسة وثابتة منـذ الأزل وإلـى الأبد، وأن أي مس بها إنما هو مساس بالمقدسات والدين.

ويلعب الدين دورا كبيرا في حماية الأسرة في البلاد العربية إلا أن الدين لم يستطع أن يمنع الدولة من أن تنـزع من الرجل كثيرا من سلطاته داخل الأسرة.

وقد انفصل الدين عـن الدولـة فـي المجتمعـات الصناعية الغربية المتقدمة وتراجعت سلطة الكنيسـة أمـام الزحف الرأسمالي والتكنولوجي الـذي أطـاح بكثيـر مـن المقدسات المسيحية والإقطاعية.

---

(1) المصدر السابق.

إلا أن الدين لم ينفصل عن الدولة في معظم البلاد العربية الإسلامية وهذا من الأسباب التي تبعد كثيرين من المفكرين العرب عن النقد العلمي أو التحليل الموضوعي للأسرة وما يطرأ عليها من تغيرات واضحة.

فالتفكير الحر في الدين أمر لا يزال محظورا في معظم البلاد العربية وكذلك التفكير الحر في نظام الحكم والسياسة.

وتتصف معظم الحركات الإصلاحية للمجتمع العربي والإسلامي بأنها لا تغير جوهر المسائل وإنما السطح فحسب.

ولا يمكن أن ننكر أن تطورا في كثير من المفاهيم التي شاعت عن الإسلام يحث على نحنو مستمر في المجتمع العربي والإسلامي بسبب حركات التجديد والاجتهاد المستنير على يد الرواد من أمثال سيد أحمد خان ١٨١٧ – ١٨٩٨ في الهند والباكستان والحاج سالم (١٨٨٩ – ١٩٥٥ م) في أندونسيا. والشيخ محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥) وطه حسين (١٨٩١ – ١٩٧٣) وقاسم أمين في العالم العربي. ونامق كمال (١٨٤٠ – ١٨٨٨) وتوفيق فكرت (١٨٧٠ – ١٩١٥) في تركيا وحسين علي رشيد في إيران، وعلى يد

الزعماء السياسيين المفكرين من الرجال المسلمين أمثال إقبال (١٨٧٦ – ١٩٣٨) وجمال الـدين الأفغـاني (١٨٤٧ – ١٨٩٧).

وفي رأيي أن (طه حسين) في مصر كان أكثـرهم عمقًا وتحررا في فكره لكنه اتهم من رجال الـدين بالإلحـاد فتراجع بعض الشيء وحاول أن يغير أفكاره.

إن سلاح ((الإلحاد)) سلاح قـوي يسـتخدم عنـد اللزوم لإرهاب أي مفكر حر عميق.

وتمسك بهذا السلاح أيد متعددة. أهمها أيدي الـذين ينهبون ثروات الشعوب العربية في الـداخل أو فـي العـالم الغربي.

إلا أن الفكر الغربي أصبح أكثر شجاعة في عـرض ونقد المشاكل والمظالم التي تعيشها الأغلبية السـاحقة مـن النساء والرجال. وأصبحت المرأة العربية أكثر شجاعة فـي مواجهة المجتمع. إن المرأة العربية تدرك أن تحررهـا لـن يعني إلا أن تفقد سلاسلها.

إن الحرية لها ثمن، تدفعه المـرأة المتحـررة مـن صحتها وراحتها ونظرة المجتمع المعادية لها. لكـن المـرأة

أيضا تدفع ثمن العبودية والخضوع من صحتها وشخصـيتها ومستقبلها،والأفضل للمرأة أن تدفع الثمن وتكون حرة علـى أن تدفع الثمن وتظل عبدة.

وفي رأيي أن الثمن الذي تدفعه المرأة في العبوديـة (رغم الرضا والأمن الاجتماعي) أشد من الثمن الذي تدفعه في التحرر (رغم التهديد وعداء المجتمـع) ولا شـك أن استردادها لنفسها وشخصيتها وإنسانيتها الكاملة أهم من رضا المجتمع الرجولي عنها.

إن تفوق المرأة التفكر في عمـل خـلاق بـالمجتمع الكبير أهم كثيرا من تفوقها فـي الطـبخ والغسـل وخدمـة الأسرة.

لا بد أن يزيد طموح المرأة العربية لتنشد النبوغ في المجال الفكري الذي تختاره.

رغم كل ذلك فإن المرأة العربية تسير نحو التحـرر بخطي قد تكون بطيئة، لكنها تسير، وهذه حقيقـة هامـة لا يمكن إغفالها.

إن من يسير اليوم في شوارع القاهرة أو دمشـق أو بغداد أو تونس أو الجزائر أو الرباط أو الكويت يـرى هـذه

الأعداد المتزايدة من البنات والنساء العاملات في المجـالات التي كانت مقصورة من قبل على الرجال.

إنهن يسرن بأقدام قد لا تكون ثابتة تماما، وقد تكون مترددة بن الاستمرار في العمل أو التفرغ للزواج والبيـت، وقد تضحي الكثيرات منهن بمستقبلهن الفكري فـي مقابـل زوج وبيت زوجية. لكن بعضهن رغم قلتهن أصبحن قادرات على التضحية بالزوج من أجل المستقبل الفكري والعلمي.

إن المرأة العربية مطالبة من أجل أن تتحرر أن تتخذ مواقف شجاعة في حياتها الخاصة والعامة.

عليها أن تجعل من نفسها إنسانة لها عقل يفكر وينتج ويخلق قبل أن يكون لها مهبل ورحم.

عليها أن تدرك أن وظيفتها الأساسية في الحياة هـي الإنتاج الفكري في أي مجال تختاره.

عليها أن تحارب المنطق الـذي يقـول إن الرجـل للإنتاج والمرأة للاستهلاك فالذي ينتج أكثر إنسانية وشـرفًا وقيمة من الذي تستهلك.

وعليها أن تحارب المنطق الذي يقـول إن الرجـل للعمل خارج البيت والمرأة للعمل داخل البيت.

وعليها أن تحارب المنطق الذي يقول إن الرجل لـه رغبة جنسية أشد من رغبتها أو أنه الإيجابي وهي السلبية.

وعليها أن تحارب المنطق الذي يقـول إن السـبب الأساسي لقهرها وتخلفها هو الإسلام أو الثقافة الشرقية، لأن الثقافة الغربية والمسيحية والأديان الذكورية الأخرى ليسـت أقل قهرا للمرأة بل أكثر قهرا من الإسلام.

ومن المهم للمرأة العربية أن تـدرس التـاريخ، وأن تدرس المجتمع الأمومي قبل المسيحية وقبل اليهودية لتعرف كيف كانت المرأة بحرية في الإنتاج والعمل وكيف أبعد عن عالم الإنتاج وعالم الرجال والحياة الاجتماعية.

من المهم للمرأة العربية أن تدرس التشابه والخلاف بين الأديان لتعرف أن الاختلافات بين الأديان ليست جوهرية فيما يخص المرأة. بل إن هذه الاختلافات موجود في الـدين الواحد في البلاد المختلفة. فالإسلام في الهند يختلـف عـن الإسلام في الباكستان ويختلف عن الإسلام فـي تـونس أو مراكش أو السعودية. إن كل مجتمع يفسـر الـدين حسـب أحواله الاقتصادية وحسب تطور نظام الحكم.

ومن المهم للمرأة العربية أن تعرف أن فقدان المرأة لحقوقها وإخضاعها ليس له أسباب دينية تتعلق بالإسـلام أو المسيحية أو أي دين آخر. لكن فقدان المرأة لحقوقهـا جـاء لأسباب اقتصادية ارتبطت بتحول النظام الأمومي إلى نظـام أبوي طبقي.

ومن المهم للمرأة العربية أن تدرس الأديان القديمـة في مصر والهند واليونان. وتحاول أن تفهم كيف ارتبطـت فكرة الإله بالمرأة أكثر من الرجل. وإن الآلهة الأنثى كانـت ترمز إلى المعرفة والعقل بمثل ما رمزت إلى الخير والوفرة والإنتاج.

من المهم للمرأة العربية أن تعيد دراسة قصة حـواء وآدم لتدرك أن حواء ارتبطت بالمعرفة، وهي التي أكلت من الشجرة المعرفة (حسبت نص التوراة) واكتسبت المعرفـة قبل آدم، وإن إزيس الإلهة المصرية القديمـة كانـت إلهـة المعرفة والخلق، وهي التي خلقـت أوزوريـس، وأنهـا أو ((أثينا)) لم تولد من رأس ((زيوس)).

من المهم للمراة العربية أن تدرس لماذا فسرت مثل هذه الأساطير التاريخية تفسيرا عكسيا بحيث صورت المرأة

ناقصة المعرفة وناقصة العقل وزوجها هو عقلهـا. ولمـاذا اختفت حقائق كثيرة في تاريخ البشرية، ولماذا اختفت الآلهة الأنثى من الحضارة التي تعيشها حتى اليوم؟

ومن المهم للمرأة العربية ألا تشعر بـالنقص أمـام النساء الغربيات. أو تظن أن التراث أو الثقافـة الشـرقية أو الثقافة العربية أكثر اضطهادا للمرأة من الثقافة الغربية.

إن تراثنا فيه الكثير من الإيجابيـات وفيـه أيضـا السلبيات. وعلى المرأة العربية أن تدرس التراث. وفي تاريخ العرب وفي بدء الإسلام كثير من الأفكـار المتقدمـة فـي نظرتها للمرأة، وهناك أيضا كثير من الأفكار المعادية للمرأة والتي يجب نقدها وكشفها بموضوعية وعلمية دون خوف من مس المقدسات.

إن أول المقدسات في حياتنا هو الإنسان، والإنسـان امرأة أو رجل. وأول المقدسات هو أن تكون المرأة إنسـانة أولا. أن تكون إنسانة كاملة العقل والجسد.

وأول اعتداء على المقدسات هـو الاعتـداء علـى المرأة، وذلك باستئصال عقلها وادعاء أنها بغيـر عقـل أو ناقصة العقل. واستئصال بعض أجزاء مـن جسـمها مثـل

استئصال العضو الجنسي من جسمها في عادات الختان الشائعة في بعض مجتمعاتنا. هذا هو الاعتداء الأول على المقدسات وهو الاعتداء على الإنسان المرأة وتحويلها إلى أداة ولادة أو جنس أو أداة خدمة أو أداة استهلاك.

ومن المهم أن تدرس المرأة العربية السياسة والاقتصاد بالإضافة إلى التاريخ، وتتابع حركات التحرير في البلاد العربية وغير العربية، لتدرك أن حروب التحرير الشعبية تسرع بتحرير المرأة. لأن حرب التحرير في الجزائر كشفت عن كثير من مشاكل المرأة الجزائرية وأسرعت بوضع بعض الحلول لها من أجل تحرير النساء في الجزائر. وحرب التحرير الفلسطينية تجعل المرأة الفلسطينية تمارس كل الأعمال خارج البيت بما فيها أعمال الحرب والقتال.

وعلى المرأة العربية أن تدرك أن قضية تحرير النساء العربيات ليست قضية إسلامية وليست قضية حرية جنسية، وليست عداء للرجل، وليست ضد التقاليد الشرقية، ولكنها قضية سياسية واقتصادية أساسا، وهي ضد الأنظمة الاستعمارية داخل المنظمة العربية وفي العالم الخارجي. وهي ضد جميع أنواع القيود والاستغلال الاقتصادي والجنسي والاجتماعي والثقافي والأخلاقي.

الاعتداء على الطفلة البنت

جميع الأطفال حين يولدون أصحاء يشعرون أنهم قد ولدوا ((كاملين)) فيما عدا الطفلة البنت. إنها منذ تولد وقبل أن تنطق تدرك من النظرات حولها أنهـا ولـدت ((غيـر كاملة)) أو ((ناقصة)). ويظل السؤال في ذهنها دائرا منذ ولادتها حتى موتها... لماذا؟ لماذا يفضـلون عليهـا أخاهـا الصبي مع أنها مثله، وقد تشعر أنها أكفأ منه في نواح كثيرة أو قليلة.

إن أول اعتداء على الطفلة البنت في مجتمعنا العربي هو عدم الترحيب بقدومها إلى الحياة، وفي بعـض الأسـر وعلى الأخص في الريف قد يصـل عـدم الترحيـب إلـى الاكتئاب أو الحزن أو عقاب الأم بالطلاق أو الغضـب بـل الضرب. لقد رأيت إحدى عماتي تضرب بكف زوجها لأنها أنجبت البنت الثالثة ولم تنجب ذكرا، وسمعت زوجها يهددها بالطلاق لو أنجبت المرة القادمة بنتًا أخـرى. ومـن شـدة كراهية الأب للطفلة المولودة فقد كان يسب الأم إذا ما أبـدت اهتماما بها أو حتى أرضعتها حتى تشبع.

وقد ماتت هذه الطفلة قبل أن تبلغ الأربعين يوما من عمرها. ولا أدري هل ماتت من الإهمال أم أن الأم كتمت أنفاسها لتستريح وتريح كما يقولون.

ولا تزال نسبة وفيات الأطفال الرضع عالية في الريف وفي معظم البلاد العربية بسبب انخفاض المستوى الاقتصادي والثقافي، وتزيد هذه النسبة بين الأطفال البنات عن الذكور في بعض الأحيان بسبب الإهمال. إلا أن هذه الظاهرة تختفي باطراد باستمرار التقدم اقتصاديا وثقافيا [1].

وقد تحظى الطفلة البنت في الأسر المتعلمة في المدن العربية باستقبال أقل كآبة وأكثر إنسانية إلا أنها منذ أن تبدأ تحبو أو تمشي تتربى على الحذر والخوف.

وتواجه الطفلة البنت تناقض المجتمع. ففي الوقت الذي تحذر فيه من أعضائها الجنسية ومن الجنس ومن كل ما يتعلق بالرجال، تربى منذ نعومة أظفارها على أن تكون

---

(1) من تقرير وزارة الصحة المصرية ١٩٧١، وفيات الأطفال الرضع كانت في عام ١٩٥٢: ١٢٧ في الألف من المواليد وقد انخفضت هذه النسبة فأصبحت في عام ١٩٦٩: ١١٨,٥ في الألف من المواليد.

أنثى، أو أداة جنس تعرف كيف تكون جسدا فقط وكيف تزين هذا الجسد وتكسوه أو ترعاه ليجذب الرجل.

والتربية التي تتلقاها البنت في مجتمعنا العربي هـي سلسلة من الممنوعات والعيب والحـرام. وتكبـت الطفلـة رغباتها وتفرغ نفسها من نفسها وتملؤها برغبات الغيـر. إن تربية البنت في حقيقتها ليست إلا غلافها الجسدي الخارجي.

إن هذه البنت الفاقدة لشخصيتها وقدراتها على التفكير بعقلها هي وليس بعقل الآخرين تصبح ألعوبة في يد الآخرين وتصبح ضحية في معظم الأحيان لهؤلاء الآخرين.

ومن هم الآخرون؟ إنهم رجـال أسـرتها أو غيـر أسرتها ممن تسوقهم الظروف إلى الاحتكاك بهـا لسـبب أو لآخر. وهؤلاء الذكور أيضا على اخـتلاف أعمـارهم مـن الطفولة إلى الكهولة ليسوا إلا ضحايا مجتمع يفصـل بـين الجنسين وينظر إلى الجـنس كـإثم وعـار ويحـرم علـى المراهقين والشباب (الذين لم تؤهلهم ظروفهم الاقتصـادية بعد) أن يمارسوا الجنس إلا من خـلال الأحـلام الجنسـية الليلية.

وهذا هو ما يكتب للمراهقين في المدارس الثانوية [1] (وفي العرف والتقاليد) حيث يحرم علـى الشـاب الـذكر ممارسة العادة السرية لأنها خطـرة، وخطورتهـا تسـاوي خطورة ممارسة الجنس مع المومسات [2]، وليس على الشاب إلا أن ينتظر حتى يمتلئ جيبه ببعض المال الذي يتـيح لـه الزواج.

وحيث إن امتلاء جيب الشاب بالمال القليل أو الكثير (حسب طبقة الشاب) أمر يستغرق بعض السنين من التعليم والعمل وخاصة في المدن حيث أصبح الزواج يتأخر بسـبب المدنية، وبسبب ارتفاع الأسعار وأزمة المساكن وتزايد عدد الشباب العاجزين عن الزواج لأسباب اقتصادية. ونتج عـن ذلك ازدياد المسافة بين نضوج الشـاب بيولوجيـا وحاجتـه الشديدة إلى الجنس ونضـوجه الاقتصـادي وقدرتـه علـى الزواج. هذه المسافة في المتوسط لا تقل عن عشر سـنوات

---

(1) وزارة التعليم المصرية ، كتاب علـم الـنفس المقـرر لتلاميذ السنة الثالثة الثانوية القسم الأدبـي، تـأليف د. عبـد العزيـز القوصي د. سيد غنيم، القاهرة ١٩٧٦.

(2) المصدر السابق، الفصل ١١، ص ١٢٣ – ١٧٤.

(من ١٥ – ٢٥ سنة) فكيف يصرف الشاب طاقته الجنسية الطبيعية خلال هذه السنوات في مجتمع يحرم العادة السـرية (لأخطار صحية) ويحرم المومسات (لأخطـار صـحية واقتصادية وخاصة بعد أن ارتفع سعر المومسات مع ارتفاع الأسعار وزادت الأمراض التناسلية في بعض البلاد العربيـة بعد خروج البغاء من تحت إشراف الدولة).

إن الشباب من هؤلاء في معظم الأحيان قد لا يجـد أمامه إلا أخته الطفلة البنت التي ترقد إلى جواره في سـرير واحد (في الأسر المتوسطة والأسر الفقيرة) فتمتد يده إليها وهي نائمة أو هي يقظة، كلاهما سيان، لأنها حتى وهي يقظة لا تستطيع أن تعترض على أخيها الأكبر، خوفًا من سـطوته المكفولة له شرعا وقانونًا وعرفًا، أو خوفًا مـن الأسـرة أو إحساسا بالذنب لأنها تشعر أيضا ببعض اللذة، أو لأنها مجرد طفلة صغيرة لا تدري مما يحدث لها شيئًا.

وتتعرض معظم البنات الأطفال لحوادث مشـابهة أو مختلفة حسب ظروف كل طفلة، وقد يكون هذا الشـاب الأخ أو ابن العم أو العم أو الخال أو الجد أو الأب، وقـد يكـون

الخادم أو البواب أو المدرس أو ابن الجيران، أو أي رجـل آخر.

وقد تتم هذه الحوادث بغيـر عنـف أو اغتصـاب للبنت. وقد تكون البنت قد بلغت من العمر أو الـوعي مـا يجعلها تقاوم أو تعترض فيتم الاغتصـاب بـالقوةأو بالرقـة والخداع وفي معظم الأحيان تستسلم البنت وتخشى الشـكوى لأحد، لأن العقاب في مثل هذه الحالات لا يقع إلا عليها، فهي التي تفقد شرفها وعذريتها أما الرجل فلا يفقد شيئًا وأقصـى عقاب يمكن أن يناله الرجل (إذا كان غريبا عن الأسـرة) هو أن يتزوج هذه البنت التي اعتدى عليها.

وإن انكشاف مثل هذه الحوادث نادر بالنسـبة لعـدد الحوادث التي تقع، وسبب ذلك أن البنت تكـتم الأمـر مـن الخوف والخزي. أما في الحالات التي تصرخ فيها البنت أو ينكشف الرجل صدفة أثناء الاعتداء فإن كثيرا مـن الأسـر العربية يرفضون إعلان هذا الأمر والذهاب في قضية إلـى المحكمة حرصا على سمعة الأسرة وشرفها المهدر أن يعلن على الملأ، بل إن القضية حين تذهب إلـى المحكمـة فـإن المحكمة ذاتها كثيرا ما تحفظ القضية حفاظًا على سمعة البنت

الصغيرة وأسرتها وبذلك ينجو الرجل من العقاب، هذا العقاب الذي يلغي على الفور إذا أبدى الرجل استعداده للزواج مـن تلك البنت.

وقد سبقت تونس البلاد العربية (كما سـبقتها فـي قوانين الزواج والطلاق والإجهـاض) وطـورت قانونهـا الخاص بالاغتصاب، إلا أن القضية تسقط ويطلـق سـراح الرجل إذا قرر الزواج من الضحية [1].

وفي بحث لي سنة ١٩٧٣ في كلية الطب عين شمس بالقاهرة على ١٦٠ من البنات والنسـاء المصـريات مـن مختلف الأسر المتعلمة وغير المتعلمة وجدت أن نسبة مثـل هذه الحوادث الجنسية التي تقع بين الرجال الكبار والبنـات الصغار هي ٤٥% في حالة الأسر غيـر المتعلمـة، وتقـل النسبة في حالة الأسر المتعلمة إلى ٣٣,٧% وهـذه النسـبة

---

(1) القانون التونسي رقم ٢١، ١٩٦٩، ٢٧ مارس المعـدل للمادة ٢٢٧ (صحيفة العقوبات رقـم ١٢، ٢٥- ٢٨ مـارس ١٩٦٩، ص ٣٦٩) تنص على أن الرجل الذي يمارس الجنس بغير عنف مـع فتاة أقل من ١٥ سنة يحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما وتقـل هذه المدة إلى ٥ سنوات إذا كان عمر الرجل من ١٥ – ٢٠ عاما لكن إذا قرر الرجل الزواج من الضحية حفظت القضية وأطلق سراحه.

الأخيرة تزيد عن النسبة التي حصل عليها كينـزي Kinsey في بحثه (١٩٥٣) إذ إنه وجد أن هذه النسبة ٢٤%.

ولا يمكن لي أن أوازن هذه النسبة فـي مجتمعـات وظروف شديدة الاختلاف كالمجتمع المصـري والمجتمـع الأميركي، كما أن هناك فارقًا زمنيـا بـين البحثـين قـدره عشرون عاما، كما أن ظروف كل بحث وطرقته تختلف عن الأخرى.

ولا أسوق مثل هذه النسب إلا لأقول لهـؤلاء الـذي يضعون رؤوسهم في الرمال ويدعون أن مثل هذه الحـوادث لا تقع، وإنها إذا وقعت فهي نادرة جدا، أقول لهـم إن هـذه الحوادث تقع في كل المجتمعات، وإنها تقـع فـي مجتمعنـا العربي، وإن نسبة وقوعها غير قليلة، كما أن الذي يصل إلى علمنا من هذه الحوادث ليس ألا أقل القليل مما يحـدث فـي الخفاء.

وبحكم خبرتي كامرأة وطبيبة تفـتح قلبهـا وعقلهـا لمشاكل الناس أقول بغير مبالغة إن كثيرا من البنـات فـي مجتمعنا يتعرضن في طفولتهن المبكرة لأشكال متنوعة مـن الاعتداءات الجنسية (ابتداء مـن المـداعبات باليـد إلـى

الاغتصاب الجنسي الكامل) وقد تفقد البنت الطفولة عذريتها وهي لا تدري وتنسى الحادث تماما بسبب الظـاهرة التـي سميت في علـم الـنفس ((فقـدان ذكريـات الطفولـة)) lnfantiile anrnesia أو تظل تذكرة كالحلم المزعج، يعذبها ويفتك بصحتها النفسية طوال حياتها، هـذا إذا نجـت مـن العقاب الذي يتربص بها حين تكبر ويكتشف الأهل أو الزوج ليلة الزفاف أنها ليست عذراء.

وكم من طرق معروفة في المجتمعات العربية ريفًـا وحضرا لتزييف دم العذرية، أو إصـلاح غشـاء البكـارة بجراحة عند أحد الأطباء.

لكن ما أتعس البنت الصغيرة الفقيرة التي لا تعـرف طريق الطبيب وإذا عرفته فيه لا تملك ما تدفع.

وغالبا ما تكون هذه البنت الفقيرة مـن تلـك الفئـة الكبيرة العدد في مجتمعنا العربي التي تسمى بفئة ((خادمات المنازل)) [1] وهي غالبا فتاة ريفية فقيرة جاءت من القريـة

([1]) تمثل هذه الفئة الأغلبية من النساء العاملات تحـت بنـد الخدمات ٨٩,٣ بالمائة من العاملات المشتغلات في الخـدمات يقمـن بالعمل بالخدمة المنزلية كخادمات (المرأة المصرية في عشرين عامـا

إلى المدينة لتخدم في أحد بيوت الطبقة المتوسطة أو تحـت المتوسطة أو فوق المتوسطة أو العالية.

وتصبح هذه البنت الصغيرة المتنفس الجنسي الوحيد لمعظم شباب بل أحيانًا أرباب هـذه الأسـرة. إن الشـباب المراهقين يرون أنها أفضل من الأخت أو القريبة أو الزميلة (من حيث الإحساس بالذنب أو الاحترام الطبقي) ويـرون أنها أفضل من المومس (من حيث إنهم لا يدفعون لها شـيئًا ولا تهددهم بالمرض التناسلي).

أما رب الأسرة أو الزوج المحترم فهو أيضـا قـد يتسلل إليها في الليل، حين تسافر زوجته، أو تمرض (أو في فترات الدورة الشهرية أو الحمل أو الولادة) بل أن الزوجة قد لا تكون غائبة، باردة جنسيا، ومعظم الزوجات بـاردات جنسيا بسبب التربية القائمة على الكبت النفسي والعضـوي، وبسبب غياب الحب بين الزوجين أو على الأقل التجاوب أو حسن الأسرة أبوية وسلطة الرجل المستبدة تحرم الـزوجين معا من أي فرص للشعور بالتجاوب العاطفي أو الجنسي.

١٩٥٢ – ١٩٧٢)، مركز الأبحاث والدراسات السـكانية ، الجهـاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء.

وتصبح هذه البنت الصغيرة المتنفس الجنسي الوحيد لمثل هؤلاء الشباب والأزواج والكهول المحـرومين جنسـيا بشكل أو بأخر. وفي عيادتي الطبية سواء في بيتـي أو فـي الجيزة وفي المستشفيات العامة التي عملـت بهـا سـنوات متعددة، كثيرا ما صادفني تلك الخادمة الصغيرة التي لا تزيد عن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة وقد ارتفع بطنها فـي حمل سفاح.

وتصبح هذه البنت الصغيرة في نظر المجتمع فتـاة حاملا بغير زواج، أي فتاة ساقطة عديمة الشرف. وتواجـه هذه الفتاة وحدها المجتمع كله، وقد تنهي حياتها بيدها أو يـد أبيها أو أحد رجال الأسرة، وقد تموت وهي تجهض نفسـها بإحدى الطرق الريفية الخطرة (عود ملوخيـة تدخلـه فـي رحمها) وإذا لم تمت فهي تحاكم لأن الإجهـاض ممنـوع بالقانون وإذا نجت من القانون فإنها تعيش حياة ذليلة ويعيش طفلها معها حياة أذل.

أما سيدها البيه أو الشيخ أو الأستاذ المحترم فيظل يعيش في المجتمع الواسع العريض يستمتع بحياتـه ونجاحـه وشـرفه المصون في ظل حماية القانون والشرع والدين والعرف.

العدالة ليست عادلة

إن انكشاف مثل هذه الحوادث نادر جدا بالنسبة لعدد الحوادث التي تقع وسبب ذلك أن البنت تكتم الأمر من شـدة الخوف معا ثم في الحالات التي تصرح فيها البنت أو ينكشف الرجل صدفة أثناء الاعتداء فإن معظم الأسر ترفض إعـلان الأمر والذهاب إلى المحكمة حرصا علـى سـمعة الأسـرة وشرفها.

إن شرف الأسرة كلها برجالها ونسائها وأطفالها قـد يهدر لمجرد أن إحدى البنات فقدت غشاء بكارتها. وقد تكون هذه البنت قد اغتصبت ومع ذلك فإن شـرف الأسـرة كلـه يمس. لذلك تتكتم معظم الأسر على حوادث الاغتصاب التي تقع لبناتها ولا تقدم الرجل المعتدى للمحاكمة حرصـا علـى سمعة الأسرة وبذلك ينجو الرجل المعتدي. لكن البنت التـي اعتدى عليها تصبح فتاة غير عذراء. أي فتاة بغيـر غشـاء بكارة، وأي فتاة تفقد غشاءها لأي سبب في أي ظـرف وإن كان هو الاغتصاب، وفي أي سن وأن كانت هـو الطفولـة المبكرة فقد حكم عليها إلى الأبد بفقدان شرفها، لأن شـرفها

هو غشاؤها، والغشاء الذي ضاع لا يمكـن أن يعـود مـرة أخرى أبدا.

وأظن أنه لا يخفى على أحد ما تتعرض له أطفالـه البنات أحيانًا من حوادث اعتداء وقد لا تكون البنت قد بلغت السابعة أو السادسة من العمر وتفاجأ بذلك الشاب أو الرجـل الذي يعتدي عليها وقد يكون هذا الرجل خادما أو بوابا، وقد يكون أحد أفراد أسرتها، وقد يكون الأخ أو العم أو الأب.

ومما يزيد المأساة أن الرجل المعتدي لا يحاول إنقاذ الفتاة إذا تعرضت للعقاب، بل إنه أحيانًا مـا يشـترك فـي العقاب أو يوقعه هو بنفسه على البنت الصغيرة مـن أجـل حماية شرفه وشرف أسرته.

وكم سمعنا أو قرأنا عن مثل هذه المآسي التي تحدث للبنات الصغيرات، أذكر منها تلك الحادثة التي قرأناها عـن العم الذي أحب ابنة شقيقه واتصل بها ثم قتلهـا بالسـم لأن أخاها عرف الأمر وأرغمه على قتلها منعا للفضيحة والعـار

الذي يلوث شرف الأسرة لو أن هذه البنت عاشت وهي غير عذراء [1].

ويدعي هؤلاء الرجال الذين يعارضون تغيير القوانين والتقاليد الجائرة التي تحكم حياة البنات والنساء أنهم يحافظون على القيم الأخلاقية والشرف والدين. هذا في الوقـت الـذي يرون هذه القيم تنتهك كل يوم وليلة في حياتنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الجنسية، ومع ذلك لا يرتفع صوت أحدهم بالاعتراض، بل إن منهم من يشارك بإيجابيـة فـي انتهاك هذه القيم سرا أو علنًا.

ولعل من السمات التي تميز مجتمعنا العربي هي تلك الازدواجية في القيم، وازدواجيـة الحيـاة، بحيـث يصـبح المجتمع أو للفرد حياتان، حياة علنية يدعي فيهـا الأخـلاق والفضيلة والدين، وحياة سرية ينتهك فيها الأخلاق والفضيلة والدين.

وقد سبق لي في كتاباتي السابقة أن كشفت عن بعض التناقضات الصارخة في حياة مجتمعنا وفي حياة الأفراد من

(1) انظر: الأخبار، ١٠ مايو سـنة ١٩٧٢ الصـادرة فـي القاهرة صباحا.

الرجال والنساء. لكن الأغلبية الساحقة من القراء في مصـر والبلاد العربية يعلمون أن ما أكتبه وما أعرضـه لـيس إلا القليل من الأمراض الكثيرة المتفشية عندنا والتـي لا يمكـن علاجها إلا بمزيد مـن الشـجاعة والصـدق فـي كشـفها وتشخيصها ومعرفة أسبابها الحقيقية.

وهناك بعض الناس الذي يخفـون رؤوسـهم فـي الرمال، ويدعون أن مجتمعنا ليس فيه تناقضـات، وأن كـل القيم الأخلاقية والقانونية والتقاليد ولله الحمد كلها علـى مـا يرام، وكله تمام، وليس هناك أبدع مما كان.

وإلى هؤلاء أسوق هذه الحادثة التي نشرتها جريـد أخبار اليوم صباح السبت ٢٣ فبرايـر سـنة ١٩٧٤ تحـت عنوان: النيابة تأسف لحفظ التحقيق مع المدرس حرصا على مستقبل ٩ تلميذات صغيرات. وكتبت الجريدة بالحرف الواحد تقول: ((تلميذات صغيرات تتراوح أعمارهن بين السـابعة وبين الثانية عشرة... وقفن أمام أمين إسماعيل مهران مدير نيابة شبرا الخيمة تروى كل منهن في براءة... واقعة بشعة: أن مدرس الرسم كان يصحبهن إلى فناء المدرسـة... وفـي مكان منفرد منزو.., ينفرد بكـل واحـدة تحـت الشـجرة

ويحتضنها ويقبلها.. ويأتي معها أفعالا منافية للآداب!.. وقد أمسك مدير النيابة بأوراق التحقيق وقـرر حفـظ التحقيـق بالنسبة للمدرس وقال في قرار الحفظ: إنه وإن كانت التهمـة ثابتة على المتهم بشهادة المجني عليهن التلميذات الصغيرات والتي تطمئن إليها النيابة، الأمر الذي يسـتوجب محاكمتـه جنائيا بتهمة (هتك عرض!) بنات صغيرات والمعاقب عليها قانونًا إلا أنه نظرا لصغر سن التلميذات المجني عليهن ولعدم إقحامهن أمام محكمة الجنايات للإدلاء بشـهادتهن وأقـوالهن فإن النيابة حرصا منها علـى عـدم تعـرض الصـغيرات وتجنبهن ترديد هذه القصص التي جـرت علـى أفـواههن وانطبعت في نفوسهن البريئة الصافية بأثر سـيئ لا تحمـد عقباه.. وأمامهن مستقبل مشرق نظيف ينتظرهن! وتأسـف النيابة وهي تحفظ الدعوى الجنائية للمتهم ولسلوكه الشـائن إزاء تلميذاته الصغيرات وما يجب أن يتصف به المخـتص في تربية النشء والذي أجمعت الأديـان السـماوية والقـيم والأخلاق الإنسانية على أنه كاد المعلم أن يكـون رسـولا. وتطلب النيابة من المنطقة التعليمية التي تخضـع المدرسـة

تحت إشرافها العمل فورا على نقله من مهنة التـدريس فـي مدراس البنات إلى مهنة أخرى [1].

ولا بد أن كل من قرأ هذا الموضوع وفكر فيه بينـه وبين نفسه لحظة واحدة يدرك على الفور ذلك التناقض الذي يحكم بعض القيم الأخلاقية في مجتمعنا. فكيف تثبت مثل هذه التهمة كما تقول النيابة على رجل بالغ ناضج مع أطفال بنات ثم يطلق سراحه، وتبرر النيابة ذلك بسبب حرصها على عدم ترديد هذه القصص التي جرت على أفواه البنات الصغيرات وانطبعت في نفوسهن البريئة بأثر سيئ لا تحمد عقباه.. ومع ذلك فما زال أمامهن مستقبل مشرق نظيف ينتظـرهن! ولا أدري كيف يكون هذا المستقبل في ظـل الظـروف والقـيم الاجتماعية والأخلاقية التي تحكم حياة الأنثى في مجتمعنا!

ولا شك أن هذه الواقعة تدل بوضـوح علـى ذلـك التناقض الشديد الذي يعيش فيه مجتمعنا، وتلك الازدواجيـة في القيم الأخلاقية التي تحكم الرجال والنساء التـي تـروح ضحيتها حياة ومستقبل عدد غير قليل من البنات والنساء منذ

---

(1) انظر: جريدة أخبار اليوم صـباح السـبت ٢٣ فبرايـر ١٩٧٤، الصفحة العاشرة.

الطفولة حتى المراهقة حتى الشباب حتى نهاية العمر. وقـد يتصور بعض الناس أن مثل هذه الحوادث قليلة ولكن بحكمة مهنتي كطبيبة وبحكم الدراسات النفسية في السنوات الأخيرة التي أجريتها على مجموعات من البنات والنساء المصريات (من المتعلمات وغير المتعلمات) وكان جـزء مـن هـذه الدراسات يبحث في طفولة هؤلاء النساء والبنات، أدركت أن مثل هذه الحوادث غير قليلة، بل وشائعة ولكننا لا نقرأ عنها ولا نسمع إلا قليلا بسبب خجل البنات الصغيرات وخـوفهن من التصريح بمثل هذه الحوادث، وإدراكهن أن التصريح بها لن يؤدي إلى أي أذى يتعرض له الفاعل الرجل، وإنما الأذى كل الأذى سيقع عليهن هن، فالضحية في مثل هذه الحالات لا تمس إلا البنت وأسرتها. ولذلك تفضل أغلب الأسـر إخفـاء مثل هذه الحوادث عن إعلانها، خاصة إذا كان الفاعل أحـد أفراد الأسرة، ولهذا لا يذهب إلى القضاء إلا النادر في مثـل هذه الحوادث، والذي ينشر في الصحف ونقرؤه هـو نـادر النادر بطبيعة الحال. إما أن تواجـه مثـل هـؤلاء البنـات المشاكل في المستقبل فهذا أمر آخر لا يشغل البـال كثيـرا. فالمهم الآن هو تكتم الأمر حتى لا تتردد هذا القصص علـى

أفواه الصغيرات وتنطبع في نفوسهن البريئة بـأثر سـيء لا تحمد عقباه بطبيعة الحال، ولن يؤثر هذا الأثر السـيئ فـي حياة إحدى هؤلاء البنات الصغيرات! لكننا لا نهتم بكل هذا، فليذهب مستقبل هؤلاء البنات إلى الجحيم، ما دمنـا نحـافظ على الشكل العام، وما دمنا نكتم الأمـر، ونحفـظ التحقيـق والأوراق في الأدراج ونغلق عليها بالمفتـاح، أمـا الرجـل الجاني فنحن نطلق سراحه كجزء من تكتمنا وإخفائنا للحقيقة التي وقعت، فلا يهم أن يطلق سراح رجل اعتـدى علـى ٩ بنات أطفال، ولكن المهم هو أن نحفظ الموضوع طي الكتمان حتى لا تتردد هذه القصص على أفـواه الصـغيرات، إننـا نحفظه مع الأسف، ماذا تفعل كلمة ((مع الأسف) لمسـتقبل وحياة هؤلاء البنات.

ما مصير هؤلاء البنات (وغيرهن ممـن تعرضـن لمثل هذه الحوادث الخفية المحاطة بالكتمان) لسـت أدري! بل إنني أدري ما الذي سيحدث لهن في المستقبل، وسـوف يقفن في مكانهن في صفوف النساء التعيسـات المريضـات نفسيا أو المطلقات أو الزوجات المكتئبـات المهجـورات أو بائعات للهوى- في حالة انعدام مورد آخر للرزق.

أما الرجل الذي اعتدى عليهن فلم يحدث له أي أثـر سيئ لا تحمد عقباه. إنه مازال يعمل ويعيش ويرفـع رأسـه بين الناس كرجل محترم وله رجولة. إنه يعـيش فـي ظـل حماية القانون والقيم والأخلاق والعرف لمجرد انه رجل رغم ثبات التهمة عليه. أما البنات التعيسات فعلـيهن أن يلاقـين مصيرهن المحتوم الذي لا يعلمه إلا الله.

لقد آن الأوان لأن نطهر مجتمعنا مـن هـذا الظلـم الفادح الواقع على حياة البنت في مجتمعنـا. آن الأوان لأن تكف البنت الصغيرة عن أن تكون ضـحية رجـل يحميـه المجتمع أخلاقيا وقانونيا، مـع أنـه المعتـدي والمحـرض والفاعل، آن الأوان لأن نرفع رؤوسنا من الرمـال ونواجـه التناقضات الأخلاقية في مجتمعنـا بشـجاعة وصـدق، وأن نقضي على تلك الازدواجية في القيم التي لا تتفق مـع أيـة عدالة وإنسانية، ولا مع مبادئ أي دين من الأديان السـماوية أيضا.

إن هؤلاء البنات التعيسـات سـوف يـواجهن فـي المستقبل عديدا من المشاكل بطبيعة الحال، وأهمهـا مشـكلة العذرية والشرف. فالمجتمع غير مسئول عن الفتاة أو الطفلة

التي تفقد عذريتها أو شرفها وإن اغتصـبت. لأن الضـرر الواقع عليها ضرر جسدي لا سبيل لإصلاحه، والرجل الذي سيتزوجها في المستقبل يحق له أن يرفضها، بل يحق لـه أن يشهر بها اجتماعيا إذا أراد.

إن المبدأ في القوانين التي تحكم المرأة هي أن الرجل غير مسئول وتسقط حقوق المرأة قانونًا وعرفًا إذا ما حـدث لها حادث اغتصاب.

وتشكل مشكلة العذرية أو شرف البنت أهم المشـاكل في حياة النساء المصريات والعربيـات بصـفة عامـة وق تعرضت لهذا المفهوم الخاطئ عن الشـرف فـي أبحـاثي السابقة. إلا أنني أعود فأكرر هذه المشـكلة تـؤرق وتفسـد الكثير من حياة الفتيات والنساء. بل إن الحكمة قد تفسخ عقد الزواج لأن الزوجة ليست عذراء.

وقد يقول بعض الناس إن مثل هذه الأفكار تسود في الريف فقط، وتنتشر بين الرجال غيـر المتعلمـين. ولكـن الحقيقة أن التعليم في المدارس والجامعات لا يغير كثيرا من عقلية الرجل. وذلك لأخطاء في التعليم نفسه، وأخطـاء فـي التربية، وأخطاء في النظم المسيطرة على المجتمع. ولهذا قد

يحظى الرجل بدرجات عالية في التعليم، وقد يسـافر إلـى الخارج في بعثات تعليمية ثم يعود إلى مصر يحمل الشهادات ودرجة الدكتوراه ويحمل معها أيضا عقليته المتخلفـة فـي نظرته إلى المرأة.

وكم سمعنا وقرأنا في الصحف عن حـوادث القتـل بسبب الشرف والعذرية ولعل آخر ما قرأته في هذا الشأن ما نشر في جريدة أخبار اليـوم فـي ١٩٧٤/٥/١٨ الصـفحة العاشرة تحت عنوان: قتل شقيقته ثم اتضح أنها عذراء [(١)].

عاد المهندس المصري الذي يعمل بألمانيا الغربيـة بعد غيبته ٥ سنوات إلى مسكن أسرته في إمبابة!

وبعد أيام من لقائه مع أسرته لاحـظ انتفـاخ بطـن شقيقته الجميلة الطالبة بالثانوية – ١٧ سنة -.. وأخذ يتحرى الأمر، ماذا يفعل في شرف العائلـة الـذي لوثتـه شـقيقته بسلوكها! وأثناء وجوده بمفرده في الشقة أخذ يبحث في غرفة نوم شقيقته فعثر في دولابها على زجاجة دواء أخذها وذهب

([١]) انظر: جريدة أخبار اليوم الصادرة في ٦ مارس ١٩٧٦، الصفحة العاشرة تحت عنوان: ((محكمة الاسـتئناف تفسـخ عقـد زواج لأن الزوجة ليست عذراء)).

إلى إحدى الصيدليات وأخبره الصيدلي أن الـدواء خـاص بالسيدات الحوامل اللائي يرغبن فـي إجهـاض أنفسـهن. وصعق الشقيق وتأكدت شكوكه في سـلوك أختـه! وواجـه المهندس شقيقته بزجاجة الدواء التي في دولابها وشـكوكه.. ولم يتمالك المهندس نفسه فجرى إلى المطبخ وأحضر سكينًا وأخذ ينهال بها على شقيقته حتـى سـقطت تلفـظ أنفاسـها الأخيرة! وتولت النيابة التحقيق وأمرت بحبسه. وجاء تقرير الطبيب الشرعي بالصفة التشريحية أن شقيقته عذراء وليست حاملا!

وفي المعارضة في حبس المهنـدس أمـام محكمـة جنايات الجيزة ترافع أحمد ناصر المحامي فقال: إن المهندس كان يعيش في خط وهمي وأنه توهم أن شرفه وشرف أسرته تلوث وأكدت له الظواهر واعتـراف شـقيقته عـدا الشـك فالمهندس قتلها دفاعا عن نفسه وشرفه.. وأمـرت المحكمـة بالإفراج عن المهندس بلا ضمان!

وفي الوقت الذي تفرج فيه المحاكم عن القتلـة مـن الرجال من أمثال المهندس المتعلم، وأمثال ذلك المدرس الذي اعتدى جنسيا على تلميذات فصله وهن ما زلـن فـي سـن

الطفولة، في الوقت الذي تفرج فيه المحاكم والقـوانين عـن هؤلاء الرجال وأمثالهم ممن ينتهكـون الأخـلاق والشـرف الإنساني والعدالة في كل يوم وليلة إذا بها تتشدد في عقـاب نساء بريئات أو فتيات ساذجات، أو زوجات مغلوبات علـى أمرهن وفي الوقت الذي يطلق فيه سراح مـدرس اعتـدى جنسيا على تلميذات فصله تعاقب بشدة مدرسة لمجرد أنهـا دخلت على زميلتها الحمام وهي عاريـة دون اسـتئذان، أو تعاقب المدرسة بشدة لمجرد أنها أخذت التلميذات أثناء رحلة وجلست بهن على الكازينوهات [1].

ولست بصدد التعرض مرة أخـرى إلـى المهـازل الأخلاقية التي تحدث تحت ستر عقد الزواج، وكيـف يبيـع الآباء بناتهم الصغار باسم الزواج لرجال عجائز أو مرضـى أو فاسدي الأخلاق. وكم قرأنا عن مثل هذه الحوادث التـي أصبح الزواج فيها ليس إلا نوعا من البغاء المقنـع بالعقـد الشرعي.

([1]) انظر: جريدة أخبار اليوم، الصفحة العاشرة الصادرة في يـوم ٩ أغسطس ١٩٧٥.

ولعل آخر ما قرأته في هذا الصدد ما نشر في جريدة أخبار اليوم في ٢ أغسطس ١٩٧٥ الصفحة العاشرة تحـت عنوان: ((لأن طفلة تزوجت، قبضـت النيابـة علـى الأب والأم: ثار الشك حولها عندما تقدمت بطلب استخراج جـواز سفر لمصاحبة زوجها إلى الخارج! قدمت شهادة ميلاد تفيـد أن سنها ١٨ سنة... في حين أنها تبدو طفلة..

طلب المقدم عادل شعبان رئيس قسم رعاية الأحداث إجراء التحريات اللازمة كلف العقيد عبد الحميـد منصـور مدير إدارة البحث الجنائي بالنيابة الرائد محمد شريف عبـد الرازق بالذهاب إلى مركز البدرشين بالجيزة للبحث وإجراء التحريات عن الزوجة الصغيرة.

وكشفت التحريات أن أحد الأشـخاص بالحوامديـة أغرى والد الطفلة بتزويجها من أحد كبار السن في الخـارج في مقابل مهر كبير... وقام بتزوير شـهادة مـيلاد الطفلـة (١٢ سنة) إلى ١٨ سنة. وتبين أن نفس الشخص سبق لـه عقد زيجات مختلفة بنفس الطريقة)).

وكم يسيء الآباء استخدام سـلطتهم علـى بنـاتهم الصغيرات أو الكبيرات، وكم يكون هذا الأمر مدمرا لحيـاة

البنت أو مستقبلها خاصة في مجتمعنا حيث تكـون الأسـرة أبوية قانونًا وشرعا، وحيث سلطة الأب مطلقة على ابنتـه، فلا يستطيع التدخل بينهما أحد ولا حتى القانون نفسـه، بـل كثيرا ما يقف القانون مع الأب المخطئ ضد الابنة البريئـة السلمية الموقف.

ولعل هذه الواقعة التي نشرت في جريدة أخبار اليوم في ٥ يناير ١٩٧٤ تؤكد هذه الحقيقة. كتبت الجريدة تحـت عنوان: حكمت المحكمة بالطلاق لأن الفتاة تزوجـت بـدون موافقة الأسرة، الزوجة بلغت سن الرشد.. فتزوجت بـدون رضا أهلها ولكن المحكمة حكمة بتطليقها مـن زوجهـا لأن الفتاة أحبت الشاب وتزوجته بحضور الماذون وشاهدين (أي عقد الزواج كان سليما من الناحية القانونية والشرعية) وتقدم والد الفتاة يطلب فسخ العقد لأنه تم بغيـر موافقتـه، وقـرر الزوجان أمام النيابة بأنهما تزوجا بإرادتهما.. وقالت الزوجة أنها بلغت من العمر عشرين عاما وأصبح لها الحق والحرية في اختيار شريك حياتها الذي رفضته أسرتها عنـدما تقـدم إليها لأنه فقير.. وقررت النيابة حفظ التحقيق فـي شـكوى الأب، لعدم وجود جريمة فالزوجة بلغت سن الرشـد ومـن

حقها أن تمارس عقد زواجها بنفسها. ولجأ الأب إلى محكمة جنوب القاهرة للأحوال الشخصية يطلب الحكم بتطليق ابنتـه من زوجها لأنها تزوجت بغير موافقته. وحكمـت محكمـة جنوب القاهرة للأحوال الشخصية برئاسـة عبـد الـرحمن البرقوقي بتطليق الزوجة من زوجها وقالت في أسباب الحكم أنه وإن كان القانون لا يمنع مثل هذا الـزواج لأن الزوجـة بلغت سن الرشد وأصبح من حقها أن تباشر عقـد زواجهـا بنفسها، لكن العرف والتقاليد في بلادنا تمنع مثل هذا الزواج المقضي عليه بالفشل لأن الفتاة تصرفت بعاطفتها دون عقلها وثم تأخذ برأي أسرتها التـي تـرى مصـلحتها فـي زوج المستقبل الذي يكفل لها الحياة، وقد جرى العـرف والتقاليـد التي ترى مصلحتها في زوج المستقبل الذي يكفل لها الحياة، وقد جرى العرف والتقاليد في مجتمعنا الشرقي على أن يكون الأب أو العم أو أحد أسرة وكيلا لها في عقد الزواج [1].

([1]) انظر: جريدة أخبار اليوم صباح السبت ٥ ينـاير سـنة ١٩٧٤ - الصفحة العاشرة.

وقد يتساءل البعض أين التناقضات هنا؟ ولكن الـذي يقرأ القصة مرة أخرى يدرك على الفور هـذه التناقضـات الواضحة.

١- التناقض بين بنود القانون الرسـمي والشـرعي وبين التقاليد والعرف، ففي الوقت الذي يبيح فيه القانون للفتاة البالغة الرشد اختيار زوجها بنفسها تمنع التقاليد والعرف هذا الحق للفتاة البالغة الرشد.

٢- رغم وضوح القانون فإن المحكمة لم تأخذ برأي القانون وإنما أخذت برأي العرف وحكمت بتطليق الفتاة مـن زوجها، وهذا اعتداء صارخ من هيئة قانونية على القـانون ذاته، مما يدل على أنه فيما يتعلق بحرية المرأة وإرادتها فإن التشديد واجب إلى حد مراعاة العرف حـين يبـيح القـانون الحرية، والالتزام بالقانون حين يبيح العرف شيئًا مـن هـذه الحرية.

٣- التناقض بين موقف الأب وتصرفاته العملية ضد ابنته وضد مصالح حياتها بتطليقها من زوجها بعد الـزواج رغم إرادتها، وهذا الموقف الذي وافقـت عليـه المحكمـة بتناقض ومفهومنا النظري للأبوة، ومشاعر الأبوة، وحرص

الأبوة على صالح الأبناء والبنات. ولا أظن أن هنـاك مـن يقول بأنه من صالح فتاة بالغة الرشد أن تطلق رغم أنفها من زوجها الذي تحبه ويحبها لمجرد أنه زوج فقير كمـا قالـت الزوجة.

٤- هذا الزوجة أحبت زوجها واحترمته رغـم انـه فقير، وهذا الموقف من الزوجة يتفق مع مبادئنا النظرية ومع أخلاقيات الدين الإسلامي، وكل الأديان السماوية، ومع ذلـك فلم يكن جزاؤها على الإيمان بهذا المثل إلا التفريق بـالقوة بينها وبين زوجها وفسخ عقد زواجها منه. وهـذا تنـاقض صارخ تقع فيه كثير من أسرنا. فإن الآباء والأمهات يلقنون أطفالهم منذ الصغر مبادئ الدين الذي يساوي بين الفقير وبين الغني وأنه لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، ثم حين يأتي موعد الزواج ينسى الآباء والأمهات هذه المبـادئ ولا ينشغلون إلا بالتقصي عن عدد الجنيهات التي يكسبها العريس وإذا بهم يناقضون أنفسهم ويشجعون بناتهم على قبول الغني ورفض الفقير، ويا ليت الأمر يقف عند حد التشجيع ولكـنهم يتدخلون ويفرضون على البنات أزواجـا لمجـرد المكسـب التجاري (بعبارة أخرى يبيعون بناتهم باسم الـزواج وهـم

بذلك يضربون مثلا سيئًا لبناتهم يشجعونهن على بيع أنفسهن للرجل الذي يدفع أكثر وهذا هو جوهر البغاء) بل أحيانًا ما يسعون كما فعل الأب السابق إلى استغلال العرف أو القانون لتحطيم حياة بناتهم ويحدث كل ذلك تحت ستار التقاليد والقيم المتناقضة التي تغير أشكالها وألوانها حسـب كـل ظـرف وحسب كل حالة. ولا يدفع ثمن كل هذا إلا البنت المسـكينة التي يذهب مستقبلها وحياتها وسـعادتها وصـحتها النفسـية والجسمية ضحية هذه التناقضات التي نقرؤها ونسمع عنهـا كل يوم ومع ذلك نفعلها ويشترك فيها أيضا كل يوم.

إن مجتمعنا المصري والعربي ملآن بالتناقضات التي تنعكس آثارها على حياة البنات والنساء أكثـر مـن حيـاة الرجل. وذلك بسبب التفرقة بين الجنسين وازدواجيـة القـيم والقوانين التي تحكم النساء والرجال سـواء فـي العمـل أو الزواج أو الحب أو الطلاق أو الشرف.

وتسبب هذه التناقضات للبنات والنساء كثيـرا مـن المشاكل الاجتماعية والنفسية وقد تعرضت الكثيرات مـنهن لأمراض نفسية وعصابية مختلفة. ولهذا علينـا ألا نتـدهش حين نلمس ارتفاع نسبة النساء العصابيات، وخاصـة بـين

ذوات العقـل الـذكي القـادرات علـى إدراك التناقضـات والإحساس بوطأتها. وفي البحث الذي أجريته فـي جامعـة عين شمس وجدت أن نسبة الأمراض العصابية بين الطالبات أعلى منها بين الطلبة. كما وجدت أيضا أن الفتيات المثقفات الذكيات أكثر عرضة للعصاب من الفتيات الأقل ثقافة وذكاء.

ولا شك أن الإنسان المثقف الذكي أكثر قدرة علـى إدراك عيوب المجتمع، وأكثر قـدرة علـى إصـلاحها إن استطاع، وإن لم يستطع فهو أكثر عرضة للمعاناة النفسية من ذلك الشخص الآخر الذي يتصور أن عيوب المجتمع، وأكثر قدرة على إصلاحها إن استطاع، وإن لم يستطع فهـو أكثـر عرضة للمعاناة النفسية من ذلك الشخص الآخر الذي يتصور أن عيوب المجتمع ومآسيه ليست إلا إرادة الله أو حكم القضاة والقدر.

ولهذا يعاني الأذكياء في مجتمعنا من التناقضات التي تحكم المرأة، والتي تؤثر بطبيعة الحال على حيـاة الرجـل، وحياة الأطفال، ومن ثم حياة المجتمع كله.

وقد نشرت الصحف عدة مرات عن ظاهرة هـؤلاء الأذكياء من الشباب الذين تعرضوا للأمراض النفسية. وحينما

ندرس حياة بعض الشبان نجد أن تلك الحيرة وذلـك القلـق العميق إزاء ما يبدو لهم من تنـاقض بـين القـيم الدينيـة والأخلاقية وبين ما يشعرون من رغبات أو ما يمارسونه في حياتهم اليومية أو ما يشاهدونه ويسمعونه في أجهزة الإعلام وفي الحياة الاجتماعية اليومية.

وقد نشرت جريدة الأخبار [1] صباح يوم ٢٧ ينـاير سنة ١٩٧٤ موضوعا ثم أتبعته بعدة موضوعات في الأيـام التالية تحت عنوان: أبحث عن هذا الطالب العبقري... آخـر مرة شوهد فيها طويل الذقن. حافي القدمين يتسول من الناس ليعيش. وتحكي الأخبار قصته. فهو شاب ذكي متفـوق فـي كلية الهندسة وهو كما تقول أسرته كان متدينًا جدا لدرجة انه كان يرفض أن يصافح زميلاته أو يـتكلم معهـن لأن هـذا حرام.. ثم وقع هذا الشاب في حب زميلة له، وتصور أنهـا تبادله هذا الحب لأنها كانت تعامله بذوق ورقة وأدب. لكـن هذه الزميلة كانت تعامل كل زملائها بـذوق ورقـة وأدب، وكانت تحب رجلا آخر تزوجته وسافرت معه إلى الخـارج. وهنا حـدثت الصـدمة لهـذا الطالـب وأصـيب بمـرض

---

(1) انظر: جريدة أخبار اليوم ٢٧ يناير ١٩٧٤، الصفحة الثالثة.

(الشيزوفرينيا) كما كتبت الجريدة. وفي نهاية الموضـوع تتساءل الجريدة هل هناك أمل في شفاء أحمـد؟ وتكتـب أن الأطباء النفسيين يقولون أن الأمل كبير في الشفاء من هـذا المرض ولكن مراحله الأولى... أي بعد الصدمة التي تسببت ولكن المريض الذي في حالة ((أحمد)) يحتاج إلى رعايـة مستمرة ورقابة على ممارسة أي نوع من الألعاب الرياضية وخصوصا في فترة المراهقة حتى لا ينحرف تفكيرهم إلـى نواح قد تسبب لهم في الكبر عقدا يصعب حلها...)).

ولست أعرف كيف يمكن (طبيا وعلميا) أن نعـالج التناقض بين القيم الأخلاقية والاجتماعية في عقول الشـابات والشباب الأذكياء بالرياضة البدنية ومباريات التـنس وكـرة القدم والكرة الطائرة. بل كيف يمكن أن نعـالج مثـل هـذه التناقضات الاجتماعية بالصدمات الكهربية كـالتي نوجههـا على رؤوس الشباب كجزء من العلاج النفسي. كيف يمكـن أن نترك جذور أسباب الأمراض النفسية بغيـر عـلاج، ولا نهتم إلا بعلاج الأمراض الظاهرة بالحقن والكهرباء وغسيل المخ.

إن الذي يدرس أسباب الأمراض النفسية بين الذكور والإناث في مختلف مراحل العمر في مجتمعنا يجـد أمثلـة متعددة لتلك القصص التي عرضتها الصحف عـن الشـباب الأذكياء، أمثلة متعددة بين الرجال والنساء والبنات الذكيات، وعلينا بدلا من أن نوجه العـلاج إلـى رأس المـريض أو المريضة أن يتجه الفحص والعلاج إلى المجتمع وإلى التقاليد والقيم والقوانين المتناقضة التـي يرفضـها العقـل الـذكي وخصوصا تلك القيم والتقاليد التي تقتـرب مـن النـواحي الحساسة [1] في مجتمعنا.

إن الإنسان وحدة كاملة، وليس هناك فاصـل بـين العقل والجسم. ولهذا فإن الإنسان ذا العقـل الشـديد الـذكاء يتصف بأن كل ما فيه أيضا شديد سواء كان رغبات عاطفية أم جسمية. وبما أن الوجه الآخر للكبت الشديد أو الانفجـار الذي يظهر على شكل الاضطراب النفسي فإن شـدة الـذكاء أحيانًا ما تكون صفة يدفع الإنسان ثمنها غاليا جدا خاصة إذا كان امرأة.

([1]) انظر: جريدة الأخبار الصادرة فـي ٣٠ ينـاير ١٩٧٤، تحـت عنوان: علاج طالب الهندسة العبقري في مستشفى خاص.

وإنني أختلف مع هؤلاء الذين يرون أن علاج مثـل هذه المشاكل والتناقضات يكون بتحريك عضلات الجسم في الهواء المطلق أو الرياضة البدنية، ولست أعتقـد أيضـا أن العلاج هو أن نقتل في هؤلاء الأذكياء والذكيات شعلة الذكاء بالجلسات الكهربية أو غسل المخ أو بالتحليل النفسي الـذي يحاول إقناعهم بالتكيف مع هذه التناقضات والتسليم بها كنوع من القدر المحتوم الذي لا يمكن تغييره.

إن العلاج في رأيي لا يكون علاجـا حقيقيـا إلا إذا تناول الأسباب الحقيقية للمشاكل وأن تسعى العقول المفكـرة الناضجة الشجاعة، لإيجاد الحلول لتلك التناقضات الصارخة التي لا زلنا نعيشها.

ولا شك في أن النسـاء والبنـات أكثـر تعرضـا للتناقضات الموجودة في مجتمعنا.

فالمرأة في معظم الأحيان هي التـي تقـع ضـحية التناقضات، وكونها أنثى بالمفهوم الأخلاقي والاجتماعي فهي فريسة تناقضات المجتمع الأخلاقيـة والاقتصـادية. ومـن المعروف أن قـيم المجتمـع الأخلاقيـة تتنـاقض وقيمـه الاقتصادية. مثلا أن جسد المرأة يجب أن يعـرى ويكشـف

بطريقة مثيرة جدا في الإعلانات التجاريـة وفـي الأفـلام التجارية وفي الرقصات والأغاني والفنون التجارية.

ولا شك في أن النساء الفقيرات يـدفعن ثمـن هـذا التناقض أكثر من نساء الطبقة العليا، وكثيرا ما تنجو المـرأة الثرية من أزمات أخلاقية قد تكلف المرأة الفقيرة حياتها كلها. وقد تضطر المرأة الفقيرة من أجل أن تطعم أطفالها أن تبيـع جسدها. ولا يحاول أحد أن يحاسب أو يعاقب المسئولين عن الفقر أما العقاب فيقع على المرأة المسكينة وحدها.

وبرغم انتشار تجارة الجسد في مجتمعنا في السنوات الأخيرة بسبب حدة المشـاكل الاقتصـادية إلا أن القـانون المصري ما زال حتى اليوم يعاقب النساء المشتغلات ويطلق سراح الرجال الذين يمارسون هذا العمل نفسه.

وكم قرأنا في الصحف عن هذه الحوادث، ومنها مـا نشر في جريدة الجمهورية في ٢٨ أغسطس ١٩٧٥ تحـت عنوان ((عندما يمارس الرجل أعمالا منافية لـلآداب مـع المرأة، هي تدخل السجن وهو يحكم ببراءته)) : كتب فـؤاد الشاذلي:

((أكثر من ٣٠٠٠ جنحة آداب بين دعارة وتحريض على الفسق وغدارة منازل للدعارة سجلتها محاضر الشرطة والنيابة في عام واحد.. وفصلت المحاكم فـي ٩٠% منهـا ولكن القضاة أنفسهم يشعرون أن الأحكـام غيـر عادلـة.. وعذرهم أنهم يطبقون القانون الذي يعتبر الرجل الشريك في الجريمة شاهدا ولا يحكم عليه بأية عقوبة، ولنستعرض نماذج من القضايا التي نظرتها المحاكم أخيرا.

اتصل شاب بشرطة النجدة يدعي أنه اتفق مع فتاتين من الساقطات لممارسة الجنس مقابل ٤٠ جنيها وطب منهما مرافقته إلى أحد الفنادق بشارع ٢٦ يوليو ولكنهمـا رفضـتا لأنهما كانتا تعتقدان أنه ينزل بشقة مفروشة.. وطلب الشـاب ((المتبجح)) معاونته في تنفيذ الاتفاق أو استرداد النقود.

وحضرت سيارة النجدة وقبضـت علـى الفتـاتين واقتادتهما إلى الشرطة التي أحالتهما إلى التحقيق فاعترفتـا باحتراف الدعارة كسبيل للتعيش وقضت المحكمة بحبسـهما أما الشاب فقد أخلي سبيله فورا!

واقعة أخرى سجلتها محاضر شـرطة الأزبكيـة.. ((الشاهدة)) فيها شاب عربي يقيم بشقة بشارع زكي اتصل

بالشرطة يستنجد من وجود فتاتين بشقته قامت بينهما مشاجرة استعملنا فيها زجاجات الويسكي الفارغـة وحطمتـا أثـاث الشقة.. قبضت الشرطة على الفتـاتين فاعترفتـا بـاحتراف الدعارة وقالت إحداهن أنها فوجئت بزميلتهـا تقـتحم شـقة الزبون دون سابق اتفاق وأن فـي ذلـك منافسـة ((غيـر شريفة)) لها فلم تجد أمامها إلا ضربها..

- وأحيلتا إلى النيابة التي قدمتهما للمحاكمة فقضـت بحبسهما.. أما الشاب فقد أخلى سبيله فورا وخرج من قسـم الشرطة وكأن شيئًا لم يكن!

- والعينات الغريبة من هذه القضايا لا تنتهي.. فقـد ترك أحد أعيان المنيا مفتاح شقته مع بواب العمارة المملوكة له ثم توجه إلى المصيف مع أسرته.. وعاد ابنه قبل الموعد المحدد بيومين للتنبيه على البواب بتنظيـف الشـقة.. لكنـه فوجئ بالشقة مغلقة من الداخل فكسر الباب حيث وجد البواب وصاحب محل حلاقة وأحد الشبان الخنافس ومعهم فتاة مـن الساقطات فأعاد إغلاق الشقة عليهم واستنجد بالشرطة التـي أفرجت فورا عن الخنفس.. وصاحب محل الحلاقة لأنهما في نظر القانون مجرد شاهدين رغم اعترافهما)).

اللا أخلاقية في القيم الأخلاقية

من الكلمات التي استخدمت على نحو خاطئ هي كلمة مومس. وقد أطلقت على المرأة التي تدفعها ظروفها الاقتصادية إلى ممارسة الجنس مع الرجل مقابل شيء من المال. واعتبرت هذه المرأة فاقدة للشرف والأخلاق مع أنها ليست إلا ضحية مجتمع ذكوري طبقي مزدوج القيم والأخلاق، ولم يدفعها إلى هذا العمل إلا المجتمع نفسه والرجال أنفسهم، والفقر نفسه.

وفي رأيي أن الآباء الذين يبيعون بناتهم بالمهر الغالي تحت ستار عقد الزواج هم الذين يجب أن يطلق عليهم اسم مومس لأنهم ينتهكون الشرف الحقيقي والأخلاق الحقيقية حين يتاجرون ببناتهم، ويفرضون عليهن أزواجا بغير رغبتهن لمجرد قبض المهر أو الهدايا وهم أيضا لا يتبعون الدين لأن الإسلام يقول أن أفضل الرجال أتقاهم وليس أكثرهم مالا. ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [1] والحديث

([1]) القرآن، سورة الحجرات، الآية ١٣.

المعروف يقول:"**إذا جاءكم مـن ترضـون دينـه وخلقـه فزوجوه. إن لم تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**"

والشرف في جوهره ضد الإجبار وضـد العبوديـة وضد المتاجرة في النفوس سواء كانوا عبيـدا أو نسـاء أو أطفالا.

الشرف في جوهره ضد تحويل الإنسـان إلـى أداة شيء أو بضاعة. وعلى هذا فإن قانون الزواج في مجتمعنـا الأبوي الطبقي ضد الشرف الحقيقي لأنه حول المـرأة إلـى بضا تشترى بالمهر وتباع بالنفقة وأحيانا تباع بلا شيء على الإطلاق كما يتضح من المادة ٦٧ من قانون الـزواج فـي مجتمعنا المصري التي تنص على الآتي: ((لا تجب النفقـة للزوجة إذا امتنعت مختارة عن تسليم نفسها. كما لا تسـتحق النفقة إذا حسبت ولو بغير حق أو اعتقلـت أو اغتصـبت أو ارتدت، أو منعها أولياؤها، أو كانت فـي حالـة لا يمكـن الانتفاع بها كزوجة)).

إن وضع الزوجة هنـا أقـل مـن البضـاعة، لأن البضاعة مهما حدث يظل لها ثمن، بخس أو غير بخـس إلا أنه ثمن، أما الزوجة التي تحبس ولو بغير حق أو يغتصـبها

رجل أو تمرض فإن من حق زوجهـا أن يطلقهـا وتسـقط نفقتها.

وحينما تطلق المرأة بسبب أو بغير سبب فإن ثمنهـا ينخفض في سوق الزواج كأي سـلعة يـنخفض ثمنهـا إذا استعملت من قبل.

لقد أهدر المجتمع الأبوي الطبقي إنسـانية الزوجـة وحولها إلى سلعة، بل إلى أبخس السلع ثمنًا. فالخادمة التـي تؤجر لتنظيف البيت أو رعاية الأطفال تنال عن عملها أجرا أما الزوجة فلا تتقاضى أجرا والمومس التي تعطي الرجـل اللذة الجنسية تتقاضى أجرا أما زوجته فلا تأخذ شيئا.

ويخدع المجتمع الزوجة وذلك بأن يوهمها أنها إنمـا تعلم في بيتها وأسرتها وأطفالها ويحيط هذه الأعمال بهالة من الكلمات الجوفاء، فالبيت مملكة المرأة والأم المثالية هي التي تضحي من أجل أطفالها والزوجة المثالية هي التـي تطيـع زوجها وتخدمه. وهذا كله خداع لأن البيت والأطفال والأسرة ملك للرجل لا للمرأة، وأعمال الخدمة مـن كـنس وطـبخ وغسيل ليست أعمالا محترمة في المجتمع بدليل أن المجتمع لا يحترم من يقومون بها ولا يجزيهم عليها إلا أقل الأجـور

وأبخسها إنها أحط الأعمال في سلم الحياة الاجتماعية، وهـي أعمال لا تحتاج إلى ذكاء أو مهارة، إنها أعمال قذرة تغوص فيها اليدان طوال الوقت في الماء والبصل والثوم والقذارة.

إن المجتمع يستغل الزوجة أكثر مما يستغل الأجيـر أو العبد نظير أنه يمنحها شرف الزواج برجل وهو شـرف وهمي، لأنه قائم على الاستغلال وقائم على التجارة، وقـائم على تحويل النساء في سوق الزواج إذا ما فـتحن عيـونهن على هذه الحقيقة، لأن الشرف الإنسـاني يشـترط فـي أول شروطه أن يكون الإنسان إنسانًا وليس بضاعة تشترى وتباع بأي ثمن.

إن المجتمع الأبوي الإقطاعي أو الرأسـمالي الـذي يحول الإنسان إلى بضاعة مجتمع إنساني وغير شريف. وإن الإنسان الذي يقبل على نفسه أن يكون بضاعة إنما هو إنسان فقد إنسانيته وفقد شرفه.

لكن المجتمع الاستغلالي يتسم دائما بالقيم المعكوسة، فالشرف الاجتماعي السائد في حقيقته فقدان لأهـم مقومـات الشرف. والعدالة التي يتشدق بها المجتمع ليست في حقيقتها

إلا أشد أنواع الظلم، والحب الذي يترنم بـه لـيس إلا قمـة الاستغلال والامتلاك.

إن هذه القيم المعكوسة هي النتيجة الطبيعية لمجتمـع قائم على الربح. ربح الأقلية التي تملك، واستغلال الأكثريـة التي لا تملك إلا عرقها وجسدها تبيعه أبخس ثمن في سـوق العمل أو سوق الزواج أو سوق البغاء.

وبرغم أن قوانين السوق جميعا غيـر أخلاقيـة لأن هدفها القرش وليس الإنسان إلا أن سوق البغاء وحدها هـي التي حرمها المجتمع من الأخلاق ومن الشرف.

وهو لم يحرم السوق كله من الأخلاق والشرف، لقد حرم النساء فقط. أما الرجال فإنهم يمارسون الجنس في سوق البغاء دون أن يحرمهم المجتمـع مـن الشـرف، ودون أن يعاقبهم القانون، ودون أن يطلق عليهم كلمة ((مـومس)). أما النساء فهن وحدهن اللائي يقع عليهن العقاب والعار. بل إن العقاب والعار يمتد ليشمل الأطفال الذين يولدون في سوق البغاء أو في سوق العشق، ويطلق علـيهم الأطفـال غيـر الشرعيين أو اللقطاء.

إن المجتمعات التي تفرق بين الأطفال وتعاقبهم على ما حدث قبل ولادتهم إنما هي مجتمعات بلغت أشـد أنـواع الظلم والاستغلال لأنها تصدر حكما على أبرياء صغار لـم يشتركوا في الفعل الذي جاء بهم إلى الحياة.

وهذا أكبر دليل على أن مجتمعنا الذي نعيش فيـه لا يمارس شيئًا من العدالة التي يتشدق بها، وإنمـا هـي كلهـا كلمات جوفاء لا يراد بها إلا التغطية على الظلم والاستغلال الواقع في الحقيقة. إن مؤسسة الأطفال غير الشرعيين ليست إلا مظهرا من مظاهر التناقض الأخلاقي والإنساني للمجتمع الذكوري الطبقي. لكن شهوة السلطة والمـال تفقـد المـلاك والحكام المنطق وتصبح قوانينهم متناقضـة وتنـتج عنهـا ظواهر غير إنسانية وقيم عكسية. ففي الوقت الذي يدعى فيه الأب الإنسانية والأبوة والحب في علاقته بأطفاله تجد أن هذا الأب نفسه يقسو ويتنكر لأطفاله. لماذا؟ لأن أطفاله من النوع الأول ولدوا من المرأة التي اختارها الرجل للزواج أما أطفاله من النوع الثاني فقد ولدوا من المرأة التي اختارهـا للعشـق فقط. وإن الرجل في كلتا الحالتين (الزواج أو العشق فقط) هو الذي يختار و هو الذي يحدد العلاقة زواجا أو عشقًا فقط.

وتبرز في التاريخ ظاهرة الأطفال غيـر الشـرعيين كوصمة عار في جبين هذه الحضارة الذكورية الطبقية. و قد اضطرت بعض المجتمعات الرأسمالية المتقدمـة، أن تعـالج هذه الظاهرة بفكرة ((التبني)) التي شاعت في بعض البلاد الغربية، كما أن استغلال النساء العاملات بأجر قـد فـرض على بعض المجتمعات الصناعية المتقدمة أن تعطـي لـلأم الحق في منح اسمها لطفلها وأصبح اسم الأم يتمتع بالشـرف والشرعية التي يتمتع بها اسم الأب.

لكن المجتمع الإسلامي يحرم التبني، وفي الإسلام لا تثبت البنوة ولا أية علاقة نسبية أخرى عن طريق التبنـي. وأوجب الإسلام أن يدعي كل إنسان إلى أبيه تفسـيرا لهـذه الآية [1].

﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم، ذلك قولكم بـأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ﴾.

([1]) القرآن، سورة الأحزاب، الآية ٤،٥.

إلا أن تونس سبقت البلاد الإسلامية في وضع نظـام للتبني. ولا تزال قوانين الأسرة في البلاد العربية الأخـرى تحرم التبني.

ومن كثرة الأطفال غير الشـرعيين بسـبب حريـة الرجال الجنسية فقد شملت قوانين النسبة و البنوة عددا كبيرا من هؤلاء الأطفال غير الشرعيين ضاربة قـوانين الـزواج بعرض الحائط بل المنطق والعدل نفسه. إن بنوة الطفل تثبت لأبيه:

أما نتيجة لاتصال الرجـل بـالمرأة بعقـد شـرعي صحيح.

أو ((بوطء)) شبهة.

أو نتيجة للإقرار.

أو نتيجة لشهادة العدلين.

١- العقد الشرعي الصـحيح:- إذا وطـئ الرجـل زوجته (أي اتصل بها جنسيا) وأنزل المني [١] (السـائل

---

(١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الإسلام وتنظيم الأسرة، الاتحـاد العالمي لتنظيم الوالدية، المكتب الإقليمي لمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، ١٩٧٤، الجزء الثاني. ص ٧٧.

المنوي) بحيث يمكن أن يكون قد دخل في الرحم منه شيء (أو خلا بها خلوة صحيحة عند أهل السنة) ومضـت أقـل مدة الحمل وهي ستة أشهر من حين الوطء, ولـم تتجـاوز المرأة أقصى مدة الحمل و هي من حين الوطء (سنتان عند الأحناف، وأربع سنوات عند الشافعية والمالكية)

وقد حاول المجتمع الإسلامي الإقلال بقدر الإمكـان من عدد الأطفال غير الشرعيين وذلك عن طريق تلك الفكرة التي عرفت باسم الطفل النائم Sleeping child أو الشـعار الذي أطلقه الإسلام على أن الطفل ابن الفراش اتباعا للحديث النبوي ((الولد للفراش))، وفسر البعض هذا الحديث علـى أنه رجوع بنسب الولد إلى الأب بعد أن كان ينسب إلـى الأم وفسره البعض الآخر على أن أي طفل تلده الزوجة هو ابـن زوجها. وقال الإمام أبو حنيفة إن عقد الزواج وحده بصرف النظر عن مدته سبب في ثبوت نسب الأطفال للزوج. وعلى هذا فقد كان الطفل الذي تلده الزوجة رغم غياب زوجها عنها أربع سنوات يعتبر ابنًا شرعيا لهذا الزوج.

كما أن الطفل الذي تلده الزوجة التي لم يمض علـى زواجها ثلاثة أو أربعة شهور يعتبر ابنا شـرعيا لزوجهـا، وسمي ذلك الطفل ((بالطفل النائم)).

إلا أن المعلومات الطبية الحديثة عن مـدة الحمـل، وعدد الشهور التي يمكن أن يحياها الجنين في رحـم أمـه بالإضافة إلى زيادة عدد الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين قد دعت المجتمع العربي الإسلامي إلى نقـد فكـرة الطفـل النائم.

وكان المجتمع المصري حتى سـنة ١٩٢٩، يتبـع الفكرة القائمة على رأي الإمام أبي حنيفة من حيث إن عقـد الزواج وحده يكفي لثبوت نسب الطفل للزوج. ثم أخذ بـرأي أحمد بن حنبل والشافعي ومالك الذين يقولون إن الدخلـة أو الدخول لا بد أن يكون ممكنًا ليثبت النسب وقد قضت معظم البلاد العربية على فكرة الطفل النائم في قوانينها المتطـورة الحديثة.

٢- وطء الشبهة: إذا وطئ الرجل امرأة بدون عقـد زواج صحيح أو محرمة عليه، جاهلا ذلـك، معتقـدا أنهـا

زوجته [1] أو عقد على عمل امرأة لا يصـح العقـد عليهـا معتقدا صحة العقد عليها، وأحبلها، فـلا يتحقـق فـي هـذه الحالات عنوان الزنا بسبب الجهل، ويلحق الولد بـه شـرعا وتثبت أبوته للولد (مفهوم طبعا أن الرجل هو الذي يعترف بالطفل ويعترف بصلته بأمه) ونرى هنـا كيـف يتسـاهل القانون مع الرجل بالنسبة للحرية الجنسية فهو يسـتطيع أن يتصل جنسيا بأية امرأة غير زوجته، ولا يعتبر ذلك زنًا بـل وينسب طفله إليه أيضا، لأن هذا الرجـل تصـور أن هـذه المرأة هي زوجته. ولا أدري هل هذا ممكن، هل يمكـن أن يجهل الرجل مع من يمارس؟ زوجته أم امرأة أخرى؟؟

وإذا كان الرجل قد يبلغ من الغفلة إلى حـد أنـه لا يعرف زوجته من امرأة أخرى أفلا يمكن أن تبلغ المرأة من الغفلة أحيانًا فلا تعرف زوجها من رجل آخر؟ فهـل يبـاح للمرأة مثل هذه الغفلة خاصة وإنها أقل من الرجل عقلا ودينًا كما أشيع، وإن الرجل أكثر حكمة وبالتالي أقل غفلة؟.

([1]) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الإسلام وتنظيم الأسرة، الاتحـاد العالمي لتنظيم الوالدية، المكتب الإقليمي لمنطقة الشرق الأوسط شـمال إفريقيا، ١٩٧٤، جزء ٢، ص ٧٧.

وإذا اتبعنا هذا المنطق، منطق الغفلة بحيث لا يعتبر زنًا كل من مارس الجنس خارج الزواج لمجـرد أن الأمـر اختلط عليه فلم يعرف الزوجة من غير الزوجة فعلى من إذن يسري الزنا؟.

ومن هنا يتضح لنا غياب المنطق والعدالة في مثـل هذه القوانين التي تعالج تلك الازدواجية الأخلاقية القائمة على منح الرجل حرية جنسية خارج الزواج. وهذا القانون، قانون البنوة لوطء الشبهة ليس إلا دليلا على ذلك.

ولا شك أن هذا القانون يعالج بعض الشيء مشـكلة الأطفال غير الشرعيين، لكنه علاج قاصر لمشكلة كبيـرة لا يمكن أن يكون لها حل أو علاج طالما أن من حق الرجل أن يمارس الجنس مع أربع زوجـات بالإضـافة إلـى الإمـاء والجواري بالإضافة إلى أية امرأة أخرى يظن أنها زوجته أو يجهل أنها زوجته أو يجهل أنها محرمة عليه!.

٣- الإقرار:- يثبت النسب بالإقرار، فإذا أقر الرجل ببنوة طفل نفذ إقراره بشرط ألا يكون هناك رجل ينازعه هذه الأبوة، ولا يشترط تصديق الطفل إذا كان صـغيرا، أمـا إذا كان كبيرا فيشترط تصديقه.

وبهذا يصبح من حق الرجل غير المتزوج أن يكون له أطفال شرعيون. أما المرأة غير المتزوجة فأطفالها غيـر شرعيين إلا إذا لاح للرجل الذي مارس معها الجنس أن يقر بأن الطفل ابنه بشرط ألا يكون هناك رجل آخر ينازعه ملكية هذا الطفل.

٤- شهادة العدلين:- يثبت النسب عموما ومنه البنوة بشهادة عدلين. فلو شهد إخوان للميت بـابن لـه ((وكانـا عدلين)) ثبتت بنوته، والعدلان هنا رجلان من أسرة الرجل، أما الأم التي ولدت الطفل والتي هي أدرى منهما بأبي طفلها فإن نسب البنوة لا يثبت بشهادتها!.

وكما يعطى للرجل حق إقرار الطفل فيصـبح ابنًـا شرعيا كذلك يعطى له حق نفي نسب الطفل إليه إذا ساورته الشكوك بأن الطفل ليس منه. وإذ علم الرجل أن الطفل ليس منه وجب عليه شرعا أن ينفيه، ولا يجوز له شرعا أن يقـر بنوة طفل يعتقد بعدم بنوته له [1].

ويمكن للزوج أن ينفي نسب الطفل إليه فـي هـاتين الحالتين:-

([1]) المصدر السابق، ص ٧٩.

أ) أن يولد الطفل لأقل من ستة أشـهر مـن حـين الوطء، أو لأكثر من أقصى مدة الحمل (أقصى مدة الحمـل اعتبرت واحدة).

ب) اللعان: إذا أنكر الزوج الطفل المولود الذي لـم ينقص حمله عن أدنى مدة الحمل، ولم يزد حمله على أقصى مدة الحمل وكان العقد دائما ففي هذه الحالة لا ينتفـي عنـه الطفل إلا باللعان [1]. وكيفية اللعان هـي أن يرفـع الـزوج دعوى عند الحاكم الشرعي ينفي بها الطفل، فيأمره الحـاكم الشرعي بالشهادة، فيشهد أربع مرات بقوله: ((أشهد بالله أني لمن الصادقين في أن الولد ليس مني)) ثم يقول بعد تكـرار الشهادة السابقة: ((لعنة الله علي إذا كنت من الكاذبين فيمـا رميت به زوجتي من نفي الولد))، و بعد فراغ الزوجـة – بعد أن يأمرها الحاكم فتقول أربع مرات:

((أشهد بالله أن زوجي من الكاذبين في ما رماني به من الزنا)). ثم تقول بعد تكرار الشهادة السابقة ((غضـب الله علي إن كان من الصادقين)). ويترتب على اللعان أحكام

---

(1) المصدر السابق، ص ٧٩.

منها نفي الولد عن الرجل. ومنها التحريم المؤبد بين الرجل والمرأة [1].

ويتضح لنامن هذا القانون أن الزوج أيضا (ولـيس الرجل غير المتزوج فقط له الحق ألا يعترف بشرعية طفلـه لمجرد استخدامه لكلمات اللعان رغم صـحة عقـد الـزواج وصحة مدة الحمل. ورغم أن زوجته تقسم بأنه هو الأب.

لكن الحاكم الذي يحكم بينهما رجل وليس امـرأة. و النظام السائد نظام رجولي أبوي فمن ذا الذي يصدق امـرأة ويكذب رجلا؟ إن الرجل في حكم الشرع والقانون أكثر ميلا إلى الصدق والحق والعقل. والمرأة أكثر إلى الكذب والضلال والغفلة.

لكن الغفلة كانت من نصيب الرجل حينا كان الأمـر يتعلق بحقه في الاتصال الجنسي بامرأة أخرى غير زوجته، أما الغفلة فيه الآن من نصيب المرأة لأن الأمر الآن يتعلـق بحق الرجل المطلق في نسب طفله إليه أو نفي هذا النسـب داخل الزواج أو خارجه.

---

(1) المصدر السابق.

إن اللعان يعطي الزوج حق نفي نسب طفلـه إليـه لمجرد أن الشك ساوره في إخلاص زوجته له، وإن قـانون النسب والأبوة يعطي الرجل الحق في نكران نسب طفله إليه لمجرد أنه لم يوقع عقد الزواج مع الأم.

ولنا أن نتخيل (في نظام يمنح حرية جنسـية غيـر محدودة) عدد الأطفال الذين يروحون ضحية رجال مارسوا الجنس مع نساء دون أن يوقعوا معهن عقود الزواج، ولنا أن نتخيل عدد الأطفال الذي يروحون ضحية رجـال سـاورهم الشك في أبوتهم.

إن الأب لا يلد أطفاله ولذلك لا يمكن لأي أب (مهما وثق * أن يقسم أن طفله منه وهو ليس من رجل آخر. أمـا الأمومة فيه الشيء الوحيد المؤكد لأن الأم هـي التـي تلـد الطفل من رحمها هي وليس من رحم امرأة أخرى.

ومنذ التاريخ القديم، منذ حل النظام الأبـوي محـل النظام الأمومي لم تكن هناك مشكلة أكثر من مشكلة النسـب والأبوة لارتباطه بالميراث و النفقة، و كلها أسباب اقتصادية لا علاقة لها بالعدالة أو الحق أو الأخلاق. فالعدالة و الحق و الأخلاق تقضي أول ما تقضي بألا يعاقب الطفل لأن أباه جل

مستهتر و العدالة و الحق و الأخلاق تقضي أول ما تقضـي بأن يطالب الرجل بالإخلاص لزوجته بمثل ما تطالب المرأة بالإخلاص لزوجها.

ولا تدل قوانين ثبوت أو عـدم الطفـل لأبيـه فـي الماضي أو الحاضر إلا على المحاولات اليائسة التي حـاول بها الرجل إثبات أبوته البيولوجية، هذه الأبوة التي لا يمكـن إثباتها بحال من الأحوال إلا إذا ضـمن الرجـل إخـلاص زوجته له مائة في المائة، و هو أمر يكاد يكون مستحيلا في أحيان غير قليلة و لا في الاستحالة إلا أن تضـمن الزوجـة إخلاص زوجا لها مائة في المائة.

إن فقدان الثقة أمر شائع بين الزوجين لأن الـزواج في معظم الحالات لم يقم على أساس إنساني ومشاعر حـرة حقيقية متبادلة بين شخصين متبادلة بين شخصين ناضـجين مستقلين، وإنما يحدث لأسباب اقتصادية نفعية، وتدفع البنات بالإكراه للزواج من رجال أكبر سنًا لمجرد المال، وتتحـول المرأة إلى سلعة أو بضاعة تشترى بالمهر و تبـاع بـأبخس ثمن أو بلا ثمن. و علاقة الزوجة بزوجها في ظل القـوانين

الأبوية هي علاقة العبد بسيده، و هي علاقة نفعية استغلالية لم تقم على أساس من الاختيار أو الحرية أو المساواة.

و قد وجدت في البحث الذي أجريته على ١٦٠ امرأة مصرية عام ٧٣ – ١٩٧٤ م. أن ٧٥,٦% مـن الزوجـات تزوجن بغير حب، و هذا الرقم في رأيي أقل من الحقيقة لأن الزوجة المصرية أو العربية بصفة عامة تخاف من التقاليـد التي تفرض عليها الطاعة وعدم التذمر أو الشكوى. و كم من زوجة تكره زوجها و تتمنى له الموت في أعماقها بكراهيتها لزوجها لأنها تخاف منه و تخاف من الطلاق لو أنها اعترفت بما تطويه في صدرها. و هذا هو السبب الذي جعلني أضـع في بحثي سؤالا آخر عن مباشر ليدلني على مدى الحـب أو على الأقل الراحة التي تشعر بها الزوجة تجـاه زوجهـا. و كان هذا السؤال هو: هل تتزوجين زوجك هذا نفسه لـو أن السنين عادت إلى الوراء و أصبحت بنتا ولك حرية اختيـار زوجك؟ وقد أجابت ٨٤,١% من الزوجات بأنهن لا يختـرن أزواجهن لو أن الماضي عاد و أصبحت الواحدة منهن لهـا حرية أو الفرصة لاختيار زوج آخر.

أما العلاقات الجنسية خارج الزواج فقد اعترفت لـي ١٦,٧% في المتوسط من الزوجات بأن لهن علاقـات مـع رجال غير أزواجهن.

و قد ارتفعت هذه النسبة إلـى ٢٢,٤% فـي حالـة المتعلمات العصابيات والطبيعيات، و انخفضت إلى ١١,٤% في حالة النسب على الحقيقة كلها لأن الزوجة العربية بصفة عامة مهما تعلمت و استقلت فإنها تجد صعوبة في الاعتراف بأية علاقة بينها و بين رجل آخر غير زوجهـا، فمـا بـال العلاقة الجنسية. إن مثل هذه العلاقة تسمى خيانة زوجيـة، والقانون يعاقب الزوجة على الخيانة الزوجية أشد مما يعاقب الزوج فالزوجة التي تخون زوجها القانون المصري تعاقـب بالحبس سنتين. أما الزوج فهو لا يعاقب إذا خان زوجته في بيت آخر غير بيت الزوجة أما إذا مارس الخيانة فـي بيـت زوجته فإنه يعاقب بالحبس ستة شهور فقط [1].

هذا بالإضافة إلى أن العرف يعاقب المرأة وحـدها، فخيانة المرأة لزوجها محرمة شرعا وقانونًـا وعرفًـا، أمـا

([1]) المجلة الجنائية القومية، مارس ١٩٦٥، ص ١١٩، ضمن مقـال سمير الجنزوري عن الجرائم ضد العائلة و ضد الأخلاق الجنسية.

خيانة الرجل لزوجته فهي مباحة بالمستويات نفسها، ذلك أن خيانة الزوجة لزوجها معناهااختلاط النسب أو الميراث الذي هو الدعامة الأساسية لنشوء و استمرار الأسرة الأبوية!

و في رأيي أن أكبر خيانة هي أن يخون الأب ابنتـه ويكرهها على الزواج برجل لا تريده من أجل المهـر، و إن أكبر خيانة هي أن يقطع المجتمع أعضاء البنـات الجنسـية ليفرض عليهن العذرية والعفة (عملية ختان البنـات). وإن أكبر خيانة هي أن يربى الأطفال على الخـوف والكبـت و الطاعة العمياء. و إن أكبر خيانة هي أن يعاقـب الطفـل و يوصم بالعار والتشرد لأن أباه هـرب بعـد انقضـاء لذتـه الجنسية ورفض الزواج من أمه. وإن أكبر خيانـة هـي أن يملك الرجل المرأة بعقد الزواج كما يملك قطعة من الماشية. و أن أكبر خيانة هي أن تحرم المرأة من العلـم والمعرفـة لتتفرغ لغسل الصحون و الملابس. لكن المجتمـع يتغاضـى عن كل هذه الخيانات الكبـرى و لا يفـتح عينـه إلا علـى تحركات الزوجة. إن أي حركة من الزوجة أو أي ابتسـامة في وجه رجل غير زوجها تملأ المجتمع دفاعا عـن شـرفه

(و إن كان الأمر مجرد شك) لا ينال عقابا أو ينال عقابا مخففًا لأن الدفاع عن الشرف واجب الرجل الشريف.

و كم من رجل شريف يتسلل ليلا أو نهارا من بيت الزوجية ليذهب إلى عشيقته أو مومس، و من كثرة الخيانات الزوجية فقد نص قانون نابليون (عنه أخذ القانون المصري) على حق الرجل في خيانة زوجته ما دام لا يحضر عشيقته إلى منزل الزوجية.

و في رأيي أن نظام تعدد الزوجات و حق الرجل في ممارسة الجنس مع السراري و الجواري أو حقه في أن يخلط بين زوجته و امرأة أخرى جهلا أو تجاهلا ليس إلا أنواعا مختلفة من الخيانات الزوجية التي يمارسها الرجل في ظل حماية الأخلاق و الشرع و القانون و كلها مظاهر الازدواجية الأخلاقية التي يتسم بها النظام الأبوي و يبيح للرجال ما لا يبيحه للنساء.

رغم كل هذه الخيانات، ورغم أن النظام الأبوي هو الذي خلق فئة المومسات و رغم أن الرجل هو الذي يذهب إلى المومس و هو الذي يستمتع بها، و هو الذي يدفع لها، إلا

أن المجتمع لم يطلق كلمة مومس إلا على المرأة فقط و لـم يفرض العقاب إلا على المرأة وحدها.

إن الرجل في القانون المصري إذا ضـبط يمـارس الجنس مع مومس فهو لا يحبس وإنما يكون شاهدا عليها، أما المرأة فهي تحبس وحدها.

وقد كان البغاء في مصر قانونيا و تحـت إشـراف الدولة حتى سنة ١٩٥١ ثم ظهر قانون يمنعه و يعتبر البغاء في معظم البلاد العربية اليوم غير قانوني، إلا أنـه يمـارس سرا وعلنًا في بعض الأحيان.

و كم من بغايا يتسترن تحت أنواع مختلفة من الفنون الرخيصة و غير الرخيصة و كم سمعنا عن هذه الراقصـة التي تتجول في البلاد العربية فترقص في الملاهي و ترضي الرغبات الجنسية في أوكار الغرام المملوكة للرجال الأثرياء وأصحاب السلطة. و كم عرفنا عن صلة أجهزة المخـابرات في بعض الدول بمثل هؤلاء البغايا لاستخدامهن عند اللـزوم

لإغراء شخص هام أو إرهابه عن طريـق تصـويره فـي أوضاع جنسية مع امرأة [1].

و في سجن القناطر قسم النساء التقيت ببعض هؤلاء، و قالت لي واحدة منهن أثناء بحث حالتها النفسية: أكاد أجن يا دكتورة فأنا أمارس هذا العمل منذ سنوات، و الكل يعرف ذلك، فلماذا قبضوا علي الآن و أدخلـوني السـجن؟ و قـد أصيبت هذه المرأة بحالة من العصاب Nearosis لأنها لـم تفهم سر حبسها المفاجئ.

و كم من قصص أليمة لهـؤلاء النسـاء المسـميات بالمومسات واللائي لسن إلا ضحايا مجتمع مزدوج الأخلاق. و كم من قصص أليمة عن حياة الأطفال الذين عرفوا باسـم الأطفال غير الشرعيين.

وقد أصبح التناقض واضحا بين القيم الدينية المنتشرة في كل مكان و بين الإعلانات التجارية القائمة على الجسـد العاري للمرأة و زجاجات الويسكي. إن من يسـير فـي أي

([1]) انظر: قصة إحسان عبد القدوس في جريدة ((الأهرام)) تحـت عنوان ((الصيد في بحر الأسرار)) القاهرة، ٩ ديسمبر ١٩٧٦، ص ٣.

شارع من شوارع معظم العواصم العربية يرى أن جـدران بعض المباني مغطاة بإعلانات عن خمور معتقة واليد التـي تمسك بالكأس يد امرأة نصف عارية.. أو إعلانـات أفـلام تصور أجساد النساء و تعرض القصـص لمجـرد الإثـارة الجنسية. و عرض رقصات البطن البعيدة عن الفن و التـي تهدف إلى إثارة جماهير الناس المكبوتين جنسيا. و تزيد هذه الإعلانات التجارية الجنسية بازدياد ارتبـاط البلـد العربـي بالقوى الرأسمالية العالمية و المحلية و تقل بانتقاله من النظام الإقطاعي أو الرأسمالي إلى السير في طريق الاشـتراكية و محاولة تحقيق العدالة الاجتماعية.

لقد اختفى كثير من هذه الإعلانات الجنسية التجارية من شوارع القاهرة و دمشق و بغـداد و الخرطـوم حـين حاولت هذه البلاد مقاومة الاستغلال الإقطاعي والرأسـمالي وسارت بشعوبها نحو تحقيق بعض المبادئ الاشتراكية.

لكن القوى الرأسمالية العالمية لا تغفـل أبـدا عـن المنطقة العربية لما تحتويه من بترول و المواد الخام و موقع جغرافي و ميزات أخرى متعددة، و الصراع الرهيب الـدائر بغير توقف أو هدنة، فإذا ما حاولت إحدى الـبلاد العربيـة

التحرر من قبضة الاستعمار الاقتصادي الرأسمالي العـالمي حاصرتها هذه القوى العالمية من جميع الجهات ووجهت إليها الضربات الواضحة والخفية حتى تعيدها إلى حظيرة النظـام الرأسمالي العالمي.

و بازدياد الإعلانات الجنسية التجاريـة لتصـريف الإنتاج الرأسمالي تزيد المواعظ و الأحكـام الدينيـة لكبـت الشعوب جنسيا وإخضاعها للسلطة.

وقد لوحظ أنه بازديـاد الإعلانـات التجاريـة فـي العواصم العربية عن الخمور وزجاجات الويسكي لتصـريف إنتاج مصانع الخمور في لندن و نيويورك تزداد الصـفحات الدينية في الصحف العربية و أجهزة الإعـلام، و المطالبـة بإصدار قوانين لتحريم شرب الخمور لأن شرب الخمور في الإسلام مكروه أو حرام و قد يصل الأمر إلى إصدار قوانين مضحكة لشدة تناقضها أو لأنها تعاقب الذي يشرب الخمر و لا تعاقب الذي يبيعه أو لأنها تعاقب الفندق الصغير في الحي الفقير و لا تعاقب الفندق الكبير في الحي الراقي.

أحد أمثلة ذلك هو قانون تحريم الخمور الذي صـدر في مصر ١٩٧٦ [1]، و الذي أباح الخمور للفنادق الكبيرة و الشقق المفروشة باعتبارها أنها أماكن سياحية مع أن معظـم هذه الشقق المفروشة ليست أمكان سياحية و لكنهـا أوكـار للبغاء و الدعارة الخفية.. و سواء كانت سياحية أو أوكـارا للبغاء فهي فوق أرض مصرن أو فـوق أرض إسـلامية و المفروض أن تحكمها المبادئ الإسلامية مثلها مثـل شـقق الطبقات الكادحة الفقيرة.

ولا أظن أن الإسـلام يمكـن أن يسـتثنيها لمجـرد الحصول على عدد من الـدولارات أو العملـة الصـعبة أو تنشيط السياحة.

وإذا كان تنشيط السياحة يتعارض مع مبادئ الإسلام فالمفروض (بمنطق الدين الصحيح) هو تنشـيط الإسـلام على حساب السياحة وليس تنشيط السـياحة علـى حسـاب الدين...

إلا أن التناقض هو سمة أي منطق استغلالي. و فـي الوقت الذي تتعرى فيه أجساد النساء على الشاشة الصغيرة و

---

(1) جريدة الأهرام، القاهرة ١٧ – ١٨ مايو ١٩٧٦.

الكبيرة و صفحات المجلات تنتشر ظاهرة الطرح و فـرض ما سمي بالزي الإسلامي على البنات والنسـاء تحـت اسـم الاحتشام، وإخفاء جسم المرأة لأنه ((عورة و فتنة)) ما عدا وجهها وكفيها. و لا أدري كيف تخفي الفتاة العربية شـعرها وجسمها وفتنتها على حين تحاصرها في كل لحظة إعلانات الراديو والتليفزيون التي تدعوها إلـى الفتنـة و السـحر و الإغراء بالكريمات والدهانات و الروج.. الذي يجعل شعرها متموجا ساحرا.. الخ.

و كم من فتيات ونساء عربيات يصـبن بـالأمراض النفسية المتعددة بسبب هذا التنـاقض الشـديد. إن الأغـاني العربية لا تكف ليل نهار عن التغني بالحب. والأدب العربي لا يكف عن النداء للحب، و لكن إذا ما استجابت فتـاة لهـذا النداء وأحبت فالويل لها. إن أقل ما يمكن أن توصف به هو أنها فتاة بغير شرف و بغير أخلاق ويرفض الزواج منها أي رجل حتى الرجل الذي أحبته.. إنه يقول لها: إنه لا يثق في الفتاة التي تحب رجلا قبل الزواج وإن كان هو هذا الرجل!..

وبازدياد الاستغلال واستنزاف قوت الشعب و بترول العرب إلى جيوب الحكام المحليين والرأسـماليين العـالميين

يزداد الفقر بين الأغلبية الساحقة من الشعوب العربية، وتزداد حدة المشكلة الاقتصـادية، و بانتشـار السـلع الأوروبيـة الأميركية الباهظة الأثمان في الأسواق العربية تزداد صفوف الشعب الكادح أمام الجمعيات التعاونية والمخابز الشـعبية.. يقفون بالساعات الطويلة من أجل التنافس على رغيف خبـز أو قطعة صابون أو باكو شاي.

إن من يسير في الشوارع يـرى السـلع الأجنبيـة المستوردة تغمر الأسواق بأثمان باهظة ويرى فـي الوقـت نفسه طوابير الرجال والنسـاء الـواقفين أمـام الجمعيـات والمخابز ومحلات البقالة الشعبية.

وبتأزم الحالة الاقتصادية للأغلبية من الناس تنتشـر ظاهرة الاختلاس والسرقة و القتـل... و قـد ازدادت هـذه الحوادث في المجتمع إلى حد مطالبة بعض الصحف بإقامـة نظام القاضي الليلي [1] لحماية رجال الأمـن والنـاس مـن اعتداءات حاملي الخناجر واللصوص والخاطفين.

([1]) انظر: جريدة الأخبار، القاهرة ٢٥ أغسطس ١٩٧٥.

وانتشار ظواهر العنـف و السـرقة و الخطـف و الإدمان [1] و الاتجار بالجنس و المخـدرات علنًـا وسـرا، وانحراف الآباء الذين يبيعون بناتهم باسم الزواج وانجـذاب الشغالات والخادمات إلى مهنة الدعارة أو الرقص الرخيص أمام السياح والأثرياء، و انتشار الممارسات الجنسية الخاليـة من العواطف والإنسانية لمجرد الحصول على الرزق أو لقمة العيش.

بانتشار هذه الظواهر تنتشر ظواهر مناقضة لها هي تلك الموجات الدينية العامة التي تطالب بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية وعقوباتها الرادعة مثل عقوبة قطع يد السـارق و عقوبة الزنا (الرجم بالحجارة) وبتر مناظر الجـنس مـن الأفلام و إصدار قرارات بمنع القبل مـن الأفـلام العربيـة وتنفيذ قانون ((ممنوع)) لأقل من ١٦ سنة على مثل هـذه العروض السامة التي تفسد الأجيال الشابة وعقاب المنحرفات من النساء والمناداة بعودة المرأة إلى البيت التي تفسد الأجيال الشابة، و عقاب المنحرفات من النساء و المناداة بعودة المرأة

([1]) انظر: جريدة الأهـرام و الجمهوريـة، القـاهرة ١٩٧٥/٨/٢١، ١٧٥/٨/١٨.

إلى البيت حفاظا على أخلاقها وتشديد الرقابة علـى البنـات وإسقاط الجنسية المصرية عن أي امرأة من هؤلاء الفنانـات العاريات في الصور والرقصات [1].

وقد طالب بعض الكتاب العرب باقتلاع الفقـر مـن المجتمع العربي قبل اقتلاع يد السارق وحل مشكلة الشباب و الكبت الجنسي قبل توقيع عقوبة الزنا إلا أن مثل هذا التفكير ((المنطقي)) ليس إلا قطرة في بحر من التفكيـر ((غيـر المنطقي)).

إن المنطق أشد أعداء الاستغلال والاستعمار ونهـب الشعوب و لهذا تعمد الثقافـة بفنونهـا وآدابهـا وصـحفها وأجهزتها الإعلامية إلى إخفاء المنطق، وإلى تجهيل النـاس بالحقائق وإلى تجاهل الأسباب الحقيقية التي تدفع كثيرا مـن الناس إلى الانتحار النفسي البطيء عن طريـق الإدمـان أو الجنس أو الجريمة.. وأيهما أقل شرفًا: المـرأة التـي تبيـع جسدها لتأكل رغيفًا أم الدولة التي تبيع عقلها ومنطقها مـن

([1]) انظر: جريدة الأهرام، القاهرة ١٤ مايو سـنة ١٩٧٦، ١٧ مـايو سنة ١٩٧٦ تحت عنوان (من مفكرة يوسف إدريس ومن مفكرة نجيب محفوظ).

أجل أن تربح وتثري قلة من الأشخاص بيدهم السلطة ورأس المال؟ وأيهما يستحق العقاب الشاب الذي هرب من فقره عن طريق حبوب مخدرة أم الدولة التي فرضت عليه الفقر؟

إن أي مجتمع قائم على الاستغلال لا بد وأن تناقض فيه القيم التجارية والاقتصادية مع القيم الأخلاقية والدينية. و لهذا تتفشى التناقضـات فـي الـنظم الأبويـة الإقطاعيـة والرأسمالية، وتنتشر الازدواجية في كل شيء. ويدفع ثمـن هذا التناقض المحكومون لا الحكام، والنساء لا الرجـال، و الطبقات الكادحة وليست الطبقات العالية.

وتزيد هذه التناقضات حدة في المجتمعـات الفقيـر المتخلفة. وبالرغم من أن المنطقة العربية تعتبـر (بسـبب البترول ومنتجاتها الزراعية) منطقة ثرية اقتصـاديا إلا أن ثراءها لا يعود إلى أبنائها وإنما إلى أبناء الدول الاستعمارية الكبرى وإلى القلة القليلة الحاكمة داخل البلد العربي. ولهـذا السبب تعيش الأغلبية الساحقة من الشعوب العربية في فقـر وتخلف اقتصـادي و اجتمـاعي، و يـؤدي هـذا التخلـف بالضرورة إلى تخلف فكري وأخلاقي.. و في ظل التخلـف يزيد اضطهاد المرأة الاقتصادي و الجنسـي و الأخلاقـي..

فالمرأة الفقيرة تعاقب على تصرفاتها أكثر مما تعاقب المرأة الثرية، وقد يغفر الثراء فسادها الأخلاقي بل إن الثـراء قـد يحول الرذائل إلى فضائل في أحوال كثيرة ويحمـي المـال أيضا المرأة المطلقة من التشرد والتسول أو بيع الجسد فـي سوق البغاء الرسمي أو غير الرسمي.. ويساعد المال المرأة على التخلص من الجنين غير المرغوب فيـه عنـد بعـض الأطباء رغم تحريم الإجهاض إلى غير ذلك من الأمور...

وتعاني المـرأة العربيـة مـن الاضـطهاد بسـبب الازدواجية الأخلاقية، فالاستعمار الرأسمالي و الاقتصـادي إلى جانب امتصاصية لخيرات المنطقة العربية فإنه ينقل إلى المجتمع العربي ازدواجيته الأخلاقية الناتجة عن التناقض بين قيمه التجارية وقيمه الدينية. وتعاني المرأة أكثر من غيرهـا الاضطهاد بسبب هذه الازدواجية، فجسدها يجب أن يعـرى لشد انتباه الناس وإثارتهم من أجل ترويج السلع عن طريـق الإعلانات وأجهزة الإعـلام والأفـلام والأغـاني والفنـون والصحف والمجلات.. وجسدها عورة ويجـب أن يحجـب بمنطق القيم الدينية والأخلاقية.. و تصبح المرأة أداة للعمـل التجاري.... وأداة العمل بغير أجر في البيت أو الحقـل، أو

أداة للعملين معا داخل البيت وخارجه.. أو أداة للولادة مـن أجل إنتاج البشر للدولة أو أداة جنسية من أجل إشباع رغبات الرجل أو ترويج السلع.

إن إزالة الاضطهاد الواقع على المـرأة العربيـة لا يمكن أن يتم إلا بإزالة الأسباب الحقيقيـة والأصـلية لهـذا الاضطهاد. كما أنه لا يمكن تحرير المرأة حقيقة إلا بإزالـة جميع أنواع الاضطهاد سواء أكانت اقتصادية أم جنسـية أم أخلاقية أم نفسية. إن تحرير المرأة اقتصاديا فقط لا يكفـي.. وخروج المرأة إلى العمل و حصولها على أجر مساو لأجـر الرجل لا يقود إلى تحريرها الحقيقي إذا ظل النظـام أبويـا تخضع فيه المرأة للرجل في ظل قوانين الزواج والطلاق.

وتحرير العمال والفلاحين من استغلال الرأسـماليين والإقطاعيين لا يقود إلى تحرير المرأة لأن المرأة تظل عبدة لزوجها. إن تحرير الرجال المقهورين لا يقود تلقائيـا إلـى تحرير النساء المقهورات.

إن القهر الواقع على الرجل من جانب واحـد هـو الدولة أو النظام الاجتماعي والاقتصادي الحاكم. أما المـرأة

فإن القهر الواقع عليها من جانبين جانب الدولة وجانب الزوج والأسرة الأبوية.

إن تحرير المرأة العربية لن يكون حقيقة فعلية إلا إذا زال القهر الواقع عليها من الدولة من الأسرة معا.

إن المرأة العربية لم تكن سلبية ولم تكن ضعيفة كما هو اليوم.. ونحن في حاجة إلى علم نفس جديد يدرس شخصية المرأة العربية القديمة والجديدة ويقدم لنا حقائق جديدة عن نفس المرأة. ونحن في حاجة إلى علم بيولوجي جديد يدرس جسد المرأة غير المكبوتة جنسيا وغير مبتورة الأعضاء الجنسية ويقدم لنا حقائق جديدة عن جسد المرأة وطاقاتها.

ونحن في حاجة إلى علم تاريخ جديد يدرس تاريخ المرأة في حياة البشرية القديمة والحديثة يدرس التاريخ الحقيقي وليس التاريخ المزيف بمصالح النظام الأبوي الطبقي.

ولعل مشكلة علم التاريخ أنه كتب من وجهة نظر الحكام لا المحكومين فجاء معبرا عن مصالح الطبقات

الحاكمة ضد مصالح الأغلبية من الكادحين، وجاء معبرا عن وجهة نظر الرجال ضد مصلحة النساء..

وقد زيف التاريخ كثيرا من الحقـائق عـن المـرأة العربية. إن النساء العربيات لسن ناقصات عقل كما يـدعي الرجال والتاريخ ولسن ضعيفات أو سلبيات بل العكس هـو الصحيح.

إن الجمال هو أن تكون المرأة علـى حقيقتهـا فـلا تزيف نفسها لترضي زوجها خوفًا من أن يطلقها، ولا تزيف شكلها لترضى الرجل حتى يتزوجها، ولا تزيـف أخلاقهـا ورغباتها وسعادتها لترضي المجتمع حتـى لا يحاربهـا أو يتهمها بالخروج عليه أو الشذوذ. والجمال هو جمال العقـل وذكاؤه وصحة الجسم والنفس وليس الجمال تـراكم الشـحم وتراكم الوهم وادعاء الضعف والسلبية.

ومن هي هذه المرأة الحقيقية أو كم هو عدد هـؤلاء النساء الحقيقيات في مجتمعنا العربـي؟ كـم عـدد النسـاء العربيات الشجاعات اللائي يواجهن النـاس بوجـه نظيـف مغسول بغير مساحيق.. وكم عدد النساء العربيات الشجاعات اللائي يواجهن أزواجهن أو آباءهن بحقيقة ما في صدورهن؟

كم عدد النساء الشجاعات اللائي يواجهن المجتمـع العربـي بحقيقة أفكارهن؟؟ ومن هي المرأة العربية التي تدلك عقلهـا قبل أن تدلك بشرتها؟؟.

من هي المرأة العربية التي تهتم بتنمية عقلها وذكائها أكثر من اهتمامها بتنمية شعرها ورموشها وأظافرها؟؟.

إن قلة عدد النساء والفتيات المهتمات بعقلهن أكثـر من رموشهن وأظافرهن ظـاهرة موجـودة فـي المجتمـع العربي. وهي ظاهرة لا تدل على أن المرأة ناقصة عقـل.. ولكنها تدل على أن التربية التي تتلقاها البنت منـذ طفولتهـا تخلق منها امرأة تافهة التفكير. فالبنت العربية تتـدرب مـن الصغر على أن تُشغل بجسمها وملابسها وشكلها أكثر مـن اهتمامها بعقلها وذكائها.

وكم يتلف الذكاء أنوثة المرأة وكم يتلف جمال المرأة أن تكون رياضية قوية العضلات أو طويلة القامـة شـامخة مفتوحة العينين. أن الأنثى المثالية هي المنكسـرة المطرقـة الناعسة العينين القصيرة القامة.

إن طول القامة يعتبر عيبا في البنت المصرية حسب بعض الكتب التي تدرس في المدارس الثانويـة. أحـد هـذه

الكتب المقررة لتلاميذ وتلميذات السنة الثالثة الثانويـة فـي المدارس المصرية تقول في الفصل الخاص بالنمو في فتـرة المراهقة إن الشكل المقبول للمراهق الذكر هـو أن يكـون طويل القامة قوي الجسم أما البنت فيجب ألا تكـون طويلـة القامة [1].

ويمثل المجتمع المصري أحد المجتمعـات العربيـة الذي أخذ من المدنية الغربية بعض مظاهرها الخارجية وأبقى على كثير من التقاليد القديمة. وفي بعض الأحيان تكون هذه المظاهر المدنية أشد تخلفا من التقاليد القديمة مثـل هـؤلاء الزوجات المصريات اللائي يقلدن الزوجات الغربيـات فـي حمل أسماء أزواجهن.

ولعل من نواحي التقدم النسبي في المجتمع العربـي أن المرأة لا تفقد اسمها بعد الزواج ولا تحمل اسم زوجهـا ولعل ذلك أحد بقايا قوة المرأة في المجتمع الأمومي القديم.

([1]) انظر: كتاب علم النفس المقرر للصف الثالـث الثـانوي القسـم الأدبي، تأليف عبد العزيز القوصي وسيد غنيم، وزارة التربية والتعليم، القاهرة ١٩٧٦ – ١٩٧٧ – فصل ٢، ص ١٣٢.

وينتشر فـي العواصـم العربيـة هـؤلاء النسـاء المتفرنجات اللائي تتصور الواحدة منهن أن المدنية هـي أن تعري فخذها في الميني جيب أو تدخن السيجارة أو البايب أو تشرب الويسكي وترقص الرقصات الحديثة...

إلا أنه تحت هذا المظهر ترقد الأنثى المكبوتة جنسيا ونفسيا و فكريا. الأنثى التي تضع الحجاب على عقلهـا وأن تعري جسدها. الأنثى التي تظن أن الغرض الأساسـي مـن حياتها هو أن تتزوج وتطيع زوجها وتخدمه وتنجب له أطفالا تريدهم ذكورا لو استطاعت..

الإجهاض ومشكلة النسل

إن النظر إلى مشكلة السكان (وبالذات في مجتمعاتنا العربية) على أنها مجرد زيادة أو خفض المواليد إنما هي نظرة محدودة قاصرة، عاجزة عن حل مشكلة السكان بالذات مشكلة الزيادة السكانية التي تعاني منها بعض البلاد العربية وفي مقدمتها مصر.

إن أول خطوة لعلاج مشكلة الزيادة السكانية في مجتمعاتنا الفقيرة هي القضاء على الفقر. والفقر في مجتمعاتنا العربية ناتج عن التخلف. والتخلف والفقر يرجعان إلى أن مواردنا وثرواتنا الطبيعية تسلب بواسطة الاستعمار الاقتصادي الذي لا يزال جاثما على صدر المنطقة العربية بأسرها!

ولهذا فإن المشكلة السكانية لن تعالج إلا بتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية السليمة، هذه التنمية التي لا يمكن أن تتحقق ما دام البلد غير مستقل اقتصاديا.

ولا شك في أن التنميـة الاقتصـادية والاجتماعيـة السليمة سوف تحرر النساء أيضا. وتسترد المـرأة حقوقهـا الإنسانية الأساسية ومنها استردادها لحقها في امتلاك جسدها، هذا الحق الذي سلب منها، لأنها هي التي تحمل الطفل وتلده.

إن المشكلة الأساسية في حياة المرأة أن جسدها هـو الوسيلة الوحيدة لإنتاج البشر ومن أجل أن تسـيطر الدولـة على وسائل إنتـاج البشـر وتخضـعها لمصـلحة النظـام الاقتصادي السائد فقد سيطرت على أجساد النساء وأصبحت المرأة لا تملك جسدها وإنما الذي يملكه هـو الدولـة التـي ورثت في العصر الحديث كثيرا من سـلطات الرجـل فـي الأسرة الأبوية البدائية...

وحيث إن الدول في العالم لم تكن فـي معظمهـا إلا دولا طبقية إقطاعية أو رأسمالية فقد أصـبح جسـد المـرأة مملوكا بقوانين صارمة لصالح الإقطاع أو الرأسمالية. وكـم تتغير هذه القوانين تبعا لحاجة الدولة لمزيد من الأيدي العاملة أو خوفها من الكثرة البشرية.

إن الحرية الجنسية وإنجاب الأطفال بكثـرة خـارج الزواج أو داخله عمل صالح تكافأ عليه الأم المتزوجة وغير

المتزوجة بالتساوي في المجتمع السويدي اليـوم. فـالمجتمع السويدي يعاني من قلة الأيدي العاملة.

أما في البلاد التي تعاني من مشكلة زيـادة السـكان مثل الهند ومصر فإن الأم المتزوجة (دع غيـر المتزوجـة جانبا) قد تعاقب إذا ما ولدت طفلا غير طفلهـا الثـاني أو الثالث. و قد ارتفعت بعض الأصوات في مصر في السنوات الأخيرة تطالب بحرمان المرأة العاملة من بعـض الحقـوق والعلاوات الدورية إذا ما أنجبت أكثر من طفلين. وفي الهند و بلاد أخرى نماذج مختلفة من العقوبات التي قد تصيب الأم ذات الخصوبة العالية.

وفي تونس والصومال.. رغم أنهما بلدان إسـلاميان فقد أبيح الإجهاض كإحدى وسائل مكافحة الكثـرة السـكانية رغم أن معظم البلاد العربية تحرم الإجهاض بـدعوى انـه محرم في الإسلام.

إن الذي يدرس علاقة الدين بالسلطة فـي مختلـف الأنظمة والعصور يرى كيف يمكن للدين الواحد أن يجمـع بين قيم ومبادئ متناقضة تختلف باختلاف نظام الحكم وكـم تغيرت مبادئ الكنيسة في أوروبا لتساير أنظمة الحكومـات

العربية المختلفة ما بين عبودية أو إقطاعية أو رأسـمالية أو اشتراكية.

ويقف رجال الدين الإسلامي بالنسبة لموضوع تحديد النسل موقفًا متناقضا، بعضهم يرى أن الإسلام يبيح تحديـد النسل والإجهاض أيضا. وبعضهم يرى أن الإسـلام يحـرم الإجهاض بل يحرم أيضا استخدام وسائل تحديد النسل.

وقد أعلن رئيس الدولة المصـرية (جمـال عبـد الناصر) في الميثاق الوطني سنة ١٩٦٢ ضـرورة تنظـيم الأسرة ((لأن مشكلة تزايد السكان المطرد أهم عقبة تواجـه الشعب المصري في كفاحه لرفع مستويات الإنتاج)).

وفي سنة ١٩٦٥ تأسس الجهـاز الرسـمي لتنظـيم الأسرة تحت سمع وبصر رجال الدين ولم يعترض أحد منهم على قرار رئيس الدولة بل إن بعض المشايخ تسـابقوا إلـى إثبات أن الإسلام يبيح تحديد النسل. وتردد على سمعنا فـي الصحف وأجهزة الإعلام الأحاديث والآيات التي تدعو إلـى تحديد النسل. وعمل جهاز تنظيم الأسرة عشر سنوات كاملة حتى سنة ١٩٧٥، وكان جمال عبد الناصر قد مات قبل ذلك بأربع سنوات، فإذا بقرار يذاع على النـاس مـن المجلـس

التأسيسي لرابطة العالم الإسلام يقول إن تحديد النسل حـرام في الإسلام، وجاء في القرار [1] ما يأتي: ((وقد ثبت طبيـا أن تناول الدواء المانع من الحمـل يلحـق أضـرارا بليغـة بالأمهات أو بأولادهن إذا لم ينفع في منع الحمل وولادن. ولا يعتد بالأسباب الواهية التي يذكرها أنصـار تحديـد النسـل كخوفهم من كثرة السكان وتعذر التغذية وفساد التربية ففـي الآية الكريمة الجواب على ذلك: ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم** ﴾ فالرزق على الله وهو مكفول: ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ [2].

إلا إن جهاز تنظيم الأسرة في مصر لم يتوقف عـن العمل، فهناك آراء أخرى في الإسلام أيضا تعارض الـرأي السابق. وهناك بلاد إسلامية أباحت تحديد النسل مثل المغرب وتونس وإيران وتركيا وتوسعت بعض البلاد إلى حد إباحـة الإجهاض.

([1]) نشر هـذا القـرار فـي جريـدة الأهـرام ١٨ أبريـل ١٩٧٥، الصفحة ١١.

([2]) القرآن، سورة الإسراء، الآية ٣١.

ومن ناحية جوهر الإسلام هلا يوجد شيء في القرآن يؤيد منع الحمل و يعارضه، ويعتبر القرآن الأس ـاس الأول للفقه الإسلامي، ويليه في ذلك أحاديث الرسول محم ـد، ث ـم إجماع العلماء والقياس. هذه هي الأسس الثلاثة بعد الق ـرآن، وللرسول محمد أحاديث تدعو إلى التكاثر والتناسل، وأحاديث أخرى تدعو إلى قلة العيال. وبالمث ـل أيض ـا آراء العلم ـاء والفقهاء وهذا التناقض في أحاديث الرسول يدل على أن هذه الأحاديث نزلت في ظروف مختلفة وكان لها أسباب مختلفة. وآيات القرآن نفسه بعضها قد يناقض البعض الآخ ـر لأنه ـا جاءت في ظروف مختلفة ولأسباب مختلفة. فالدين لا يمك ـن أن يفهم كنصوص متفرقة ولكن الدين يفهم كلا متك ـاملا ولا بد من دراسة الظروف والمجتمعات التي عاش فيها.

في بداية الإسلام كان الرسول محمد في حاجة إل ـى إنشاء الدولة الإسلامية وتقوية الأمة الإسلامية ف ـدعا الن ـاس إلى التناسل فالكثرة العددية في تلك العهود كانت تؤدي إل ـى القوة وازدياد عدد الجيوش المحاربة. ولذلك نج ـد أحادي ـث محمد تقول ((تناكحوا تكاثروا، فإني مباه بكم الأم ـم ي ـوم

القيامة)) [1] ويستند بعض الفقهاء على بعض الآيات القرآنية لتحريم تحديد النسل، مثل آية: ﴿ **وكأين من دابـة لا تحمـل رزقها، الله يرزقها وإياكم** ﴾ [2]. وآية ﴿ **الله يبسط الـرزق لمن يشاء من عباده** ﴾ [3]. وأيضا ﴿ **إن ربك يبسط الـرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ [4].

تأييدا لهذا الرأي كثيرا ما يشار إلى تأكيد النبي على أنه حين يمضي على الجنين في بطن أمه مائـة وعشـرون يوما ((يبعث الله ملكًا فيؤمر له بأربع)): ((برزقه وأجله، وشقي أو سعيد)) [5]. إلا أن محمد كان يرمي إلى أن الكثرة العددية يجب أن تقترن بالصحة والقـوة ولـيس بالضـعف والتفكك وعدم الفائدة.

وهذا تفكير أي شخص يقود شعبا محاولا أن يقويـه ويساعده على الانتصار على أعدائه.

([1]) الغزالي: إحياء علوم الدين، القاهرة ١٩٣٩، ص ٢٢.

([2]) القرآن: سورة العنكبوت، الآية ٦٠.

([3]) القرآن الكريم: سورة العنكبوت الآية ٦٢.

([4]) القرآن: سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

([5]) حجج البخاري، جزء ٧ ، ص ١٩٦ .

وقال محمد في حديثه المعروف: ((جهد البلاء كثرة العيال مع قلة الشيء)) وهذا الحديث هو الذي اتخذه جهـاز تنظيم الأسرة في مصر كشعار خاص به. وللرسول حـديث آخر يقول فيه: توشك الأمم أن تتداعى عليكم كمـا تتـداعى الأكلة إلى قصعتها ((فقال قائل)) أومن قلة نحـن يومئـذ؟ فقال: لا، بل أنتم كثير، ولكنكم كغثاء السيل [1].

ويعني بذلك أن كثرة عدد البشر غير المفيدة وغيـر القوية كالزبد الذي تقذفه المياه بغير نفع لأحد.

وكان المسلمون يمارسون تحديد النسـل فـي عهـد محمد بواسطة العزل، أي بواسطة القذف خارج الرحم.

وجاء في الصحيحين عن جابر ((كنا نعـزل علـى عهد رسول الله والقرآن ينزل)) [2]. وفي صحيح مسلم قال: كنا نعزل على عهد رسول الله فبلغ ذلك الرسول فلم ينهنا[3].

([1]) أحمد الشرباصي ، الإسلام وتنظيم الأسرة ((الاتحـاد العـالمي لتنظيم الوالدية ١٩٧٤ جـ ٢ ، ص ١١.

([2]) صحيح البخاري، جزء ٧ ، ص ٤٢ صحيح مسـلم ، ١٠/ ١٤ ، القرمزي ، ٧٤/٥ ، ترتيب مسند أحمد بن حنبل ١٦/ ٢١٩ .

([3]) صحيح مسلم ، ١٠ / ١٤ مع شرح النووي.

وقال الإمام الغزالي: ((والصحيح عنـدنا أن ذلـك (العزل) مباح [١].

وينص فقهاء المذهب المالكي على جواز العزل لمنع الحمل واشترطوا إذن الزوجـة بـذلك صـغيرة كانـت أو كبيرة[٢].

والمذهب المنتشر في اليمن (عن الإمام زيد بن علي زين العابدين) يبيح العزل إذا وافقت الزوجة. وأجاز الإمام يحيي بن زيد العزل لمنع الحمل صراحة [٣]، وفي العـراق وباكستان وأفغانستان وسورية ينتشر الشيعة الجعفرية الـذين تبيح كتبهم العزل لمنع الحمل على أن توافق الزوجـة عنـد عقد الزواج [٤].

([١]) الغزالي، الأحياء جزء ٢ ، المكتبة التجارية بمصـر ، ص ٥١ – ٥٢.

([٢]) حاشية الدسوقي وشرح الدردير على متن خليل، جـزء ٢ ، ص ٢٦٦ .

([٣]) كتاب البحر الزخار ، مطبعة أنصار السنة المحمديـة ، ١٩٤٨ ، جزء ٣ ، ص ٨٠ – ٨١ .

([٤]) كتاب الروضة البهية ، شرح اللمعة الدمشقية ، مطبعة دار الكتاب العربي بمصر ، جزء ٢ ، ص ٦٨ .

وعن الرسول محمد أنه نهي أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها [1] وأتباع عبد الله بـن أبـاض التميمـي (يعرفـون بالأباضية) في عمان في شرق الجزيرة العربيـة وبعـض مناطق في شمال إفريقيا يبيحون العزل برضا الزوجة وقالوا: ((إن العزل يباح للفرار من الولد خشـية العيـال وإدخـال الضرر على الرضيع)).

وأباح بعض فقهاء الإسلام وسائل أخرى لمنع الحمل غير العزل، ومنها أن تسد المرأة فم رحمها منعـا وصـول الماء (السائل المنوي) لأجل منع الحمل. وذلك ما نقله ابن عابدين عن صاحب البحر، أحد فقهاء المذهب الحنفي، وقـد اشترط لجواز ذلك موافقة الزوج [2].

وقد تكلم الزركشي عن إسقاط الجنين باستخدام دواء ثم قال: ((هذا كله في استعمال الدواء بعـد الإنـزال فإمـا استعمال ما يمنع الحمل قبل إنزال المني حالة الجماع مـثلا مانع منه)) [3].

([1]) كتاب دعائم الإسلام ، دار المعارف جزء ٢ ، ص ٢١٠ .

([2]) نظرة الإسلام إلى تنظيم النسل ، ص ٨٠ .

([3]) الرملي ، نهاية المحتاج ، جزء ٨ ص ٤١٦ .

وقالت لجنة الفتوى في الأزهـر: إن اسـتعمال دواء لمنع الحمل مؤقتًا لا يحرم على رأي عند الشافعية، وبه تفتي اللجنة لما فيه من التيسير على الناس ورفع الحرج، ولا سيما إذا خيف من كثرة الحمل أو ضعف في المرأة مـن الحمـل المتتابع والله تعالى يقول:﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ [1]. وكان الأطبـاء المسـلمون طـوال العصـور الوسطى يقدمون للناس المعلومات عن وسائل منع الحمـل. فمن هؤلاء أبو بكر الرازي الطبيب المسلم الفارسي الذي ولد قرب طهران في منصف القرن التاسع، وهو يعتبـر أعظـم الأطباء السريريين في الإسلام، وأعظـم أطبـاء العصـور الوسطى. وقد ذكر في كتابه ((الحاوي)) وسـائل مختلفـة لمنع الحمل وكتب يقول: ((إن من المهم أحيانًا منع المنـي من دخول الرحم –حين يكون الحمل خطـرا علـى المـرأة مثلا.. وهناك عدة طرق لمنع دخولـه: أولهـا أن ينسـحب الرجل من المرأة في لحظة القذف فلا يقتـرب المنـي مـن مدخل الرحم، والطريق الثانية هي منع القذف وهي طريـق

([1]) القرآن : سورة البقرة ، الآية ١٨٥ ، وفتوى الأزهر في ١٠/ ٣/ ١٩٥٣.

يمارسها البعض، أما الطريقة الثالثة فهي وضع نـوع مـن العقاقير عند فم الرحم قبل الإدخال، فإما أن يسد العقار مدخل الرحم أو يطرد المنى فيحول دون الحمل، مثل أقـراص أو تحاميل الكرنيب، والحنظل، والقار، ومرارة الثور، والمـادة الشمعية التي تفرزها أذن الحيوان، وروث الفيل وماء الكلاس ثم إن هذه المواد قد تستعمل منفردة أو مجموعة)) [1].

ومن أكبر أطباء عهد الخلافة العباسـية علـى بـن العباس المجوسي الذي كتب خلال منصف القـرن العاشـر يقول: ((إن الأدوية التي تمنع الحمل، وإن كـان واجبـا ألا تذكر لئلا يستعملها بعض النساء السيئات السمعة، إلا أنـه لا مفر من إعطائها للنسوة ذوات الـرحم الصـغير أو اللائـي يعانين مرضا يجعل الحمل خطرا إلى حد تعريض الحامـل للموت أثناء الوضع)) [2].

ورغم تفوق علي بن العباس في معلوماته الطبية عن وسائل منع الحمل إلا أنه لم يكن متفوقًا في معلوماتـه عـن المجتمع والأسرة الأبوية، ومأساة الأطفال غير الشـرعيين،

([1]) أبو بكر الرازي ، الحاوي ، فصل ٢٤ .

([2]) علي بن العباس المجوسي، كامل الصناعة الطبية ، فصل ٢٨.

لأنه لو كان ملما ببعض هذه المعلومات ربما كان قد رأى أن هؤلاء النساء اللائي أطلق عليهن اسم سيئات السمعة (لا بد أنه كان يعني المومسات)، هن في أشد الحاجة من غيـرهن إلى وسائل منع الحمل حماية لأطفالهن من التشـرد والعـار والموت، وحماية لصحة المرأة أيضا ونفسيتها من عب طفل غير شرعي، لم يكن إلا نتيجة اتصال الرجـال بهـا، هـذا الاتصال المفروض عليهـا بسـبب ظروفهـا الاقتصـادية والاجتماعية التعيسة في ظل مجتمع طبقي أبوي.

ومن أشهر علماء الإسلام ابن سينا الذي مات سـنة ١٠٣٧، الذي كتب في كتابه القانون [1] عشرين طريقة لمنع الحمل على نحو ممتاز بالنسبة لعصره، وقد استعملت قرونًا وفاقت طرقه علميا ما كتبه كثيرون من الذين جاءوا بعـده. لكنه ككل الأطباء في الماضي والحاضر كان يصف وسـائل منع الحمل لأسباب طبية فقط كمـرض الـرحم أو ضـعف المثانة، أما الأسباب الاقتصادية والاجتماعية فلم يرد ذكرهـا إلا نادرا جدا.

([1]) ابن سينا ، القانون في الطب ، (المجلد) ٢ ، ص ٣٧٥ .

وقد أخذت أوروبا عن هذه الكتـب وعـن هـؤلاء الأطباء المسلمين كثيرا من معلوماتها الطبية الحديثة، وأخذت أيضا عن الإرشاد لابن الجامع، وتـذكرة داوود الأنطـاكي وإسماعيل الجرجاني والكتاب الملكي.

ويظن بعض الناس أن وسائل منع الحمـل وفكـرة تحديد النسل نبعت من الغرب وبعض الناس يتصـورون أن الحاجز المطاطي الذي يستخدمه الرجل لمنـع الحمـل مـن ابتكار علماء الغرب مع أن الإمام الغزالي ذكـر مـا سـماه ((قراب الذكر)) أو ((الحجاب الواقي)) وكان يصنع قديما من الأمعاء.

وتختلف البلاد العربية الإسلامية في نظرتهـا إلـى موضوع تحديد النسل حسب مشكلة السكان وعلاقتها بالإنتاج أو الموارد الاقتصادية المادية. ففـي الكويـت والسـعودية (المملكة العربية السعودية) لا تنصح الحكومة بمنع الحمل إلا لأسباب طبية فقط. أما في البلاد العربيـة مثـل مصـر وتونس فإن الحكومة تتبنى مشروعات لتحديد النسل. وكذلك الأمر أيضا في بلاد إسلامية مثل باكستان وتركيا وإيـران.

فالمسألة إذن ليست مسألة دينية، ولكنهـا مسـألة اقتصـادية أساسا.

ولقد أثير موضوع تحديـد النسـل فـي الصـحافة المصرية منذ أعوام طويلة، في ٢٩ يناير ١٩٣٧ [1] حـين طلب من مفتي الديار المصرية الإدلاء برأي الدين المحـدد بشأن منـع الحمـل والإجهـاض مـن النـاحيتين الطبيـة والاجتماعية. وقد كان رد المفتي كالآتي:-

١- للزوجين أن يتخذا الإجراءات الضرورية لمنـع الحمل لأسباب طبية واجتماعية أخرى. فإذا ما فشلت الوسيلة في منع الحمل وحدث الحمل أصبح عليها أن تسـعى إلـى الإجهاض غير القانوني، مما يعرضها لأخطـار الإجهـاض غير الطبي السليم، أو لجشع بعض الأطباء الذي يتـاجرون بعملية الإجهاض لعدم قانونيته.

ولا تزال عمليات الإجهاض في معظم البلاد العربية ومنها مصر غير قانونية متخفية في الظلام، ولـيس هنـاك

---

(١) علي شعبان ، منع الحمل في الإسلام ، مقال في كتـاب الإسـلام وتنظيم الأسرة ، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية ، ١٩٧٤ ، جـزء ٢ ، ص ٢١١ .

بيانات دقيقة عن عدد عمليات الإجهاض، ولكن هناك بيانات تقريبية عن العدد الكلي لهذه العمليات الصادرة من مختلـف المستشفيات.

وقد لوحظ أن عدد عمليات الإجهاض التـي تجـرى بسبب الأمراض الخطيرة في انخفاض مستمر، وعلى العكس من ذلك تزايد العمليات التي ترجى لأسـباب نفسـية أو مـا يسمى طبيـا ((تهـدد الأم)) [1] وذلـك لمجـرد اسـتيفاء المتطلبات القانونية فالأسباب النفسـية ليسـت إلا الأسـباب الاجتماعية والاقتصادية وهي الأسـباب التـي لا يعتـرف القانون بوجاهتها لإجراء الإجهاض.

وقد لوحظ أن عمليات الإجهـاض تجـرى لنسـاء الطبقات القادرة اقتصاديا بزيـادة قـدرها ثلاثـة أضـعاف العمليات التي تجرى للنساء الفقيرات، ومن هنا يظهر تحايل بعض الأطباء على القانون بسبب المال، وأن الأطباء (كمـا كتب الدكتور إسماعيل رجب رئيس قسم أمراض النساء بكلية

([1]) انظر: د. إسماعيل رجب، مقال بعنوان الجنين المشـوه والحمـل الخطأ، مجلة الصحة القاهرة، العدد ٢٣ يناير سنة ١٩٧٣ ، ص ٤٤ – ٤٧.

طب عين شمس): ينقسمون إلى قسمين بالنسبة لموقفهم من الإجهاض:- قسم أصغر يقوم بهذه العملية ويتحايـل علـى القانون بشتى الطرق لأسباب مادية في معظم الأحوال، وقسم آخر أكبر يرفض القيام بالعملية ذاتها ولكنه يحـول حـالات الإجهاض إلى الأطباء الذين يقومون بهذه العمليـات غيـر القانونية، بالرغم من أن هذا التحويل في حـد ذاتـه خـرق لقانون الإجهاض.

إن عملية الإجهاض لا تزال في مجتمعنـا العربـي تعاني من التناقضات في القيم والازدواجية التي هي السـمة الأساسية لأي مجتمع أبوي طبقي.

ورغم قانون التحريم فالإجهاض غير القانوني منتشر في مجتمعاتنا وتدل البيانات التقديرية في مصر على أن حالة حمل واحدة منكل أربع حالات حمل تجهض بطريقـة غيـر قانونية. وينتج من هذا مئات المضاعفات الخطـرة سـنويا وبالذات في حالة الأمهات الفقيرات. وقد أصبح الإجهـاض غير القانوني يمثل في مصر السبب الرئيسي الأكبر لوفيـات الأمهات.

ولا شك في أن حالة الأم غير المتزوجة تصبح أشد خطورة، لا من الناحية الطبية فحسب، وإنمـا مـن الناحيـة الأخلاقية والاجتماعية، ومعظـم هـؤلاء مـن الخادمـات الصغيرات اللائي تعرضن لاغتصاب بواسطة أزواج وأبناء الأسر العالية وفوق المتوسطة. وقلـة مـنهن مـن البنـات الصغيرات الغريرات اللائي صدقن وعود الرجـال الكاذبـة بالزواج. على أن انتشار وسائل منع الحمل قد خفـض مـن نسبة هذه الحالات.

ومن المعروف أن حالات الإجهاض التي تحدث في مصر ليست هي حالات الأمهات غير المتزوجـات لأن ٩٠ % على الأقل من حالات الإجهاض غيـر القـانوني هـن لأمهات متزوجات يتراوح عمرهن بين ٢٥ – ٣٥ سنة، وإن أكثر من ٨٠ % من هؤلاء أمهات أنجبن من قبل طفلـين أو أكثر، وليس في مقدور أسرهن تحمل الأعبـاء الاقتصـادية والاجتماعية لطفل جديد.

إن إباحة الإجهاض في مصر أو في غيرهـا مـن البلاد العربية لن تزيد العدد الضخم لحالات الإجهاض غيـر القانوني، ولكنها ستخرج عمليات الإجهـاض مـن السـوق

السوداء. وتمنح الأمهات الفقيرات إجهاضا طبيا نظيفًا كالذي تتمتع به النساء القادرات ماديا، وخاصة بعد ظهـور جهـاز الشفط للإجهاض من الذي يجهض الجنين في بضـع دقـائق بغير ألم وبغير تخدير الأم. وقد أباح اليوم عدد مـن الـبلاد الغربية الإجهاض تحت ضغط الأعداد المتزايدة من النسـاء الواعيات المتحررات وكذلك فعلت أيضـا الـبلاد الشـرقية كالهند كحل لمشكلة السكان.

إن الأم وحدها هي صاحبة الحق الأول والأخير في تقرير بقاء الجنين في جسدها أو إسقاطه، وهذا شيء طبيعي لأن الجنين قبل أن يولد ليس إلا جزءا من جسد الأم. ولـيس هناك من هو أحق من الأم بامتلاك هذا الحق. والمفروض أن كل إنسان يمتلك جسده، والمفروض أن تمتلك المرأة جسدها لأنها إنسان. فهذا أول حقوق الإنسان.

وإنني أعتقد أن مشكلة الزيادة السكانية ليست هي مجرد خفض المواليد بوسائل منع الحمل أو إباحة الإجهـاض، ولكنهـا مشكلة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتحرير نصف المجتمع وهن الإناث، وتحرير المجتمع كله من الاستغلال والفقر عن طريق الاسـتقلال السياسي والاقتصادي وخطط التنمية الاقتصـادية والاجتماعيـة السليمة التي ترفع من مستوى الفرد ماديا وفكريا.

الخاتمة

قال الإمام أبو حنيفة: ((إن الحجر علـى الإنسـان بنفسه أشد ضررا من الحجر عليه حفظًا لماله فالمال غـاد ورائح، أما الحجر عليه نفسه فيـؤدي إلـى هـدر آدميتـه، والأهلية الآدمية هي أعظم نعم الله)).

هذا كلام مقنع جميل يجب أن لا يسري على الرجل فقط، ولكن على المرأة أيضا. فالمرأة إنسان كالرجل تمامـا، لها أهليتها الآدمية التي هي أعظم نعـم الله التـي يجـب ألا تهدر.

إن إهدار الأهلية الآدمية للمرأة إنما هو اعتداء على أوامر الله وعلى مبادئ الدين الذي يدعو إلى الحق والحريـة واحترام الإنسان.

ولكن كم تهدر الأهلية الآدمية لأغلبية النساء والبنات في بلادنا العربيـة دون أن يرتفـع صـوت بالاحتجـاج أو الغضب، إلا في حالات نادرة قليلة.

إن المرأة العربية منذ ثلاثة عشر قرنًا وفـي حيـاة الرسول محمد كانت أكثر إنسانية وأكثر آدمية مـن المـرأة

العربية اليوم. أليس ذلك سببا كافيا لبذل الجهود والتضحيات من أجل الكشف عن الأسباب الحقيقية التي تسـلب المـرأة آدميتها وإنسانيتها؟ بل وتسلب الرجل أيضا.

إن الإسلام يتضمن كثيرا من الإيجابيات التي يجـب أن نظهرها ونفهمها فهما صحيحا نابعا من المراجع المعترف بها. وأنا من الناس الذين يحاولون فهم الدين بعقلي أنا وليس بعقول بعض رجال الدين. ذلك أنه لا يوجد في الإسلام رجل دين.

إن رجل الدين لفظ كهنوتي بعيد عن الإسلام والعلـم بالدين واجب علي، لأنني أنا الوحيد المسئولة أمام الله عمـا أفهم من ديني، وغيري ليس مسئولا عني.

إنني إذا أخطأت، وكان خطئي ناتجا عن اجتهاد أحد رجال الدين فإن هذا الرجل لن يتحمل المسئولية عني أمـام الله. فالإنسان المسلم (رجلا أو امرأة) مسـئول مسـئولية شخصية عن فهمه لدينه.

وأول مبادئ الإسلام هو أن الناس سواسية كإنسـان المشط لا فرق بين ذكر وأنثى ولا فقير ولا غني ولا حـاكم ولا محكوم.

وأول مبادئ الإسلام هو أن يستخدم الإنسـان عقلـه ويفكر فيما حوله من ظواهر ومشاكل بحرية وصدق وهـذا هو ما حاولت أن أفعله وأنا أكتب هذا الكتاب.